

مصر وشرق الأدنى القديم

(٩)

المغرب القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر وشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار المعرفية الجامعية
٤ شارع ستيرز الأوريط
الاسكندرية



مصر والشرق الادنى القديم
المغرب القديم

مصر وشرق الأدنى القديم

(٩)

المغرب القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر وشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار المعرفة الجامعية
٤ شارع ستيفن الأفاريطة
الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
مولانا وسيدنا محمد وآله الكرام

« اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على
ابراهيم وآل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما
باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، في العالمين انك حميد مجيد»

إهداء

الى ولدي

عصام وأمل

أهدى هذا الكتاب

تقديم

قدمنا فى الأجزاء الثمانى الأولى من هذه السلسلة « مصر والشرق الأدنى القديم » دراسة عن تاريخ مصر القديمة وحضارتها - فى الأجزاء الخمس الأولى - فضلا عن تاريخ العرب القديم وحضارتهم - فى الجزأين السادس والسابع - ثم بلاد الشام فى الجزء الثامن .

ونقدم اليوم فى هذا الجزء التاسع من هذه السلسلة ، دراسة عن تاريخ المغرب القديم منذ أقدم العصور ، وحتى نهاية الحرب البونية الثالثة ، وبداية الاستعمار الرومانى للمغرب الشقيق ، فى عام ١٤٦ قبل مولد المسيح عليه السلام .

وليس هناك من ريب فى أن المغرب القديم ، انما قد تأثر الى حد كبير بموقعه الجغرافى ، الذى يربطه بأوربا ، فضلا عن افريقيا وبالصحراء الكبرى ، وما وراءها من أرضين وأقوام ، الى جانب ما يربطه بشرق حوض البحر المتوسط ، الأمر الذى أدى الى اتصاله بكل هذه البقاع المختلفة - سكانا وحضارة - وفى نفس الوقت فلقد تأثر المغرب القديم كثيرا بالبيئة المحلية نفسها .

ولا ريب فى أن هذه العوامل جميعا ، انما قد جعلت تاريخ المغرب القديم ، يجمع فى آن واحد ، بين الصفة المحلية والدولية معا ، وإن كان - فيما قبل الحرب البونية - أقرب الى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، منه

الى التاريخ الأوربي ، على عكس الفترة التي بدأت منذ الاحتلال الروماني ، ثم استمرت على أيام الوندال والبيزنطيين ، حيث كان المغرب ابان هذه الفترة ، على اتصال وثيق بالجانب الأوربي ، كما كان تاريخه وقت ذاك يتداخل فيه القديم مع الوسيط .

ومع ذلك ، فالذى لإشك فيه ، أن تاريخ المغرب القديم ، انما كان - في معظمه - جزءا من تاريخ الشرق الأدنى القديم ، تعرض للضغط الخارجى ، يوم تعرض هذا الشرق لهذا الضغط أو ذاك ، ونعم بخيراته ، وتمتع بحريته ، يوم أن كان هذا الشرق فى أيدي أبنائه ، ولاقى مالا قى هذا الشرق ، يوم أن كانت قوى أجنبية تتحكم فى مصايره ، وتجنى خيراته ، وتمتهن كرامته ، وتفقده القدرة على أن يعمل لمصلحته ، ومن ثم فليس عجبا أن كان تاريخ المغرب القديم متأثرا بتاريخ الشرق الأدنى القديم ، ومؤثرا فيه .

وظل الأمر كذلك ، حتى اذا كان العقد الخامس من القرن السابع الميلادى ، بدأت طلائع النور من مهبط الوحي فى بلاد العرب تهل - عن طريق مصر - الى المغرب ، تحمل معها هداية الاسلام ، ونور الايمان ، وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى آمنت أقوام المغرب بربها الواحد الأحد ، واعتنقت الاسلام - دين الله الخالد ، والى الأبد ان شاء الله - ونطقت بالعربية ، لغة القرآن الكريم ، وتحررت من دنس الاستعمار ، وعبادة غير الله الواحد القهار ، وسرعان ما أصبحت إحدى حصون الاسلام المنيعه ، وسوف تظل كذلك - ان شاء الله - الى أن يرث الله الارض ، ومن عليها ، وما عليها . بعون من الله تعالى ، وبهدى من سنة رسول الله ، ﷺ ، وبالتعاون وثيق مع العربيات الشقيقات .

والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع ، والله العزة ولسوله
وللمؤمنين •

«وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب» ، ، ،

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

بولكى فى { الأول من يناير عام ١٩٩٠م
الرابع من جمادى الآخرة عام ١٤١٠هـ

الباب الأول

عصور ما قبل التاريخ

الفصل الأول

العصر الحجري القديم

مرت منطقة المغرب القديم — أو الشمال الافريقي — كغيرها من مناطق الشرق الادنى القديم بعصور ما قبل التاريخ في مراحل مختلفة، من العصر الحجري القديم الاسفل الى الاوسط فالاعلى ، ثم بمرحلة العصر الحجري الحديث ، وقد استمرت هذه المراحل — من الناحية الزمنية — منذ ظهور الانسان في المغرب وحتى نهاية العصر الحجري الحديث ، حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، طبقا للمصادر الكلاسيكية ، وان أرجعتها الادلة الاثرية الفينيقية الاولى الى القرن الثامن قبل الميلاد ، بل قد استمر — الى حد ما — في بعض المناطق الداخلية الى العصر التاريخي ، ولنتحدث الان عن العصر الحجري القديم بمراحله المختلفة .

(١) العصر الحجري القديم الاسفل

يذهب الباحثون في حضارة العصر الحجري القديم الاسفل الى أن آثار موقع «عين حنش» — بسطيف في الجزائر — انما تمثل أقدم جهد انساني في صناعة الادوات الحجرية في شمال أفريقيا ، وذلك على أثر العثور على قطع حجرية من الحجر الجيري يقترب شكلها من الشكل الكروي ، وتتميز بكثرة أضلاعها وزواياها ، غير أن الاتجاه الحديث انما يذهب الى أن موقع «عرباوة» في شمال سهول المغرب ، و «دوار الدوم» في مجاورات العاصمة المغربية «الرباط» ، و «محجر دبريه» وموقع «ترديجه الرحلا» في نواحي غابة المعمورة ، وجميعها غربى

المغرب الأقصى ، وقريبة نسبيا من المحيط الاطلسي ، انما هي أقدم من آثار «عين حنش»^(١) .

ولعل السبب في ذلك أن هذه المواقع انما تمثل جهدا صناعيا أكثر قدما من الكرات الحجرية المنتمية الى «عين حنش» ، وبالتالي فانها تمثل أقدم آثار صنعها الانسان في المغرب الكبير في أقدم عصوره ، هذا فضلا عن أنه قد عثر على موقع في الجزائر ينتمى لهذه المرحلة - وأعني به المنصورة - حيث كشف فيه عن طبقة أثرية تمثل حضارة الحصى المشذب^(٢) .

هذا وقد تميزت حياة الانسان الاقتصادية في هذه المرحلة بالجمع والالتقاط ، ولذا فان استقراره في الكهوف وحول العيون والابار والودية ، انما كان استقرارا مؤقتا ، فسرعان ما ينتقل الى مكان آخر يبحث فيه عن طعام جديد ، وقد نجح هذا الانسان الاول في بداية تطوير حياته بضعه الآلات الحجرية الاولى كالفؤوس اليدوية^(٣) .

بقيت الاشارة الى أن النعام انما كان هو الطائر الوحيد الذي تأكد وجوده أثريا في مرحلة العصر الحجري القديم الاسفل والابسط في المغرب ، كما أشار الى ذلك «فوفري» في طبقة «ترنيفين» في الجزائر ، ربما بسبب ظروف المغرب المناخية والنباتية ، وعلى أية حال ، فالمعروف أن طبقات عصور ما قبل التاريخ الاثرية في المغرب - بوجه عام - لم تكد تخلو واحدة منها من بيض النعام أو قشوره^(٤) .

(١) رشيد الناضوري - المغرب الكبير - الجزء الاول - العصور القديمة - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٧٥ - ٨٢ ، وكذا
L. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955, P. 159, 174.
P. Bidetson, La Paleolithic Inferieur du Marco, Atlanique, Rabat, 1961, P. 494.

2) R. Hugot, L'Afrique Prehistorique, Paris, 1970, P. 21.

(٣) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٨٩ .

4) R. Vaufrey, Karthago, 1955, P. 383.

(٢) العصر الحجري القديم الاوسط

اكتشف انسان العصر الحجري القديم الاسفل عددا من التجارب دفعته الى الانتقال الى العصر الحجري القديم الاوسط ، والتي تتمثل بوضوح في صناعة الادوات الحجرية ، وخاصة في صناعة الشظايا ، والتي كانت تتطلب تدريبا طويلا ، يظهر في عمليات ضرب الحجر في زوايا معينة مما ينتج عنه هذه الشظايا المتميزة بحدتها ، والمميزة لهذه الحضارة ، وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية تتضمن آثار مرحلة العصر الحجري القديم الاوسط ، في بلاد الشمال الافريقي ، من ليبيا شرقا ، وحتى المحيط الاطلسي غربا .

هذا ويطلق العلماء على هذه المرحلة الحضارية من عصور ما قبل التاريخ اسم «الحضارة العاترية» — نسبة الى موقع «بئر العاتر» في وادي جبانة قريبا من قسطنطينية في الجزائر ، على الحدود بينها وبين تونس — وكان «فردريك مورو» أول من أشار الى الصناعة العاترية في عام ١٨٨٨م ، وذلك عندما التقط «أدوات مذبنة» في وادي سليحة (جنوب غرب قفصة) ، وان كان «كيري» قد سبقه الى ذلك ، عندما نشر عام ١٨٨٦م عن مواقع ما قبل التاريخ في «وهران» ووصفها بأنها «موسثيرية» وان كانت الحضارة العاترية — رغم تشابهها مع الحضارة الموسثيرية في كثير من الوجوه — انما تختص بالادوات المذبنة^(٥) .

وفي عام ١٩١٩م نشر «ريجاس»^(٦) دراسة عن التقنيات الحجرية القديمة في شمال أفريقيا ، كما أشار الى اكتشاف الموقع الموسثيري النموذجي (الابيرة) ثم اكتشف موقع «بئر العاتر» وعشر فيه على الصناعة العاترية تحت عمق ثلاثة أمتار في نفس الطبقة ، مع الصناعة

5) A. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Arts et Metiers graphiques, Paris, 1955, P. 269.

(٦) أنظر :

M. Reggasse, Etudes de Palethnologie Maghrebine (Nouvelle Serie), L'Anthropologie, 25, 1919-1920.

الموستيرية ، ومنذ ذلك التاريخ دأب «ريجاس» على استخدام مصطلح العاترية ، بدلا من الابيرة ، ثم أقر «مؤتمر مونبيلييه» عام ١٩٣٩م هذا المصطلح ، ويعنى التقنيات المرسيرية ذات الادوات المذبذبة^(٧) .

وعلى أية حال ، فلقد وجدت العاترية بمظهرها الصميم فى كثير من المواقع والطبقات الاثرية فى جميع أنحاء المغرب ، فوجدت فى الرسومات السطحية لوادى جبانة ووادى جوف الجمل وكاف الاحمر ووادى سرديس ، وفى رمال جبل عواش ، وفى عقلة شعاشع ، وفى كل رسوبات مقاطعة قسطنطينة ، وفى رواسب الرمل الاحمر على طول الساحل الجزائرى فى كارويه وضواحي بنزرت وغيرها ، وفى كهوف المملكة المغربية ، فى الخزيرة ، وفى الرواسب السطحية لوادى جوربا وكهوف دار السلطان وتافورال ، وببيت مليل والحنك^(٨) .

هذا ويبدو أن الانسان فى هذا العصر ، قد استعمل — بجانب الحجر — الاخشاب والجلود والعظام وبيض النعام أو قشوره ، كما بدأ يدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم فى الحياة الانسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، وأراد تجسيم هذه القوى فى أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره^(٩) .

هذا وقد اختلف الباحثون حول المناخ الذى ساد الشمال الافريقى ابان عصر الحضارة العاترية ، فمن يرى أن المناخ كان رطباً حاراً (أى آخر فترة مطيرة) ، ومن يرى أنه كان جافاً ، ومن يحاول التوفيق بين الاتجاهين ، فيذهب الى أن المناخ انما كان وقت ذاك يتميز بالرطوبة الشديدة ، مع انخفاض قليل فى درجة الحرارة^(١٠) .

(٧) أم الخير العقون : العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال أفريقيا منذ أقدم العصور حتى نهاية الالف الثانى قبل الميلاد — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧ .

8) R. Vaufray, Op. Cit., P. 106.

(٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٠٥ .

10) H. Alimen, Prehistoire de L'Afrique, Ed. N. Boubee, VI, Paris, 1955, P. 63-64.

وعلى أية حال ، فالرأى عند «كاتون طمبسون» أن موقع الخنزيرة (طبقة آ) في المغرب الأقصى ، إنما يمثل أقدم مرحلة للعاترية في الشمال الأفريقي^(١١) ، ثم انتشرت جنوب الأطلس الصحراوي في العصر العاتري الوسيط ، ثم الى الشرق حيث وجدت بعض المواقع العاترية في ليبيا ، كما في وادي ما سودا ، ووادي درنة ، اللذين اكتشفهما «ماك برني» عام ١٩٤٩م ، ووصفهما بالفلطوازية الموسيرية ، ومن ثم فقد أصبحت منطقة الجبل الاخضر في ليبيا بمثابة جسر انتقال الحضارة العاترية من الشرق الى الغرب أو العكس ، وتذهب «كاتون طمبسون» الى أن العاترية سرعان ما انتقلت الى الواحات المصرية — سيوه والداخلية والخارجة — حوالى العصر الحجري القديم الاعلى المبكر ، بدليل وجودها في واحة الخارجة فوق طبقة الفلطاوية مباشرة^(١٢) .

ويذهب استاذنا الدكتور أحمد فخري — طيب الله ثراه — الى أن «ستون كان» (H. W. Seton Ken) و «كومنجتون» (C. W. Cummington) إنما قد عثرا في واحة سيوه على بعض الادوات التي نسبها الى تأثيرات غربية (شمال أفريقية) ، ووصلت مصر أثناء عصر الحجري القديم الاعلى^(١٣) .

وعلى أية حال ، فهناك من يذهب الى أن الصناعة العاترية (العاطرية) قد وصلت الى مصر في العصر الحجري القديم الاوسط ، ولعل أهم مواقعها إنما كانت تلك التي كشف عنها «ساندفورد» على مقربة من نقادة ، وفيما بين دندرة والمراشدة ، فضلا عن تلك التي على مقربة من نجع حمادى (بمحافظة قنا) وأسيوط ، الى جانب ما كشف عنه «سليجمان» في ضواحي طيبة «الاقصر» ، وفي العراة المدفونة (مركز البليتا — بمحافظة سوهاج) ، وأخيرا فلقد كشفت «كاتون — طمبسون»

11) Caton-Thompson, The Aterian Industry, its Place and Significance in The Paleolithic World, in JRAI, V, 1946, P. 115.

12) G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, Kharga Oasis in Prehistory, London, 1952, P. 31.

13) A. Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, P. 71.

عن وفرة من الصناعة العاطرية في واحة الخارجة^(١٤) ، بل ان هناك ما يشير الى وصول النماذج العاطرية التي وجدت في مصر الى المملكة العربية السعودية^(١٥) .

هذا وقد اختلف الباحثون حول أصل هذه الحضارة العاطرية ، فهناك من ينسبها الى الشمال الافريقى ، ويرى أنها ظهرت في غرب الجزائر ، وفي المغرب الاقصى ، ثم بعد ذلك في شرق الجزائر وتونس^(١٦) ، على أن هناك وجها آخر للنظر تذهب صاحبة — كاتون طمبسون^(١٧) — الى احتمال أصل أسبوى لصناعة النصال العاترية انتقل الى شمال أفريقيا باعتبار الحضارة السبيلية مرحلة انتقال^(١٨) .

ويذهب أستاذنا الدكتور الناضورى الى أن الصناعة العاترية تشبه صناعة «الحضارة الطفلاوية الموستيرية الفلسطينية» في الانتاج الصناعى وفي انتماء كل منهما لفترة زمنية واحدة ، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤ المشع» على بعض البقايا المتفحمة التى عثر عليها في المواقع في طبقات «كهف هوافتح» في منطقة وادى درنة ، فأدى الى تقدير عمر هذه البقايا بحوالى ٤٣٠٠٠ ق.م ، كما أن هناك شبهة بين البقايا العظمية الانسانية من هذه المرحلة وبين «الانسان النيدرتالى الفلسطينى» ، وقد أدى ذلك كله الى وجود صلات حضارية وبشرية بين غربى آسيا

14) C. Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, fig. 31-35, P. 128-129.

K. S. Sandford and W. J. Arkell, Paleolithis Man and The Nile Fayum Divid Chicago, 1933, P. 116-118, Fig. 47-52.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, in GL, LXXX, 1932, P. 404.

15) R. M. Gramly, Neolithic Flin Implement Assemblages from Saudia Arabia, in JNES, 30, 1971, P. 177-185.

G. Caton-Thompson, in JRAI, LXXVI, 1946, P. 89.

16) L. Balout, Op. Cit., P. 334.

17) G. Caton-Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signetiance in the Paleolithic World, in JRAI, V, 1946, P. 119.

(١٨) أنظر عن الحضارة السبيلية (محمد بيومى مهران — مصر — الجزء الأول — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠١ — ٢٠٦) .

— وخاصة فلسطين — وبين المغرب — وخاصة برقة (شمال شرقي ليبيا) ،
الامر الذى يدل على وجود جانب شرقي — فضلا عن العناصر المحلية —
في حضارة العصر الحجري القديم الاوسط في المغرب^(١٩) .

(٣) العصر الحجري القديم الاعلى

يقسم «ماك برنى» العصر الحجري القديم الاعلى الى أربعة
مراحل متعاقبة^(٢٠) ، ففي أوله تسود المناطق الشرقية — الجبل
الاخضر — صناعات تنسب الى كهف «حجفة الضبع» (حكفت الضبعة)
يعزى قدومها من الشرق ، ثم يلي ذلك المناطق منطقة صناعات سطايا
تمثل الاطوار النهائية من المفلوذية وان حلت محلها بعد ذلك صناعات
«حكفت الضبعة» التى يصل تأثيرها الى تونس ، وشرق الجزائر ، وفي
مرحلة ثالثة — يفترض لها ماك برنى سنوات ١٠٠٠٠ ، ٩٠٠٠ ق.م —
تسود الصناعات الوهرانية منطقة الساحل الليبي حتى برقة ، وربما
مصر السفلى ، وفي المرحلة الرابعة — ويفترض لها ماك برنى فيما بين
عامى ٩٠٠٠ ، ٥٠٠٠ ق.م — تأخذ الحضارة القفصية في الازدهار
والانتشار لتشمل كل الشمال الافريقي ، وتحل محل الوهرانية ، وان
كانت القفصية تتطور في «سرت» الى نوع من الصناعات القفصية
المتميزة Microlithic يمكن تسميتها «الميكروليثية السرتية»^(٢١) .

هذا وتتمثل حضارة العصر الحجري القديم الاعلى في حضارتين ،

(١٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٨ وانظر :
C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of The Northern Africa, London,
1960, P. 168.

(٢٠) قارن تقسيمات اخرى تذهب الى تقسيمها الى ثلاثة مراحل :
الاولى وهى المرحلة السابقة على القفصية ، وأما المرحلتان الاخريان ،
فهما متزامنتان ومعاصرتان للحضارة القفصية .

(٢١) حسن الشريف : تقييم مفارن لمواقع حضارات عصور ما قبل
التاريخ — مجلة البحوث التاريخية — العدد الثانى — ليبيا (بنغازى —
طرابلس) ١٩٨٦ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، وكذا
Mc Burney, (C. B. M.), The Stone Age of Northern Africa, London,
1960, P. 225.

الواحدة : الحضارة الوهرانية (الحضارة الايبرو مغربية) (٢٢) ،
والاخرى : الحضارة القفصية ، وقد توصل الانسبان في هذه المرحلة
التي تمثلت في عدد من المواقع الاثرية المنتشرة من منطقة الجبل الاخضر
في ليبيا ، وحتى ساحل المحيط الاطلسي ، الى صنع أسلحة حجرية دقيقة
عرفت باسم «الادوات الميكروليثية» Microlithic ، الامر الذي
يدل على خبرة دقيقة بالصناعات الحجرية (٢٣) .

هذا ويذهب أستاذنا الدكتور الناضوري (٢٤) الى أن هناك عددا من
المواقع الاثرية التي تمثل الانتقال الحضاري من العصر الحجري القديم
الاوسط الى العصر الحجري القديم الاعلى ، ذلك لان هذه النقطة انما
ثلاثة مواقع أثرية رئيسية في منطقة اجبل الاخضر الليبية تمثل منطقة
كانت - كغيرها من مراحل الانتقال - تدريجية ، وعلى أية حال ، فهناك
الانتقال الحضاري هذه ، أولها : كهف حجة الطيرة (حكفت الطيرة) (٢٥) ،
وتقع على مبعده ٢٤ كيلا من بنى غازي ، عند تقابل الصحراء مع الوادي
الساحلي ، حيث عثر على آثار مرحلة الانتقال في أرضية الكهف ، فضلا
عن الصناعات النصلية ، وخاصة الاسلحة الميكروليثية والازاميل
الدقيقة .

وثانيها : كهف «حجة الضبع» (حكفت الضبعة) في برقة ، حيث عثر
على أسلحة كثيرة مختلفة الاحجام ، مما يؤكد اعتبارها منطقة انتقال

(٢٢) الايبرو- مغربية : مصطلح أطلق على حضارة موقع مويلح
(وهران الجزائر) على أساس وجود صلة تربط حضارة النصال في اسبانيا ،
والموهرانية في شمال أفريقيا ، غير أن الابحاث أثبتت عدم وجود هذه
الصلة ، هذا فضلا عن أن البعض عرب المصطلح (Iberaumaursien)
الى «ايبرو موريتانيا» ، وهذا خطأ لأن موريتانيا اسم أطلقه الرومان
على مملكتي : موريتانيا القيصرية في غرب الجزائر ، وعاصمتها «شرشال»
وموريتانيا الطنجية في المغرب الأقصى ، وعاصمتها طنجة ، هذا فضلا عن
أن الملاحظة عبر مضيق جبل طارق لم تبدأ حتى حوالي ٤٠٠٠ ق م

(٢٣) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٢٤) نفس المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٨ .

(٢٥) مثلت العاترية أيضا في هذا الكهف ، وقد بحث فيه الايطالي

Petrocchi في عام ١٩٤١م وكذا «مال برني» عام ١٩٤٨م (Mc Burney, Op. Cit., P. 192)

حضارى ، ذلك لان التوصل الى صناعة حجرية جديدة لا يعنى أبدا الانقطاع الفجائى عن التقاليد الحضارية السابقة ، وانما المفروض منطقيا أن يسير التقليدان جنباً الى جنب ، حتى يحصل القديم محل الجديد ♦

وثالثهما «كهف هوافتيح»^(٢٦) ، والذي تعتبر طبقاته الاثرية بمثابة سجل حى لتاريخ الانسان فى هذه المرحلة ، وما تلاها حتى العصر التاريخى ، حيث عثر على كميات كبيرة من الاسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجرة الطيرة ، ولنتحدث الان عن الحضارتين الوهرانية والقفصية ♦

(١) الحضارة الوهرانية :

نسبت هذه الحضارة الى «وهران» ، وقد كشف عنها «بول بالارى» (Paul Pallary) فى عام ١٨٩٩م فى وادى مويلج ، على مقربة من مدينة مغنية فى غرب الجزائر ، وأطلق عليها اسم «اييرو - مغربية» ، اعتقادا منه أن هناك صلة تربطها بحضارة العصر الحجري القديم الاعلى فى شرق أسبانيا ، وإن أثبتت المقارنة بين المواقع المختلفة عدم وجود هذه العلاقة ، ومن ثم فقد أطلق عليها «فوفرى» اسم «الحضارة الوهرانية»^(٢٧) ، غير أن موقع مويلج انما كان متوسط الاهمية ، وأقل

(٢٦) كهف هوافتيح (Haua Fteah) : كشفت عنه بعثة كميردج فيما بين عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٥م ، على مقربة من سوسة فى ليبيا (الى الشرق قليلا من مرسى سوسة ، وهى أبولونا القديمة ، بمنطقة الجبل الاخضر ، وأرخ له «كربون ١٤» ما بين ٩٠٠٠ ، ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وبعد هذا الكهف من أكبر وأوسع كهوف عصور ما قبل التاريخ ، ربما فى كل حوض البحر المتوسط ، وشكله نصف دائرى بقطر ٨٠ مترا ، ويبعد عن ساحل البحر ببضعة مئات من الامتار ، وتوجد فى سطح الكهف اثار من عهد الاستيطان الاغريقى (القرن ٧ ق.م) ، ثم آثار الليبيين القدامى ، ثم أدوات من العصر الحجري الحديث ، ومع أن عمق الحفريات وصل الى ١٣م ، غير أن عمق الترسبات غير معروف (أنظر عن كهف هوافتيح : C. B. M. Mc Burney, The Hawa Fteah (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1967).

(٢٧) قارن : رشيد الناصورى : المرجع السابق ص ١١٦ - ١١٧ .

شأننا من موقع «أهلوبوريما» بين جيجل وبجاية في شرق الجزائر ، هذا فضلا عن انتشار مصطلح «ايبرو - مغربية» في الابحاث الاثرية ، الامر الذى أدى الى الابقاء على هذا المصطلح ، رغم عدم دقته •

وعلى أية حال ، فالحضارة الوهرانية حضارة ساحلية ، وصناعتها غير دقيقة ، ومن مادة رديئة ، بل ويعددها الباحثون من أفقر صناعات عصور ما قبل التاريخ ، ويقسمها الباحثون الى ثلاث مراحل : الاولى سابقة للحضارة القفصية ، وتوجد في موقع واحد قرب مدينة قفصة في تونس حيث الادوات الكبيرة وعدم وجود أدوات ميكروليثية ، ثم تتجه شمالا الى موقع سيدى منصور في تونس أيضا ، حيث وجدت الازاميل القزمية • والثانية والثالثة معاصرة لها ، وانتميزت المرحلة الثانية بالادوات الميكروليثية ، فضلا عن تلك التى صنعت من عظم ، وقد وجدت في مواقع عميقة في المغرب الاقصى ككهف الخنزيرة ودار السلطان ومغارة تافورالت ، وأما المرحلة الثالثة فقد وجدت في مغارة «كلومانتا» في الجزائر ، وقد تميزت بأدواتها الميكروليثية ، وأنها تمثل أوج «الحضارة الايبرو مغربية» (٢٨) •

هذا وقد اختلف الباحثون في تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية في سلم التطور الحضارى في هذا العصر ، فهناك من يراها متأخرة زمنيا ، أى أنها معاصرة للمرحلة الاخيرة من الحضارة القفصية ، ومن يرى لها أسبقية في الصناعة النصلية على أساس أن بعض المواقع الاثرية في نواحي الدار البيضاء انما تحوى خليطا من الاثار الوهرانية ، وبالتالي فان للحضارة الوهرانية أولوية في الصناعة النصلية في المغرب ، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى وجود صلات حضارية بين حضارة «هوافتيح» في برقة ، والحضارة الوهرانية ، وأخيرا فهناك اتجاه رابع

(٢٨) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١ ، وكذا
R. Vaufray, Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb Ed-Masson, Paris,
1955, P. 88-89.
L. Balout, Op. Cit., P. 304. وكذا

يذهب أصحابه الى الاعتقاد في وجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الاسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية ، وان اختلفت الاراء في أيهما المصدر الاصلى لهذه الحضارة ، هل هو الجانب الاوربي أم المغربي (٢٩) .

وعلى أية حال ، فلقد انتشرت الحضارة الوهرانية في تونس والجزائر والمغرب ، وان اختلفت مواقعها من الساحل قربا أو بعدا ، ففي تونس : وجدت مواقع : أكاريت ، وأدواته مطابقة لأدوات كحفيت الطيرة في ليبيا ، و «أوشتاتا» ، وقد كشف عنه عام ١٩٥٢م ، ويعتبره البعض من أقدم مواقع الحضارة الوهرانية في الشمال الافريقي ، وفي «قلعة الصنم» على الحدود بين تونس والجزائر (٣٠) .

وأما مواقع الحضارة الوهرانية في الجزائر ، فهي مواقع ساحلية تمتد من عنابة وحتى أقصى الغرب الجزائري ، وقد وجدت في عنابة وسوق وهران وبجاية ، وأما في الوسط الجزائري ، فتبعد المواقع عن الساحل ، ويتمثل ذلك في اختراق انسان «مشتا العربي» (٣١) (حامل الابيرو مغربية) للهضاب العليا ، كما في موقع «الهامل» على مبعده ٢٥٠ كيلا من الساحل ، وتشير القواقع البحرية في هذه المواقع على اتصال بالمواقع الساحلية .

(٢٩) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٧ .

L. Balout, Op. Cit., P. 375-377.

(٣١) كان مشتا العربي سكنا لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم في المتوسط) ومستطيلي الرؤوس ، لهم جبهة ضيقة ، وشفاه طويلة ، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطنها في المغرب ، وكانوا يمارسون عادة خلع الاسنان القاطعة ، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس ، ونحافة الجسم في أماكن معينة أظهرها «كولومناتا» (Columnata) في غرب الجزائر . وذلك حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م (أنظر : جيهان ديزانج : تاريخ أفريقيا العام - اليونسكو ١٩٨٥ ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، وكذا

L. Balout, Op. Cit., P. 346, 349-351.

G. Camps, Op. Cit., P. 81-88.

وكذا

M. C. Chamla, Les Hommes epipaleolitiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C. R. A. P. E, XV, 1970, P. 113-114).

هذا ويعد موقع «أفلو بوريمال» (Aflou bou Rhummel) على مقربة من بجاية في الجزائر من أكثر المواقع أهمية لهذه الحضارة ، فلقد عثر «أرمبورج» في حفائر عام ١٩٢٨م على حوالى ٦٠ هيكلا عظيما ، الى جانب مجموعة من الآلات الحجرية وغيرها ، وهناك موقع «كولومناتا» — على مبعدة ٢٠ كيلا شمال تياريه ، ١٢٠ كيلا من الساحل — وقد قدم لنا تتابعا طبقيًا لثلاث مستويات حضارية من أسفل الى أعلى (وهرائية ثم قفصية عليا ثم عصر حجري حديث) ، كما أن صناعته ذات سمة وسطى لتحول نحو القفصية ، وقد أطلق عليها «الكولومناتيه» •

هذا وتتميز حضارة العصر الحجري القديم الأعلى من هذه المرحلة بوضوح الجانب الفكرى بشكل عام ، وتشير النقوش والرسوم الكثيرة التي تركها لنا انسان هذه المرحلة على جدران الكهوف والارصفة الصخرية الى حاجته للتعبير الذى بدأ يزداد نموا حتى وصل آخر الامر الى قدرته على التعبير بالكتابة فى المرحلة التاريخية ، كما تشير أيضا الى درجة فى التصوير والتعبير ، ربما لم يصل اليها حتى نهاية عصور ما قبل التاريخ ، وعلى أية حال ، فلقد أفادتنا هذه الرسوم وتلك النقوش فى معرفة طرق المعيشة والملابس ووسائل الصيد وأدواته لانسان هذا العصر ، فضلا عن الظروف المناخية والنباتية وقت ذاك ، ودور انسان هذا العصر فى الاسهام الفنى فى المغرب ، والذى سوف يمتد على نطاق واسع فى مرحلة العصر الحجري الحديث ، وأخيرا فهناك ما يشير الى ممارسة أعمال أولية فى النحت •

بقيت الاشارة الى عادة تقطيع العظام البشرية فى مرحلة القفصية العليا ، ففى «مشتا العرب» عثر على غطاء جمجمة كان قد نشر وثقب وصقل ، وفى «كولومناتا» (Columnata) فى غرب الجزائر ، عثر على فك سفلى نشر كذلك ، وخضب بالمغرة ، ربما لان هذه العظام كانت

تستعمل كتعاويذ ، وربما لاستلھام بعض صفات أصحاب هذه المعظام (٣٢)

هذا وقد بدأت الثقافة «الايبيرية الموريتانية» — بالمعنى الدقيق للكلمة — فى الاختفاء فى نهاية الالف التاسعة قبل الميلاد ، ولم يحدث هذا فجأة فى كل مكان ، ومع ذلك فقد حلت محلها الثقافة القفصية فى «قوريناية» (Cyrenacia) (اقليم برقة) ، ولكن استسلامها أمام الثقافات المحلية فى الجزائر الغربية ومراكش كان مشوبا بالتردد ، ولا يوجد دليل على وجودها فى السواحل الشمالية الشرقية لتونس أو فى الجزر الساحلية الصغيرة ، وتركت آثارا قليلة فى منطقة طنجة ، وأنه لأمر بعيد الاحتمال جدا أن تكون قد وصلت إلى جزر الكنارى ، كما هو الشائع ، ذلك لأن «الجوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهون أنثربولوجيا لرجال مشقا العربى ، فانهم لا يماثلونهم فى الحرف الصناعية والعادات ، ولم تأت هذه الثقافة من أوروبا ، حيث أنها قامت قبل بداية الملاحة عبر المضائق ، ومن وإلى صقلية ، وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها كانت شرقية ، وربما أتت من شمال السودان وادى النيل ، ومن ثم فما داموا قد أنتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة ، فلا شك أن «الايبيريين — الموريتانيين» (الايبرو مغربيين) اتخذوا ملاجئ فى التلال ، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر الانثربولوجية لسكان الجبال (٣٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى وجود صلات حضارية بين شرقي البحر المتوسط — وخاصة فلسطين ، وعلى الاخص مدينة

(٣٢) حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغرب القديم أثناء العصر الحجري الحديث — الاسكندرية ١٩٧٥ ص ٧٨ — ٨٣ ، وكذا H. Camps-Fabrer, Matiere et Art Mobilier dans la Prehistoire Nord-Africaine, Saharienne, Mem. CRAPE, Paris, 1966, P. 206, 243.
(٣٣) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٢ ، وكذا L. Balout Op. Cit., P. 23.

«أريحا»^(٣٤) - وبين المواقع الليبية (حكفت الطيرة ، وحكفت الضبعة ، وكهف هوافتيج) أثناء العصر الحجري القديم الأعلى ، وأن هذه التأثيرات أو الصلات تمت عن طريق دلتا النيل ، غير أنه لم يعثر على آثار هذه الحضارة في المنطقة ما بين دلتا النيل وخليج سرت في ليبيا ، بينما وجدت في هذه المنطقة أدوات الحضارة العاترية ، واستمرت حتى العصر الحجري الحديث بدون انقطاع ، ومن ثم فقد بدأ العلماء في البحث عن طريق آخر لمرور هذه الحضارة من غربى آسيا الى ليبيا .

هذا وقد أصدر «فيلب جيمس»^(٣٥) عام ١٩٨٣م دراسة عن ٢٧ موقعا أثريا ، تقع في المنطقة ما بين أسوان والاقصر ، وتنتمي جميعها الى العصر الحجري القديم الأعلى ، وكان من بينها موقعان يقعان على

(٣٤) أريحا (جريكو = Jericho) : ومعناها مدينة القمر ، أو مكان الروائح العطرية ، وهي مدينة هامة تقع على مبعدة ٨ كيلا غربى نهر الاردن ، ٢٧ كيلا شمال شرق القدس ، أما «أريحا» التى جاء ذكرها في التوراة فمكانها «تل السلطان» ، على مبعدة ميل واحد من مدينة «أريحا» الحديثة ، وقد أثبتت الحفريات التى أجريت في «تل السلطان» ، على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم ، وقد اكتشف فيها فخار من أقدم فخار العالم ، كما عثر في أريحا على آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضاريا ، تؤكد الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وانتاج الطعام (أى مرحلة ما قبل النيوليتيه ، كما عثر على آثار مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم ابتداء من الطبقة التاسعة ، وكان أول من قام بالحفر في أريحا «ارنست سيللين» و «كارل فترزجر» في الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩م) ، ثم «جون جارستانج» في الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦) ثم «مس كاثلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢م (أنظر : رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١١٧/١ - ١١٩ ، ٢٤٠ ، محمد بيومى مهران : إسرائيل ٦٠٥/٢ ، قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١ ، وكذا

E. Sellin and C. Watzinger Jericho, 1913.

J. and J. B. E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 13-43.

K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, P. 62-82, 1953, P. 18-95.

1954, P. 45-63, 1955, P. 108-117, 1956, P. 67-82 and in Scientific American, 90, 1954, P. 76-82.

35) Phillips James, The Nile Valley Final Paleolithic and External Relations, University Microfilms International, Ann Arbor, Michigan, U.S.A., 1983.

مبعدة ٨ كيلا شمال غرب اسنا (ربما غرب مدينة «حسفت القديمة» ، وهى المطاعنة الحالية) ، وقد عثر فيها على كميات ضخمة من النصال ، بلغت فى الموقع الاول ١٠١٩٤ ، وفى الثانى ٢١٥٠٢ نصلا ، وأن أحد الموقعين يشبه تشذيب أدوات أوشتاتا» فى تونس ، كما اتبع فى صنع أدواته نفس التقنيات التى اتبعها انسان موقع «أوشتاتا» Ouchtata ، وأن الموقع الثانى (وقد انتقل اليه أصحابه من الموقع الاول) يشبه كثيرا من حيث التقنية والشكل موقع «المامل» ، والذي يبعد عن الساحل الجزائرى بحوالى ٢٥٠ كيلا ، كما أثرنا من قبل ، وقد خضع الموقعان لعملية التأريخ بواسطة «كربون ١٤» (٣٦) المشع ، فأرخ لها بفترة لا تقل عن ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وبالتالي فهما سابقان لموقعى شمال أفريقيا (٣٧) .

وانطلاقا من هذا ، فإن «فيلب جيمس» — وكذا «بالوه» — يتفقان على أن التأثير الذى وقع على شمال أفريقيا انما قدم من الشرق — من السواحل الليبية أو وادى النيل — وليس من الصحراء ، وأنه لم يكن مقصورا على الاداة فقط ، وانما امتد كذلك الى الملامح الجسمانية ، خاصة وأن انسان النوبة وقت ذاك انما كان يشبه رجل «مشتا العربى» (٣٨) ، وبالتالي فإن أصل الحضارة الايبىرو مغربية (الوهرانية) من وادى حلفا (السودان) وليس من مصر ، خاصة وقد كشف «فاربردج» فيما بين عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٢م عن ستة مواقع ذات أدوات

-
- (٣٦) أنظر عن التقويم بـكربون ١٤ (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧٠ — ٢٧٤ ، وكذا W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.
R. M. Derricourt, Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.
H. S. Smith, Egypt and C 14 Dating, Anliguity, 1964.
C. Flight, A Surjey of Recent Results in The Radiocarbon Charonology Northern and Western Africa, JAH, 14, 1937.
37) Phillips James, Op. Cit., P. 35, 130, 202.
38) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia, I, Dallas-Texas, U.S.A., 1968, P. 32.

ميكروليثية ميزتها اتصال ذات القاعدة في منطقة شمال وادي حلفا (٣٤٠ كيلا جنوب أسوان) ، وأطلق عليها «حضارة حلفا» ، وتظهر أهمية هذا الكشف الاثرى في أمرين ، الواحد : أنه يكشف لنا عن أول صناعة ميكروليثية في أفريقيا ، والاخر : أنه تم في هذه المواقع الستة تطور الصناعة من التشظية الى النصال (وهي تقنية جديدة) *

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هذه الصناعة ميكروليثية تماما ، ومبكرة جدا في أفريقيا ، ولا علاقة لها بالحضارة السبيلية (نسبة الى قرية السبيل ، في مجاورات مدينة كوم ، بمحافظة أسوان) ، وتمثل صناعة نصال قزمية في وادي النيل ، ومبكرة عن باقى مناطق أفريقيا ، ولقد أُرِخ لها «كربون ١٤» بحوالى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وتمثل النصال فيها نسبة ٩٢.٧٪ من مجموع أدواتها (٣٩) *

هذا وقد نزلت هذه الحضارة شمالا الى «أسنا» (بمحافظة قنا) ، وسكن أصحابها في غربى «حسفت» (المطاعنة الحالية — مركز أسنا) ، كما وجدت في «بلانة» (٣٠ كيلا شمالى وادي حلفا) بالنوبة المصرية القديمة (النوبة السفلى) ، ويؤرخ لموقع بلانة هذا بحوالى ١٤٠٠٠ سنة ق.م (طبقا لكربون ١٤) ، ويؤكد «وندروف» أن الحضارة الايبرو مغربية ظهرت في شمال أفريقيا حوالى ١٢٥٠٠ سنة ق.م ، وقد نزلت من مصر — وليس من أوروبا — وأن أصحابها انما كانوا يعيشون على طول نهر النيل ، قبل أن تنتقل الى شمال أفريقيا ، وبالتالي فان موقعى «وادي حلفا» و «بلانة» انما هما سابقان زمنيا ، ومن ثم فهما يمثلان السلف المباشر للحضارة «الايبرو مغربية» (٤٠) *

(٢) الحضارة القفصية :

سميت هذه الحضارة بالقفصية نسبة الى المدينة الرومانية القديمة

(٣٩) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٣٨ — ٤١ ، وكذا F. Wendorf, Op. Cit., P. 457.

40) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia, II, 1968, P. 1050, 1057.

(Capsa) في جنوب تونس ، وهي «قفصة الحسانية» في اقليم قسطنطية ، شمالي شط الجريد في تونس ، وأما الموقع النموذجي لهذه الحضارة فهو حقل الحلزون أو الرماديات ، وكان «دى مورجان» أول من حدد سمتها الصناعية^(٤١) ، معتمدا على المادة الاثرية من موقع «المقطع» (على مبعدة ١٤ كيلا شمال غرب قفصة) ، وقد قام كل من «فوفري» و «جوبيير» بحفائر في هذا الموقع .

هذا وقد ظهر أصحاب هذه الحضارة حوالى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وهم قوم ذو قوام طويل رشيق ، من جنس البحر المتوسط ، وان لم يخلو من الصفات شبه الزنجية ، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماما ، وان كانت على وجه اليقين في الجزء الداخلى ، دون الامتداد — على ما يظهر — الى أقصى الحدود الغربية لشمال أفريقيا ، أو الى الصحراء الجنوبية ، وقد انتهت هذه الحضارة القفصية حوالى عام ٤٥٠٠ ق.م^(٤٢) .

هذا وقد أطلق العلماء الفرنسيون على مواقع الحضارة القفصية «الحلزونيات أو الرماديات» Escargotieres ، وهي ركام من الرماذ أو الحجارة التى استعملت كأوانى للطبخ لنوع من القواقع ، وتبلغ أبعادها أحيانا ٢٠٠ مترا طولا ، ٥٠ مترا عرضا ، ٥ أمتار ارتفاعا ، هذا فضلا عن الادوات الحجرية التى كان يستخدمها الانسان .

وتدل الهياكل العظمية التى عثر عليها في الرماديات على أن الانسان القفصى — والذي استمر وجوده حتى العصر الحجري الحديث — مختلف عن انسان «مشتا العربى» (حامل الحضارة الايبرو مغربية) ، وأنه من جنس البحر المتوسط ، وان كان يحمل ملامح زنجية ، وقد مارس هذا الانسان عادة صقل الحجارة في صنع الكرات المثقوبة — والتى ربما كان

41) J. De Morgan, Les Premieres Civilizations, Paris, 1901.

(٤٢) جيهان ديزانج : تاريخ أفريقيا العام ص ٤٣٢ ، وكذا
G. Camps, Op. Cit., P. 159, 262.

يستخدمها لدق وطحن الحبوب البرية ، وان لم يثبت عدم معرفته للزراعة — ، كما استخدم الفخار ، ومارس عادة قلع الاسنان ، بطرق تختلف عند الرجل عنها عند المرأة ، فبعضهم تقلع أسنانه العلوية ، وبعضهم تقلع أسنانه السفلية ، وان لم يعرف الهدف من هذه العادة حتى الان (٤٣) .

وهناك ما يشير الى بداية التعبير الفكرى عند انسان الحضارة القفصية ، الامر الذى سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة في العصر الحجري الحديث ، هذا فضلا عن ممارسة النقش على قشور بيض النعام ثم صياغتها في حبات لنظم عقود الزينة ، ومن المعروف أن استعمال قشور بيض النعام انما كانت من مظاهر الصناعات الاصلية في الشمال الافريقي في المرحلة التى أعقبت العاترية (٤٤) .

هذا وقد انتشرت الحضارة القفصية حول موارد المياه والاماكن الصعبة المنال في تونس وشرق الجزائر ، وخاصة في منطقة «تبسة» ، حيث وجدت بها ما يزيد عن تسعين «رمادية» ، ولعل من أهم مواقعها : عين مترشام وبئر أم على وعين دوكازة وبئر حميرة وعين غيلان وواد مدفون وكف ركنية وخنقة موحد وفم السلجة وفج ابراهيم والمقطع ورديف ، وتشير مواقع سكنى القفصيين هذه — فيما يرى بالوه — الى أن القوم انما كانوا غزاة ، لا يحسون بأمان فردى أو جماعى ، ومن هنا كانت سكناهم في مواقع صعبة المنال ، فضلا عن سيطرتهم على موارد المياه (٤٥) .

على أن القفصية الصميمة لم تمتد الا في الجزء القارى من جنوب تونس ، وتتفق حدودها مع مقاطعة قسطنطينية الجزائرية ، ولا تصل

(٤٣) R. Fauvrey, La Préhistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb, Paris, 1955, P. 127, 257.

L. Balout, Op. Cit., P. 18.

(٤٤) H. Alimen, Op. Cit., P. 78.

(٤٥) L. Balout, Op. Cit., P. 399.

الى الساحل الشرقى ، كما أنها فى المغرب لا تتعدى الكتل الجبلية لجبال
أطلس ، ولا تتجاوز شمالها ، ثم هى بعد ذلك لا وجود لها فى الصحراء
أو مقاطعات الجزائر ووهران ، فضلا عن المغرب الاقصى ، ومن ثم فقد
اعتبر البعض مرحلة القفصية الصميمة مرحلة حضارية قصيرة الاجل (٤٦) .

وأما القفصية العليا ، فقد شملت كل منطقة القفصية الصميمة ،
فضلا عن أنها زحفت الى الشمال ، ولكن دون الاتجاه نحو الشرق ،
ووصلت الى الحد الشمالى للهضاب العليا ، ولكن دون بلوغ البحر ، أما
من جهة الغرب فهى لم تتجاوز خط التنصيف لمدينة الجزائر ، الذى يرى
فيه «(فوفرى)» الحد الغربى للقفصية العليا ، وعلى أية حال ، فلقد ارتبط
انتشار الحضارة القفصية بأماكن وفرة الظران (٤٧) .

هذا وقد قسم «(بالوه)» الصناعة القفصية الى مرحلتين ، مرحلة
القفصية النموذجية ، وتشمل أدوات كبيرة من نصال وأزاميل ، ثم
تطورت الى القفصية الحديثة التي تتميز باتجاه صناعتها الى الادوات
القرمية واتخاذ الاشكال الهندسية ، وقد أرخ «كربون ١٤» للمرحلة
النموذجية فى موقع «المقطع» (٤٨) بفترة تتراوح فيما بين ٦٦٥٠ ± ٤٠٠
سنة قبل الميلاد ، وللفترة الحديثة فى موقع «الماء الابيض» فى تبسة
بالجزائر ، بحوالى ٥٥٥٠ ± ٢٠٠ سنة قبل الميلاد (٤٩) .

هذا وقد ظهرت القفصية فى «كهف هوافتح» فى الطبقة (E)
والتي امتدت زهنا فيما بين عامى ٩٠٠٠ ، ٧٠٠٠ ق م ، وفى هذا الكهف
تبدأ الحضارة القفصية فى الانخفاض فى عدد الازاميل والمحكات فى
الطبقة «(الايرو مغربية)» ثم ظهور اللون الاحمر على النصال الكبيرة ،

46) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 195.

47) Ibid., P. 241.

(٤٨) المقطع : الموقع الاثرى النموذجى للحضارة القفصية ، ويقع
فى مجاورات مدينة قفصة ، ويتكون من ثلاث مرتفعات ، الاول شمال غرب
قفصة ، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصة ، والثالث على
الضفة الغربية لوادى بياش ، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة

49) H. Alimen, Op. Cit., P. 82.

ووجود قشور بيض النعام مزخرفة بأشكال هندسية ، ورصف عقود من هذه القشور^(٥٠) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن عددا من الباحثين انما ينسبون آثار بعض المواقع الأثرية المصرية الى الصناعة القفصية (نسبة الى قفصة في اقليم قسطلية ، شمالي شط الجريد في تونس) — بما في ذلك المستوى الثالث لقرية السبيل (في مجاورات مدينة كوم امبو بمحافظة أسوان) ، وصناعة حلوان القزمية ، وكل ما نسبته «ساندفورد» و «أركل» الى الصناعة السبيلية الحديثة — معتمدين في ذلك على أن الصناعة القفصية انما قد وجدت في الشمال الافريقي وفي سورية وفلسطين — أى في غرب مصر وشرقها — ومن ثم فمن الصعوبة بمكان ، أن لا توجد هذه الصناعة في مصر ، ثم يعللون قلة المواقع القفصية في مصر ، بأن القوم في أرض الكثافة انما كانوا يقتربون في السكنى من شواطئ النيل ، وأن الطمي الحديث للنيل ، ربما قد طمر بقايا الصناعة القفصية في تلك المواقع^(٥١) .

ولعل أهم المواقع التي نسبها بعض الباحثين الى الحضارة القفصية، انما هي ستة مواقع اكتشفها الامير كمال الدين حسين في منخفض عين دالة وشمال المفرافة في الصحراء الغربية ، وتبعد هذه المواقع الستة عن ينابيع المياه بما لا يزيد عن أربع كيلو مترات ، ومن أدواتها شظايا ، بعض منها طويل ، وآخر قزمي ، وكذا مكاشط ومحكات مقعرة ، ونصال مثلمة ، ومواقد صغيرة ، مع كسرات من قشور بيض النعام^(٥٢) .

هذا وقد عثر «جبرودي كوتفيل» على مواقع للصناعة القفصية في

50) G. B. M. Mc Burney, Op. Cit., P. 333.

51) R. P. Bovier-Lapierre, L'Egypte Préhistorique, Précis de L'Histoire de L'Egypte, Le Caire, 1932, P. 34.

52) Kamel El Din Hussein et R. P. Bovier-Lapierre, Recentes Explorations dans Le Desert Libyque-BIE, 1929-1930, XII, Le Caire, P. 123-126.

منطقتين ، الواحدة : حول طيبة (الاقصر) ، وتنتشر حول وادي المدامود ، بين الاقصر وخزام (على مبعدة ١٥ كيلا شمال الاقصر) ، فضلا عن مواقع أخرى في مصر العليا (الصعيد) ، على مقربة من الصحراء الشرقية ، وأما المنطقة الثانية فكانت في الفيوم ، عند قناة هواره (على مقربة من مدينة غراب) وفي عزبة جورج ، وجنوب جبال الروسى ، وقد وجدت أدوات هذه المواقع على السطح ، ويذهب الاثرى «جيرودى كوتفيل» الى أن هذه الصناعة القفصية الموافدة متقنة الصنع ومتفوقة على سابقتها (السييلية) ، ومن ثم فهو يستبعد احتمال أن تكون الحضارة القفصية قد تطورت من الصناعة السييلية ، وإلى هذا القول يذهب «أدموند فينيار»^(٥٣) أيضا أضف الى ذلك أن بعضا من الباحثين انما قد نسبوا آثارا لهذه الحضارة «المستبرو - قفصية» في شمال مدينة حلوان ، بين خط السكة الحديد وعزبة الوالدة^(٥٤) ، ويعتقد «جيرودى كوتفيل» أن مصر قد شاركت في تطور الصناعة الحجرية في شمال أفريقيا ، فضلا عن احتمال تطور صناعة قفصية في مصر ، مشابهة للابيرو مغربية ، وذلك بوجود الآلات الميكروليثية في موقع حلوان عند فتحة وادى خوف ، وفي كوم امبو بمحافظة اسوان^(٥٥) .

وعلى أية حال ، فرغم امكانية وصول مؤثرات قفصية الى مصر في هذه الفترة من خواتيم العصر الحجري القديم الاعلى ، فلعل من الافضل المتحفظ بشأن هذه الآراء - وخاصة تلك التى ترى فى كل صناعة وجدت فى مصر تعقب الموستيرية ، انما هى صناعة قفصية أو قفصية متطورة^(٥٦) - اذ أن كل ما عثر عليه انما هو لقية سطحية لبعض القطع والآلات الحجرية ، زعم مكتشفوها أنها قفصية - كما فى نواحي أسوان والدامود

53) G. Cotteville, L'Egypte avant L'Histoire, BI FAO, 33, 1933, P. 28-34 .

54) A. J. Arkell and K. S. Sandford, Paleolithic Man and The Valley in upper and Middle Egypt, P. 116-118.

55) Giraude Cotteville, Op. Cit., P. 40.

56) Ibid., P. 28.

وحلوان في الوادي ، وعين دالة في الصحراء الغربية ، ومنخفض
المخارجة^(٥٧) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى موقع نفاية قصب السكر ،
على مقربة من مصنع السكر في نجع حمادى (بمحافظة قنسا) ، وعلى
مقربة من المدينة الرومانية «ديوسبوليس بارفا»^(٥٨) ، حيث كشف
«أدموند فينيار» عن مجموعة من الآلات الحجرية ، تتميز بوجود مجموعة
كبيرة من الازاميل — فضلا عن بعض المحكات ، وقطع أخرى مشذبة ذات
نمط خاص — ونظرا لان الازميل هو آلة الصناعة «الاورنياسية» المميزة
— الى جانب اعتبارات تقنية أخرى — فقد نسب «أدموند فينيار» هذا
الموقع الى «الاورنياسية الاوربية» ، وأن سكان هذا الموقع انما جاءوا
الى مصر من سورية أو من تونس^(٥٩) .

وقد أثار رأى «فينيار» هذا جدلا بين العلماء ، فذهب «هرمان
يونكر» الى أن هناك شبهة بين موقع نجع حمادى هذا ، وبين المستوى

57) G. Caton-Thompson, Man, 32, 1932, P. 131-133.

K. Hussein et R. P. Bovier-Lapierre, Op. Cit., P. 126.

E. Massoulard, Prehistoire et Protohistoire de l'Egypte, Paris, 1949, P. 23.

C. Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, P. 129-130.

(٥٨) ديوسبوليس بارفا : موكانها الان قرية «هو» ، وتقع على
مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب مدينة نجع حمادى ، وربما كانت (هو) هذه
تصحيثا للاسم المصرى القديم «حو» أو «حات» (والتي كان اسمها الكامل
«حوت سخم نوت») عاصمة الاقليم السابع من أقاليم الصعيد ، ويسمى
«حوت سخم» بمعنى «قصر الصاجات» ، هذا وقد سميت «هو» كذلك
«كنمت» بمعنى الكروم ، وهو اسم واحة الخارجة المعروفة بخمرها ،
وكانت تتبع الاقليم السابع هذا من الناحية الادارية (محمد بيومى مهران
— الحضارة المصرية القديمة — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠
— ١٦١ وكذا

P. Lacau et H. Chevrier, Une Chapelle de Sesostris Ier a Karnak, Cairo,
1956, P. 225.

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, IV, P. 45, 129, 130.

59) E. Vignard, une Station Aurignacienne A Nag-Hammadi, (Haute
Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921, P.
1-20.

المثانى للسبيلية ، وأنهما ربما كانا متعاصرين ، ويصلان الى بداية «القنصية» ، بنما المستوى الثالث - والاكثر تطورا - ما هو الا «القنصية» ذاتها (٦٠) ، وأما «دى مورجان» فقد عثر في مواقع سطحية تنتمى الى هذه المرحلة على فؤوس صنعت بنفس التقنية التي صنعت بها فؤوس نجع حمادى (٦١) .

ويذهب الدكتور سليمان حزين الى أن الازاميل لا تعتبر دليلا مميزا لعصر الباليوليتى الاعلى ، فقد وجدت في فلسطين في زمن الاشولية العليا ، كما عثر في «أرمنت» (٦٢) على أزاميل ، بعضها يشبه تلك التي عثر عليها الاثرى الفرنسى «أدموند فينيار» في نجع حمادى ، ثم يخلص - بعد عدة مقارنات بين بعض الآلات الحجرية في الموقعين - الى أن الواحد منها إنما كان يعاصر الآخر ، وأنهما ينتميان الى عصر الحجر والنحاس (٦٣) .

على أن هناك افتراضا عكسيا يذهب أصحابه الى أن السبيلية في

60) H. Junker, Bericht über die Von der Akademie de Wissenschaften in Wien nach dem Westdelta Entsendete Expedition, Wien, 1928, P. 14.

61) J. De Morgan, la Prehistoire Orientale, II, L'Egypte et L'Afrique du Nord, Paris, 1926, fig. 86, 88, P. 31, 82.

(٦٢) أرمنت : كانت واحدة من المدن الاربعة التي تكون الاقليم الرابع من اقاليم الصعيد (طيبة والمدامو وطود) ، قبل أن ينتقل مركز الثقل الى طيبة (الاقصر) لتصبح العاصمة ، وتقع أرمنت على مسافة ١٥ كيلا جنوبى الاقصر (٧٤٧ كيلا جنوبى القاهرة) ، وكان معبودها «مونتنو» ، وقد سميت في العهد الاغريقى «هرمونتنس» ، وأصبحت منذ الاسرة التاسعة والعشرين تحوى جبانة العمل المقدس «بوخييس» (الموسوعة المصرية ٩٠/١ ، وكذا ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ١٣٥ - ١٣٦ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 116.

63) S. A. Huzayyin, The Place of Egypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, 1941, P. 292.

R. Mond, O. H. Mayers, Cemeteries of Armant, London, 1937, P. 198-199.

مصر العليا هي المهد الذي ولدت فيه الحضارة القفصية ، وكل صناعة ميكروليثية أخرى ، غير أن «بالو» انما ذهب الى أن تقويم السبيلية لا يعتمد على تسلسل الطبقات ، وأن انقطاع الصلة بين انسان «نياند رتال» (حامل الصناعة المoustيرية) وانسان الصناعة القفصية ، لا يتفق مع وجود صلة تطور ، ومن ثم فان البعض انما يرى أن السبيلية والقفصية حضارتان ميكروليثان متشابهتان الى حد كبير ، من حيث التقنية والشكل ، وخاصة في المرحلة الاخيرة من تطورها (٦٤) ، غير أن هذا الاتجاه لم يعد أن يكون مجرد فرض ، وليس نظرية علمية ، فضلا عن أن تكون حقيقة تاريخية .

(٦٤) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٥٢ ، وكذا
L. Balout, Op. Cit., P. 416.

الفصل الثاني

العصر الحجري الحديث

(١) تقديم :

ينظر الباحثون في عصور ما قبل التاريخ الى مرحلة العصر الحجري الحديث — بصفة عامة — على أنها نقلة هامة وحاسمة في تاريخ الانسان ، ففي هذه المرحلة الخطيرة ينتقل الانسان من مرحلة اجمع والالتقاط والتجوال وعدم الاستقرار الى مرحلة الانتاج والاستقرار المادي والفكري ، لأول مرة في حياته ، ومن هنا كانت أهمية المرحلة السابقة مباشرة لهذا العصر ، والتي نظر اليها علماء عصور ما قبل التاريخ ، على أنها بمثابة «ثورة» ، أو تغيير حاسم في حياة الانسان ، شأنها في ذلك شأن غيرها من المراحل الحاسمة في تاريخ البشرية ، كمرحلة استخدام القوة البخارية في القرن الثامن عشر الميلادي ، ومرحلة استخدام قوة الطاقة الذرية في القرن العشرين الميلادي^(١) .

وهكذا بدأ الانسان في هذا العصر الحجري الحديث يستقر في جماعات ، قريبا من موارد المياه ، ثم سرعان ما ألجأته الضرورة الى ضمان غذائه ، فاستأنس الحيوان وعرف الزراعة ، التي أصبحت حرفته الرئيسية ومن ثم فقد تحول من حياة الجمع والالتقاط والصيد الى انتاج الطعام ، وكان من الضروري ، وقد عرف الزراعة ، أن يخترن محصوله ، فعرف صناعة الاواني ، وبذلك أقام حياته على أسس اقتصادية ثابتة .

وهكذا بدأ الانسان في هذا العصر — الذي شهد تحوله الى انتاج الطعام عن طريق التوصل الى معرفة الزراعة — في اقامة القرى التي

(١) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ١٢٣ .

تتضم عددًا أكبر من المساكن والافراد ، والتي تعبر عن استقرار دائم ، ولم تعد مجرد استقرار موسمي ، كما كان عليه الحال من قبل ، وهكذا قامت المجتمعات المستقرة التي أخذت تنمو ، حتى بلغ عدد سكان «مرمدة بنى سلامة» (على مبعدة ٥١ كيلا شمال غرب القاهرة) — والتي تمثل أكبر قرية في العصر الحجري الحديث في مصر — بلغ ، فيما يرى بعض الباحثين ، نحوًا من ١٦ ألف ، وهو عدد لا يستهان به في ذلك الزمن الموهل في القدم ، بل اننا نراه نوعا من المبالغة غير المقبولة (٢) .

وأينا ما كان الامر ، فليس هناك من ريب في أن مرحلة «العصر الحجري الحديث» انما تعتبر بمثابة تغيير جذري في حياة الانسان وقت ذاك ، أو هي في بعض الاحايين بمثابة «ثورة» (ثورة انتاج الطعام) ، غيرت من نظم حياة الانسان ، وانتقلت به الى مرحلة جديدة ، سرعان ما تنقز بحياته الى مجتمع جديد ، ذلك لان العصر الحجري الحديث انما تتميز بعملية انتاج الطعام ، بعد الجمع والالتقاط ، والاستقرار بعد التجوال والترحال ، وزيادة قدرته في مجال صنع الادوات الحجرية ، فضلا عن التوصل الى صناعة الفخار ، وهكذا كان لهذا العصر سمات خاصة ، أصبحت بمثابة علامات استدلال على هذه المرحلة الهامة من حياة بنى الانسان ، فهو عصر حجري حديث ، حينما يمارس الانسان صقل الآلة الحجرية ، أو يقوم بتشذيب الاداة من وجهيها تشذيبا كثيفا ، غير ذلك الذي مارسه من قبل ، أو حينما يصنع رؤوس السهام ، أو الاواني الفخارية ، أو يمارس الزراعة ، أو يقوم بتربية الحيوان ، ومن البدهى أن لا نتوقع منه أن يتوصل الى معرفة كل هذه الامور في وقت واحد ، أو أنها جميعا يجب أن توجد في مجتمع من المجتمعات ، ومن ثم فقد يعرف انسان هذه المرحلة بعضها ، ويغيب عن ادراكه بعضها الاخر ، واكتفى في مجملها انما يتكون منها ذلك التقدم الهائل الذي يكون الثورة النيوليتية .

(٢) محمد بيومي مهران : مصر — الجزء الاول — ص ٢١٢ وكذا R. Braidwood and C. Reed, The Achievement and Early Consequences Food-Production, SOB. XXII, 1907, P. 19-31.

على أن تحديد العصر الحجري الحديث لا يمكن أن يتم بمعرفة المنجزات التي أشرنا إليها آنفا فحسب ، فصقل الأدوات الحجرية مثلا قد عرفتته بعض المجتمعات في مرحلة تسبق مرحلة العصر الحجري الحديث ، كما حدث في المغرب ، حين عرف أصحاب مرحلة Epipaleolithique هذه التقنية ومارسوها في نطاق محدود ، كما أن الزراعة وحدها لا تكفي كدليل أثري على العصر الحجري الحديث ، فوجود المناجل بكثرة في مرحلة سابقة للعصر الحجري الحديث ، ربما تشير الى زراعة أولية ، كما أن عدم وجود الفخار لا يعتبر دليل نفى للعصر الحجري الحديث ، ذلك لأن هناك من المجتمعات ما وصل الى هذا العصر قبل أن يعرف الفخار •

غير أنه من غير المقبول أن يصل مجتمع ما الى مرحلة العصر الحجري الحديث ، دون الوصول الى درجة من وجوه الحضارة النيوليتية ، كما أنه لا يمكن القول بأن مجتمعات العصر الحجري الحديث عرفت جميعها مجالات الحضارة النيوليتية كلها ، ذلك لأن هناك قلة من هذه المجتمعات — ولأسباب محلية — لم تمارس بعض جوانب هذه الحضارة ، ومن ثم فقد كانت سمة العصر الحديث في المغرب — وخاصة القطاع الشمالى — سمة المجتمعات الرعوية والصناعية والزراعة المحدودة ، أكثر منها سمة مجتمع القرية الزراعى المستقر ، والذي ظهر بوضوح في مجتمعات الشرق الأدنى القديم ، بسبب التضاريس الطبيعية التي عملت أيضا على إطالة فترة العصر الحجري الحديث حتى العصر التاريخي (٣) •

وعلى أية حال ، فإن العصر الحجري الحديث انما يبدأ في «برقة» في حوالى منتصف الالف الخامس قبل الميلاد ، وفي بقية أجزاء المغرب حوالى منتصف الالف الرابع قبل الميلاد ، ويستمر حتى حوالى ١٢٠٠ ق.م، الى أن تمكن الفينيقيون الى الانتقال بالانسان المغربى الى العصر

(٣) حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغرب القديم أثناء العصر الحجري الحديث — الاسكندرية ١٩٧٥ ص ٨٦ — ٨٨ ، وكذا L. Balout, Op. Cit., P. 451.

التاريخى ، على أن العصر الحجري الحديث انما استمر فى بعض أجزاء المغرب الداخلى فترة ما من العصر التاريخى الى أن تكونت الممالك البربرية فى الداخل حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان البربر — كما أطلقوا على أنفسهم اسم «الامازيغ» (أى الاحرار) — بمثابة شعبة من عائله اللغات والشعوب الصاميه ، اختلطت ببعض العناصر الساميه والشماليه ، واستقرت فى شمال افريقيا ، قرب نهاية العصر الحجري القديم الاعلى ، وبداية العصر الحجري الحديث^(٤) .

وعلى أية حال ، فلم يكن الشمال الافريقى يختلف كثيرا عن مصر أو غيرها من مناطق الشرق الادنى القديم ، وكما يقول « جولدن تشايلد» ان الزراعة كانت ضرورة اقتضتها تغير الظروف المناخية بالنسبة للشمال الافريقى ، بعد انتهاء الفترة المطيرة ، وما نتج عن ذلك من تحول مساحات كبيرة من مروج خضراء الى مناطق صحراوية ، حيث حل الجفاف التدريجى محل المطر ، ومن ثم فقد تركزت الحياة حول العيون والآبار فى الواحات ، وعلى ضفاف الانهار .

هذا وقد أثبتت الابحاث أن منطقة الشرق الادنى القديم — وخاصة فى مصر والعراق وفلسطين — انما كان لها المسبق على غيرها فى مناطق العالم الاخرى ، فى التوصل الى مرحلة انتاج الطعام والزراعة والاستقرار — لأول مرة فى تاريخ البشرية — وذلك لاسباب كثيرة ، لاشك فى أن العامل البيئى انما كان من أهمها ، وقد قدمت لنا الحفريات الاثرية مئات الادلة على سبق المنطقة فى هذا المضمار .

ففى مصر : انتشرت حضارات العصر الحجري الحديث (النيوليتى Neolithic فى عدد من المواقع الاثرية فى مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) ، كما فى الفيوم فى مواقع أكـوـام (ك) و (م) على شواطئ بحيرة قارون ، وفى «مرمده بنى سلامة» فى غرب الدلتا ، وفى حلوان العمرى (على مبعده ٣ كيلا الى الشمال من مدينة حلوان ، ٧ كيلا

(٤) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ص ١٥٤ .

الى الشرق من النيل قرب مدخل وادى حوف) ، ثم فى «دير تاسا»
(الى الشمال قليلا من مدينة البدارى ، وأمام مدينة أبو تيج عبر النهر،
بمحافظة أسيوط) ، وفى كل هذه المواقع نجد الاستقرار واضحا ، والذي
نسندل عليه من القرى (مساكن الاحياء) أو فى الجبانة (مساكن
الاموات) ، ذلك لان هذه القرى ، وتلك الجبانات ، لا يقيمها الا قوم
مستقرون فى أماكنهم ، وقد كشف فى دير تاسا عن الجبانة فقط ، وفى
المفيوم عن القرية ، وجمعت مرمدة وحلوان العمرى بين الجبانة
والقرية^(٥) .

وفى شمال العراق : قامت قرى : «جرمو» على حافة واد عميق فى
سهل جهمال ، أى خارج نطاق السهل الميزوبوتامى ، و «تل حسونة»
فى غرب نهر دجلة جنوب الموصل ، وتعد من أقدم المواقع الحضارية فى
صميم السهل الميزوبوتامى^(٦) .

وفى فلسطين : قرية أريحا ، والتي تعد من أهم مواقع العصر
الحجرى الحديث ، وفى سورية (بمعناها الجغرافى الواسع وتشمل دول:
سورية ولبنان والاردن وفلسطين) توحد منطقة العمق : وتقع فى شمال
سورية على مقربة من مصب نهر العاصى ، وفى لبنان : جبيل^(٧) ،
وحراجل وبركة راما وعين ابل ، ونهر الكلب ونهر الزهرانى وغيرها ،
وتعد «جبيل» من أهم المواقع نظرا لوفرة آثارها المنتمية الى تلك
المرحلة^(٨) .

(٥) أنظر عن حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر (محمد

بيومى مهران : مصر - الجزء الاول ص ٢١٢ - ٢٤٦) .

6) P. Morten, on The Chronology of Early Village Farming Com-
munities in Northern Iraq, in Sumer, 18, 1962, P. 35, 74-76.

(٧) جبيل : كانت تكتب فى الدولة القديمة «كبن» وفى الدولة الوسطى
«كبنى» ، وفى الدولة الحديثة «كبنا» ، وذكرها الاشوريون باسم
«جوبلا» ، والاغريق «ببيلوس» ، والعرب «جبيل» ، وتقع على مبعده
٤٠ كيلا شمال بيروت (A. H. Gardiner, Onom., I, P. 267)

(٨) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ص ١٣٠ -

١٥٢ .

وفي ايران «تبة جوران» (على نهر الكرخة ، وعلى مبعدة ٦٧ كيلا جنوب كرمشاة) ، و «تبة ساراب» (على مبعدة ٧ كيلا شمال شرق كرمشاة) ، وموقع «(على كوش» (على مبعدة ٢٥ كيلا غرب موسيان» ٥١ كيلا جنوب تبة جوران) ، و «تبة سايز» الى الجنوب مباشرة من موقع على كوش ، و «تبة موسيان» (على مبعدة ١٢ كيلا شرق نهر طيب) و «تبة جودين» في الركن الجنوبي الشرقي لوادي كانجوفار ، وكهف بلت وكهف هوتو وتبة حاج فيروز ، وتبة سيالك (على مبعدة ٣ كيلا جنوب غرب كاشان) وتبة جيات وتبة دالما وغيرها^(٩) .

وفي الاناضول : ثل تشاتال ، وهاكيلار في جنوب الهضبة الاناضولية بل ان «ملارت» مكتشف الموقعين انما يزعم لهما أولوية على كافة حضارات الشرق الأدنى القديم ، اعتمادا على عدد من الأدلة الاثرية التي عثر عليها في الموقعين ، كما يؤرخ لهما — طبقا لطريقة كربون ١٤ — بحوالى ٧٠٠٠ ق.م^(١٠) .

(٢) الموطن الاول للزراعة :

قام ، ومايزال ، جدل طويل بين علماء عصور ما قبل التاريخ خاصة ، والمؤرخين عامة ، حول الموطن الاول للزراعة ، فذهب فريق الى أن الموطن الاول للزراعة انما كان في جنوب غربى آسيا ، وبخاصة في جنوب سورية وفلسطين وميزوبوتاميا (العراق القديم أو بلاد النهرين) وغرب ايران^(١١) ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن مصر انما كانت هى الموطن الاول للزراعة ، ذلك لان وادى النيل انما كان ، دونما أى ريب ، هو المكان الوحيد الذى نشأت فيه حضارة متميزة ، خارج منطقة

(٩) أحمد سليم : ايران منذ أقدم العصور حتى أواسط الالف الثالث قبل الميلاد — بيروت ١٩٨٨ ص ١٦١ — ١٩٧ .

(١٠) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٥٥ وكذا

J. Mellart, Earliest Civilizations of The Near East, London, 1965, P. 77.

11) H. J. E. Peake, The Origines of Agriculture, London, 1928, P. 22.

J. De Morgan, La Prehistoire Orientale, II, Paris, 1926, P. 76.

غربى آسيا (١٢) •

وفى الواقع ، فإنه على الرغم من صعوبة المتوصل الى مكان وزمان نشأة الزراعة على وجه اليقين ، ورغم أن ظروف الجفاف جعلت المجتمعات التى تعيش نفس الظروف ، تستجيب استجابة تلقائية سريعة الى هذا الاكتشاف منذ بداية ظهوره ، ومن ثم فربما قد اكتشفت الزراعة فى عدة مناطق فى وقت واحد تقريبا — فى وادى النيل ، وفى جنوب غربى آسيا — فان كثيرا من الباحثين انما يذهبون الى أن جميع شعوب الشرق الادنى القديم ، فضلا عن الشرق الاقصى ، انما قد نسبت الى شخصيات خرافية فى تاريخها ، شرف المتوصل الى معرفة القمح» (١٣) فالمصريون مثلا انما ينسبون الى «أوزير» أنه قد علم الناس الضرع والزرع ، ومن ثم فقد ربطوا بين أوزير وبين كل المتطورات التى تحدث على سطح الارض طوال العمام ، وتؤثر فى انتاجهم الزراعى ، ومن هنا كانت الاشارات التى تقرر أوزير بحياة النبات أو توحدده معها أو بها ، ومن ثم فقد كان تمثيله باعتباره «الها للخضرة» سائدا فى مصر فى كل العصور المتأخرة ، وربما ساد منذ العصور المبكرة ، عندما نقابل اسمه — لأول مرة — فى الوثائق المكتوبة (١٤) •

وأيا ما كان الامر ، فليس هناك من سبيل الى ريب فى أن البيئة المصرية ، انما قد ساعدت على معرفة الزراعة ، فالنيل بفيضانه المنتظم ، واخصابه للتربة ، فضلا عن دور الشمس فى البيئة المصرية ، كل ذلك قد ساعد فى الوصول الى مرحلة الزراعة والاستقرار ، قبل أُمم أخرى •

وفى الواقع ، فان أرض مصر انما قد انفردت بميزة خاصة ، ذلك

12) G. Clark, Prehistory of The World, Cambridge, 1962, P. 99.

13) F. Hartmann, L'Agriculture dans L'Ancienne Egypte, Paris, 1923, P. 48.

(١٤) أنظر عن «أسطورة أوزير» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الجزء الاول — الآداب والعلوم — الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٠ — ٢٨) •

أن فيضان النيل انما كان يأتى فى أواخر الصيف وأوائل الخريف،حتى اذا ما تقدم هذا الفصل الاخير فى السنة ، بدأت مياه الفيضان تقتصر عن جوانب الوادى ودلتاه ، وهنا نلاحظ أن منتصف الخريف أو أواخره انما هو الوقت الملائم لزراعة نباتات الحبوب الشتوية ، وأهمها القمح والشعير ، وبعبارة أخرى ، كان الفيضان يأتى فيمد أرض مصر بالطمي والماء ، ثم ينحسر عنها فى أصلح وقت لزراعة تلك النباتات ، حتى اذا ما زرعت ونبتت كان فصل الامطار الشتوية فى مصر قد بدأ *

والظاهر أن تلك الامطار كانت فى العصر الحجرى الحديث،ومابعده، كانت أوفر منها الآن ، فكانت تغذى النباتات وتمدها بالحياة فى أشهر الشتاء ، حتى اذا ما جاء آخر الربيع ، وكانت نباتات الشمال قد اكتمل نموها ، انقطع المطر ، وحل فصل الحصاد ، وهكذا تكامل عنصران فى مصر - الفيضان والامطار الشتوية - وكان من ثمرات ذلك التكامل أن أصبحت أرض النيل صالحة ، كل الصلاحية ، لتكون مهذا من مهاد الزراعات الشتوية القديمة ، على أن التكامل بين عناصر البيئة الطبيعية فى مصر لا يقف عند ذلك ، فبعد أن يتم الحصاد ، يحل أول الصيف ، وهو فصل شديد الحرارة ، فتجف التربة ، وتتشقق الارض ، وتموت الحشائش الضارة ، التى تمتص خير الارض ، ولا تفيد شيئاً ، يؤدى التشقق الى تفتح التربة ، ودخول غازات الهواء التى تجدد خصبها ، حتى اذا ما جاء الفيضان الجديد فى آخر الصيف ، عاد فغطى الارض وكساها بطبقة من الطمي ، حتى ينحسر الفيضان ، ويجيء الانسان ليزرع الارض من جديد ، وهكذا أصبحت دورة الطبيعة متكاملة العناصر والعوامل ، وتلك ظاهرة لا تجدها فى نهر آخر فى العالم ، بل تلك ظاهرة ميزت أرض مصر منذ فجر التاريخ ، وربما كانت هى العامل الاساسى فيما عرفناه من استمرار الحياة والحضارة وتجددهما فى أرض مصر على مر المسنين (١٥) *

(١٥) سليمان حزين : تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الاول - العصر الفرعونى - القاهرة ١٩٦٢ من ١٦ ، محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الاول - ص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٣) العصر الحجري الحديث في المغرب :

اختلفت ظروف الانسان في المغرب عنها في الشرق القديم اختلافا كبيرا ، ذلك لان البيئة المغربية - بطبيعتها الجغرافية الخاصة - ائما قد وجهت الانسان المغربي القديم الى طابع آخر في مجال تطوره الحضارى ، فبينما كان الطابع المميز للعصر الحجري الحديث في الشرق الادنى القديم هو الزراعة ، كان الرعى هو الطابع المميز لهذه المرحلة في المغرب ، بجانب بعض مظاهر الانتاج الزراعى المحدود ، وذلك لان طبيعة الاقاليم المغربية تتفق في ذلك الوقت مع حياة الرعى ، أكثر منها مع حياة الزراعة وانتاج الطعام ، ومن ثم فقد تأخر العصر الحجري الحديث في المغرب عن نظيره في الشرق الادنى القديم ، فبينما يبدأ في المشرق في حوالى منتصف الالف السادس قبل الميلاد ، يبدأ في المغرب بعد ذلك بألف عام - أى في حوالى منتصف الالف الخامس قبل الميلاد ، حيث يبدأ عصر الحجر والنحاس وما يليه من عصور ما قبل وقبيل الاسرات ثم العصر التاريخى ، في نفس الوقت الذى يستمر فيه العصر الحجري الحديث في المغرب حتى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، بل انما يستمر في بعض المناطق الداخلية حتى العصر الرومانى ، ولعل السبب في ذلك انما يرجع الى الصعوبات البيئية الارضية والمائية التى تزيد من مجهود الانسان في محاولة تحكمه فيها ، وتتطلب وقتا أطول في هذا الصدد (١٦) .

هذا فضلا عن أن الانتاج الحضارى في المغرب مختلف من حيث طبيعته عن نظيره في المشرق ، وذلك دون شك بسبب اختلاف البيئة ، وهكذا اتجه الانسان في مصر - مثلا - الى وادى نهر النيل ، وقام ببناء المجتمعات الزراعية في مجاورات النهر ، بينما اتجه الانسان في المغرب الى التركيز على الرعى ، أكثر من الزراعة ، وذلك لان طبيعة تضاريس المنطقة انما تتطلب جهودا مضاعفة لتحقيق التحكم في مياه الانهار وتنفيذ المشروعات الزراعية ، التى تساعد على تيسير الرعى، وهو

(١٦) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ١٢٤/١ .

نوع آخر من الاستقرار ، وكان من نتائج ذلك كله أن مواقع العصر الحجري الحديث في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى ، انما تدل على أن الانسان هناك لم يترك آثارا لقرى كثيرة — كما فعل نخليره في الشرق الأدنى القديم — وانما اعتمد على الكهوف والمغارات التي تركتها عوامل التعرية الطبيعية على طول الساحل الافريقي الاطلسي ، فضلا عن تلك التي على سواحل البحر المتوسط ، بالاضافة الى الكهوف الداخلية (١٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن علماء عصور ما قبل التاريخ، انما قسموا مرحلة العصر الحجري الحديث في الشمال الافريقي الى مرحلتين ، الواحدة : منطقة المغرب القديم ، وتقع شمال سلسلة جبال الاطلس الصحراوي ، والاخرى : منطقة الصحراء ، وتقع جنوب سلسلة جبال أطلس الصحراوي ، ولعل السبب في ذلك انما يرجع لظروف كل من المنطقتين الطبيعية ، فضلا عن التأثيرات الاجنبية .

(١) العصر الحجري الحديث في منطقة المغرب القديم :

وقد تميز هذا العصر بصناعة ذات تقليد قفصي ، ذهب «غوفري» الى أنها تتميز بخلوها التام من الادوات القفصية النموذجية ، وخاصة المذنبات الكبيرة والمطاحن والازاميل ذات الزاوية ، أما بالنسبة للادوات القزمية التي تميزت بها الحضارة القفصية في مرحلتها الحديثة ، فقد أضيف اليها في هذا العصر الحجري الحديث رؤوس السهام المورقة ، وعندما تأخذ الادوات القزمية للقفصية الحديثة في التلاشي والاندثار ، تظهر عناصر جديدة ، منها رؤوس سهام ، وفؤوس مصقولة أو مفرطحة أو ذات مقطع مصقول ، وشفرات دقيقة فضلا عن استخدام الفخار (١٨) .

هذا وقد وجدت أدوات العصر الحجري الحديث ذات التقليد

(١٧) رشيد الناصوري : جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا ١٥٢/١

— ١٥٣ —

(18) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 368.

القفصى فى عدة مواقع تمتد من تونس شرقا ، وحتى المغرب الاقصى غربا ، ومن أهمها مواقع : الصفصاف والكف الاحمر والكيفان وجاعتشة ، ثم مخبأ رديف ، وهو أهمها جميعا ، (ويقع على سفح جبل رديف غربى قفصة بحوالى ٥٥ كيلا ، وعلى مبعدة كيلو متر واحد من بلدة رديف على الشاطئ الشمالى لخور ينزل من جبل رديف) ، ويذهب «جوبار» الى أن موقع «مخبأ رديف» هذا، إنما يمثل حدا مشتركا بين العصر الحجري الحديث فى المغرب القديم والصحراء ، أو هو — فيما يرى فوفرى — نقطة عبور من السمة الصحراوية الى سمة العصر الحجري الحديث ذى التقليد القفصى (١٩) .

ثم هناك موقع «برزينة» (جنوب وهران فى الجزائر) ، ويمثل مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث (١) (موقع رديف) الى العصر الحجري الحديث (٢) (دار السلطان) ، فيما يرى «بالوه» (٢٠) ، وأن ذهب «فوفرى» الى أن الموقع متأخر زمنيا عن مواقع أخرى وجدت فى وهران ، وذلك لقلة الادوات القفصية ، وزيادة الادوات النيوليتية الخالصة فى الموقع ، وأما الفخار فلم يعثر منه على آنية كاملة ، وإنما عثر على كسور ذات زخرفة بمسحة المشط أو بالاصابع ، فضلا عن كسور ذات لون واحد ، أحمر وأسود ، بدون زخرفة ، على أن هناك نوعا أحمر ذا قمة سوداء يشبه فخار عصر ما قبل الاسرات فى مصر ، وآخر بلون أحمر يشبه فخار المعادى ، والفخار جميعه اما ذو قاع مخروطى أو دائرى (٢١) .

ثم هناك موقع «دار السلطان» (وهو مغارة على مبعدة ٦ كيلا جنوب غرب الرباط) ، ويتكون من بقايا مواقع نيوليتية ذات تقليد قفصى ثم مجموعة من النصال والمحكات ، وأما فخاره فهو — فيما يرى

19) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 291-306.

20) A. Rhulman, La Grotte Préhistorique De Dar-Essoltan, Paris, 1951, P. 88.

21) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 360.

رولمان - أكثر تطورا من موقع فخار رديف ، كما أن زخرفته جيد متفوقة ، وهي التي تسمى تقنية مسحة المشط التي تغطي مساحة الاناء بأكملهم ، وقد يكون له في بعض الاصلين نتوءات (مثل أذنين) ، ربما لرفع الاناء (٢٢) .

ثم هناك موقع «أشكار» (في أقصى شمال غرب طنجة على سواحل الاطلسي) ، ويمثل هذا الموقع العصر الحجري الحديث الخالص من كل تقليد ، فلا وجود للادوات الميكروليثية به ، الى جانب المجرفة والمحول ، مما يشير الى اكتشاف الزراعة خاصة وقد عرفت هذه المنطقة الاستقرار والنظام الاجتماعي ، وقد كشف «رولمان» في «وادي باث» على مقربة من طنجة ، عن ثلاث مجتمعات سكنية ، لا يبعد الواحد منها عن الآخر ، بأكثر من خمس كيلو مترات (٢٣) .

ولعل من الجدير بالإشارة هنا الى أن «فوفري» انما يذهب الى أن مصر انما كانت وراء التغيرات التي مر بها العصر الحجري الحديث في المغرب القديم ، من القفصية في مرحلتها العليا الحديثة الى العصر الحجري الحديث ذي التقليد القفصي ، ذلك لان عناصر الاصل المصري جيد مجتمعة في العصر الحجري الحديث ذي التقليد القفصي ، والذي امتد من حوالي ٥٢٠٠ ق.م الى ٣٥٠٠ ق.م ، ويبدو أن العصر النيوليتي في المغرب انما قد تأخر عنه في مصر ، فلقد أرخ «كربون ١٤» لموقع جاعتشة بحوالي ٣٠٥٠ ق.م \pm ١٥٠ سنة ق.م ، وهو تاريخ قد يوافق الاسرة الثانية في مصر (٢٤)

هذا فضلا عن أن آثار العصر الحجري الحديث في موقع «هوافنيح» بمنطقة الجبل الاخضر في برقة ، وعلى رأسها الفخار ، انما تثبت توصل الانسان هناك الى الاستقرار والزراعة ، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤»

22) A. Rhubman, Op. Cit., P. 88.

23) Ibid., P. 105-106.

24) L. Balout, Op. Cit., P. 481.

المشع على آثار الطبقة الأخيرة في موقع هوافتيخ ، وأرخت نتيجة لذلك بحوالى النصف الثانى من الألف الخامس قبل الميلاد (٢٥) .

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى مؤثرات مصرية واضحة في هذه الآثار الليبية، فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم وبين موقع هوافتيخ، والامر كذلك في الصناعات الحجرية ، كرؤوس السهام ، والتي لم يعثر على جذور لها في المواقع الليبية ، الامر الذى يؤكد وجود التأثيرات المصرية ، خاصة وأن حضارة الفيوم أ ، فيما يرى كثير من الباحثين — ومنهم سليمان حزين ، وكاتون طمسون ، وبورتر ، وجاك فاندييه ، ووليم هيز — انما كانت أسبق من حضارة مرمدة (٢٦) ، ذلك لان مجتمع الفيوم أ ، رغم أنه كان مجتمعا مستقرا ، ولكن دون أن يقيم أكواخا ، أو يتخذ له مأوى ثابتا — كما فعل أهل مرمدة وحلوان المعمرى — هذا فضلا عن أن أدوات أهل الفيوم انما كانت أقل تطورا ، وفخارهم أكثر خشونة ، وربما يرجع الى منتصف الألف السادس قبل الميلاد (٢٧) .

L. Balout, Op. Cit., P. 481.

(٢٥)

وانظر عن الاراء المختلفة حول التواريخ المقترحة لعصر التأسيس (الاسرتين الاولى والثانية في مصر الفرعونية) : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٩ — ١٢ .

26) W. C. Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago, 1962, P. 70.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Fayum, I, 1943, P. 295-296.

S. A. Huzayyin, Op. Cit., P. 295-296.

(٢٧) اختلف العلماء حول بداية العصر الحجري الحديث في مصر ونهايته ، فهناك من يقترح البداية في الألف العاشر أو الثامن قبل الميلاد ، ومن يقترح حوالى عام ٦٥٠٠ ق.م ، كبداية بالنسبة للفيوم (١) ، وحوالى ٥٠٠٠ ق.م بالنسبة للزراعة ، بينما يتجه فريق ثالث الى أن البداية كانت حوالى ٥٠٠٠ ق.م ، وأنه استمر حوالى ٨٠٠ عام ، على أن فريقا رابعا يرى أن العصر الحجري الحديث يبدأ في الربيع الاول من الألف الخامسة ، أو حوالى منتصفها في الوجه البحرى ، وأخيرا فهناك من يراه فيما بين منتصف الألف الخامسة وبداية الألف الرابعة قبل الميلاد (انظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وكذا

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 113-116.

E. Massoulard, Op. Cit., P. 48.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, Op. Cit., P. 93.

=

وعلى أية حال ، فهناك صلات حضارية بين حضارة الفيوم أ ، وبين مواقع سيوه والمخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية ، مما يؤكد وجود سير خط حضارى بين منطقة شرقى ليبيا و وادي النيل الأدنى وخاصة منطقة الفيوم ، فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الانسان •

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن الجذور الاولى لحضارة العصر الحجري الحديث فى شمال افريقيا ، بوجه عام ، انما ترجع فى الحقيقة الى جهود الانسان وقت ذاك فى منطقة الصحراء الكبرى — وهى منطقة فسيحة تمتد من البحر الاحمر وحتى المحيط الاطلسى — وكانت مسرحا ضخما لتجول الانسان وتنقله بين الودية والعيون والواحات والابار ، خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية ، وقد عثر الآثاريون على عدد كبير من المواقع الاثرية فى أجزاء من هذه المنطقة ، وقد أكدت أبحاث «كاثون طمسون» وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الاثرية •

وقرب نهاية العصر الحجري القديم الاعلى ، وبداية الانتقال للعصر الحجري الحديث ، أى بعد ظهور مراحل الجفاف الاخيرة ، اضطر الانسان فى هذه المنطقة الصحراوية الى الرحيل نحو الودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه ، ومن ثم فقد اتجهت مجموعات من هذا الانسان نحو الشمال — نحو برقة وتونس — واتجه بعضها نحو الشرق — نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادي النيل الأدنى — وقد تمكن هؤلاء الذين انتقلوا الى المنطقة الاخيرة من أسبقية التوصل الى الاستقرار ، وإنشاء القرى ، وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية الائمة الذكر ، بين حضارة الفيوم أ ، وبين حضارة منطقة

=

- K. W. Butzer, BSRGE, 32, 1959, P. 43.
G. Clark, Op. Cit., P. 227.
J. Vandier, Op. Cit., P. 188.

شرقى ليبيا ، على أساس امكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلا ، الى جذور وتقاليد حضارية واحدة في منطقة الصحراء الكبرى (٢٨) .

هذا ويذهب الدكتور يسرى الجوهري الى أن تفسير بعض التشابه بين مواقع سيوه والخارجة والفيوم وكهف هوافتيح ، انما وجد عن طريق افتراض امكانية انتماء حضارة الفيوم وشرق ليبيا ، الى جذور وتقاليد حضارية واحدة في الصحراء (٢٩) .

ويذهب «أركل» — والذي قام بحفريات في منطقة شهيناب ، على الضفة الشرقية للنيل ، وعلى مبعدة ٤٨ كيلا شمال أم درمان ، وفي الخرطوم (٣٠) — الى أن «شهيناب» والفيوم انما يشتركان في عدة نقاط ، منها تقنية التشظية المورقة والفؤوس المصقولة وأحجار المقالع والازاميل ، غير أن رؤوس السهام غير متوفرة في موقع «شهيناب» ، ومن ثم فقد اعتبر موقع شهيناب هذا ، أقدم من موقع الفيوم .

غير أن هناك من «التنيرى» Tenere صناعة مشابهة لصناعة الفيوم ، وتحتوى على الفؤوس المصقولة المشظاة والازاميل ، فضلا عن

(٢٨) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ١٢٦/١ - ١٢٧ .
(٢٩) يسرى الجوهري : جغرافية المغرب العربى - منشأة المعارف - الاسكندرية ١٩٨١ ص ٥٤ .

(٣٠) أثارت اكتشافات «أركل» هذه ، والتي تمت في الفترة (١٩٤٤ - ١٩٥٠م) ضجة كبيرة بين الاثاريين ، فقد كان الاعتقاد السائد بأن هذه المنطقة التى اكتشفها ، انما هى موقع سكنى قديم لصيادى الاسماك ، وليس فيها ما يشير الى تربية الماشية أو زراعة النبات ، بينما تشكل عظام الحيوانات البرية ٩٨% من العظام المكتشفة في منطقة «شهيناب» ، هذا فضلا عن بقايا عظام ماعز أهلى ، الامر الذى يؤكد — الى جانب الاكتشافات الخزفية — وجود نظام معيشى معين كان مألوفاً في العصر الحجري الحديث ، وطبقا لتأريخ «كربون ١٤» فان تاريخ هذه الاماكن الاثريه ، انما يرجع الى حوالى عام ٣٤٩٦ قبل الميلاد ، بفارق ٣٨٠ سنة (زيادة أو نقصا) الى العصر الحجري المتطور (رودلف كوبر : ما هو العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى — من كتاب الصحراء الكبرى — ترجمة مكاييل محرز — ليبيا ١٩٧٩ ص ٦٩ - ٧١) .

رؤوس سهام ذات قاعدة مقعرة^(٣١) ، وتذهب «كاثون طمسون» الى أن «التبستى» (الصحراء الجنوبية) هي المكان الوحيد الذى انطلقت منه المؤثرات الحضارية النيوليثية الى الفيوم والخرطوم وتنيرى ، وأن منطقة التبستى هي محاجر الخامات التى صنعت منها أدوات الحضارة الفيومية^(٣٢) .

(٢) العصر الحجري الحديث فى الصحراء :

هناك ما يشير الى أن العمران لم يتغير فى الصحراء أثناء العصر الحجري الحديث على ما كان عليه سابقا ، لا من حيث زيادة تجمع السكان حول موارد المياه ، الامر الذى أدى الى زيادة التوسع العمرانى الذى عرفته الصحراء أثناء هذا العصر ، وهو توسع لم تعرفه الصحراء طيلة عصورها السابقة ، وقد تميز العصر الحجري الحديث الصحراوى بنوعين من الادوات ، الواحدة كبيرة من حجر الكوارتز ، والاخرى قزمية (ميكوليتية) من الظران .

وتشبه الادوات الكبيرة التقليد القفصى ، بمكاشطها ونصالها المثلمة وأزاميلها ، كما تضاف اليها النصال الرشيق ذات اللمسات الجيدة الصنع ، والتى كثيرا ما تكون مدببة ، وكذلك المكاشط القصيرة المستديرة وأحيانا يكون لها قاطعا مسننا ، وتعطينا هذه التقنية — المتوارثة عن التقنية الاشولية المتطورة — نصالا موزقة ، ومدى حادة الرؤوس ، وهى كثيرا ما تكون مطابقة لمثيلاتها المصرية ، الامر الذى دفع كل من «اليمان» و «فلامند» الى القول بوصول حضارة مصرية الى الصحراء ، بداييل وجرد مدى كبيرة منحنية ذات تشذيب ، وتشبه مدى (سكاكين) الفيوم ، هذا فضلا عن «مدى» صقل أحد وجهيها ، بينما أجريت للوجه الاخر لمسات طولية ، بالاضافة الى وجود قطع ببيضاوية مثقوبة فى الوسط بغرض التعليق^(٣٣) .

31) A. J. Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, P. 105.

32) G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Desert of Fayum, P. 87-88.

(٣٣) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٧١ - ٧٢ ، وكذا H. Alimen, Op. Cit., P. 197.

وأما الأدوات القزمية ، فتشمل على نصيلات صغيرة ، وقواطع قزمية مذنبة ورؤوس سهام مشذبة على الوجهين ومثاقب صغيرة كانت تستعمل في صناعة الحلى ، ورؤوس سهام متنوعة لكل أنماط المغرب القديم وغيرها ، وتعتبر رؤوس السهام المقعرة القاعدة ، عديمة الذنيب ، أقدم أنواع رؤوس السهام ، وهناك رؤوس سهام على شكل متوازي الاضلاع ، وأخرى ذات شكل مغزلي ، وأما رؤوس السهام المذنبة ، والمذنبة المجنحة ، فهي متأخرة في الظهور ، ويذهب البعض الى أنها ذات علاقة بفترة ثانية من فترات التأثير المصرى على الصحراء ، وخاصة رؤوس السهام من نمط حلوان ، وهى من الكوارتز والنصوان معا (٣٤) .

وأما أهم المواقع الصحراوية في العصر الحجري الحديث فهي كثيرة العدد ، لعل من أهمها ، موقع عبد العظيم ، ويقع في أقصى الجنوب الغربى على حافة وادى الساورة ، ثم موقع زميله بركة ، ويعد من أغنى المواقع ، ويقع على مبعدة ٢ كيلا جنوب غرب واحة أوغرطة ، ١٥٠ كيلا شمال موقع عبد العظيم ، ثم موقع زفان على مبعدة ٢٥ كيلا جنوب شرق مدينة زفان ، ثم موقع سريول ، فموقع تبليلة ، ويقع غرب الساورة ويتميز برؤوس سهام وفؤوس ونصال ومدى ذات تأثير مصرى .

ثم هناك موقع «أمكن» ، ويقع في أقصى الجنوب الشرقى للصحراء الجزائرية ، وعلى مبعدة ٤٠ كيلا شمال غرب «تمتراست» ، وهو ثل مرتفع يشرف على السهل ، حيث يجرى عند السفح مجرى مائى كبير يمد السكان بالماء والاسماك ، كما وجدت آثار لمساكن متناثرة بين الكتل الصخرية ، وقد وجدت بجانبها أحواض الطحين محفورة في الصخر ، وتعتمد الصناعة في هذه المواقع على الكوارتز ، ومن أدواتها نصيلات مسننة ورؤوس سهام .

هذا ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن المواقع الاثرية الصحراوية انما وجدت في الهضاب أيضا — كما وجدت في الجبال — وقد عثر على أدوات

34) H. Alimen, Op. Cit., P. 178.

على السطح ، وقد كشف «فورو لامي» في عام ١٩٠٥م في العرق الشرقي الكبير عن أكثر من ٢٣٢ موقعا ، في مساحة لا يتعدى طولها ٤٨٥ كيلا ، وعرضها ٣٢٠ كيلا ، وقد عثر فيها على نصال عادية ، وأخرى متنوعة قزمية ، وفؤوس وسهام مستيرية ، وأخرى عاترية ، كما عثر على ما يدل على استخدام القوم هناك في العرق الشرقي لقشور بيض النعام والفخار (٣٥) .

(٣) من مظاهر الحضارة في العصر الحجري الحديث :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا الى بعض الجوانب الفكرية والدينية في هذه الفترة من تاريخ المغرب القديم ، فلقد عثر على بعض الظواهر الفكرية في تلك المرحلة ، والتي تتمثل في النقوش التي سجلها الانسان وقت ذاك على صخور الهضات والجبال ، وهي نقوش تعبر عن أفكار الانسان ، فضلا عن البيئة الحيوانية والنباتية المحيطة به في ذلك الوقت ، وتعتبر هذه النقوش أو الرسوم خطوة هامة في تطور قدرات الانسان التعبيرية ، سرعان ما تتطور حتى تصل الى التعبير بالرموز والكتابة قبل العصر التاريخي ، وهي ، على أية حال ، مصدر رئيسي للتعرف على الفكر الانساني وقت ذاك ، ورغم صعوبة تأريخ هذه النقوش بدقة ، الا أن العثور على آثار للانسان بجوارها ، انما يساعدنا في تحديد هذا التأريخ ، وهي في غالبيتها انما تنتمي الى مرحلة العصر الحجري الحديث ، بوجه عام ، وأما موضوعها فيغلب عليها الرسوم الحيوانية ، فضلا عن رموز يصعب على الباحث تفسيرها ، وان كان لاشك في أن لها مفاهيمها الخاصة لدى أصحابها في المغرب القديم (٣٦) .

(٣٥) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٧١ - ٧٤ ، طاهر العدواني : دراسة للحضارة في عصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية ، وخاصة أثناء العصر الحجري الحديث - الاسكندرية ١٩٧٥ ص ١٦٠ - ٩٦١ ، وكذا

Foureau Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharnenne, II, Publications De La Societe Geographique De Paris, 1905, P. 1100-1125.

(٣٦) رشيد الناضوري : المغرب الكبير ص ١٣٩ .

ومن ذلك أن الانسان قد استمر في تشكيل بعض القطع على هيئة معينة ، كما في كهف Marhsal و «كهف أشكار» ، هذا الى جانب المجموعة التي اكتشفها Buchet والتي رأى فيها Kochler رموزا قفصية مرتبطة بالمعبودات النسائية التي سادت رموزها حوض البحر المتوسط ، وقد عرفت بمعبودات أشكار (٣٧) .

وهناك أيضا امكانية وجود غاية سحرية في هذه الرسوم ، على أساس تصور الانسان واظهار تحكمه فيها ، ليحمل في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة في الواقع ، ذلك لان الانسان — رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجري القديم — فهو لا يزال يبحث عن الامان والطمأنينة ، فضلا عن الانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله .

وهناك من الرسوم ما يسترعى الانتباه ، كرسوم الكباش التي تحمل فوق رؤوسها رموزا بيضاوية الشكل ، ويوجد أحيانا أمامها رجل يتميز بخصلة شعرية جانبية في رأسه ، ويرتدى قميصا وحزاما عريضا ، الامر الذي ربما يشير الى وجود شبه بين هذه الكباش ، والكباش المصرى في العصر الفرعوني ، والذي يحمل على رأسه رمز الشمس ، ويمثل المعبود «أمون رع» في الدين المصرى القديم ، وقد عثر على هذه الرسوم جنوب وهران وفي برقة ، هذا وقد ذكرت النصوص المصرية القديمة ، موضوع خصلة الشعر الجانبية التي تميز الانسان سالف الذكر ، كعلاقة تميز بعض الكهنة المصريين ، كما في نصوص التوابيت من الدولة الوسطى ، وقد عثر أيضا جنوب طرابلس على رسوم تمثل بعض الشخصيات التي تشبه المعبود المصرى «بس» ، فضلا عن رسم لرجل قد ترك ذقنه بشكل يشبه رسم المعبود «أوزير» .

37) H. Camps-Febrer, Op. Cit., P. 401.

H. Kochler, La grotte d'Achakar au Cap Spertel, Bull, de Inst. d'Et des Reliy. de Eveleche de Rabat, 1931.

R. Vaufrey, Op. Cit., P. 365.

هذا وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة التي تمتد من حوالى منتصف الالف الثالث وحتى منتصف الاول قبل الميلاد ، وهى فترة تقابل فترات هامة من صميم العصر التاريخى فى مصر الفرعونية ، الأمر الذى يؤكد أن هذه الرسوم انما تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة ، مما يعد استمرارا للصلات المصرية ببلاد المغرب ، وان كان هناك اتجاه الى أن هذه الرسوم انما قد جاءت من غربى أوروبا وإسبانيا ، أو من تطور من الحضارة القفصية ، وان كان هذا الاتجاه يصعب الاعتماد ، اذا ما قورن بالأدلة الأثرية الانفة الذكر (٣٨) .

وعلى أية حال ، فلقد كشف فى المستويات السفلى من «تل سوس» على مجموعة من التماثيل الصغيرة — الحيوانية والانسانية — والمصنوعة من الحجر أو الطين أو المعاج (٣٩) ، وقد كشف فى مصر عن تماثيل من الصلصال فى مقابر المبدارى ونقادة — وكذا فى العالم الايجى — تمثل الى حد ما تلك التي وجدت فى «أشكار» (٤٠) ، مما يشير الى انتشار هذا النوع فى اقليم البضر المتوسط ، وعلى أية حال ، فرغم اختلاف التفسيرات من حول هذه الاشكال ، فأكبر الظن انها ترتبط بمعبودات البحر المتوسط ، كرمز أنثوى لشعائر الخصوبة .

وأما المقابر وطريقة الدفن المخربة ، فقد كان يتم دفن الموتى فى وضع مثنى ، وكانت هذه الانثناء من القوة — فى بعض الحالات — مما أوحى الى «بالوه» باستعمال أربطة فى ذلك (٤١) ، وعلى أية حال ، فلقد كان القوم — ربما منذ القفصية العليا — يدفنون موتاهم مع عقودهم وعناصر زينتهم من أصداف مثقوبة ، وحببات نظمت من قشور بيض النعام — كما كانوا يمارسون عادة در المغرة الحمراء على المتوفى ، الأمر الذى مارسه بعض أصحاب الحضارات القديمة الاخرى — كما فى ايران ،

(٣٨) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٣٩ — ١٤٤ .

39) H. Camps-Fébrer, Op. Cit., P. 402.

40) A. Jodin, Les grottes de Khril a Achakar, (Province de Tanger), Bull d'Archeol. Norac, III, 1959, P. 249-331.

41) R. Vaufray, Op. Cit., P. 414.

وفي فلسطين على أيام الحضارة النطوفية^(٤٣) — ربما لارتباط التراب الأحمر بموضوع الخلود ، واستمرار الحياة في العالم الآخر .

هذا وكان القوم في المغرب القديم يتجهون بهيكل المتوفى نحو الشمال ، كما كان يغطى بثلاثة قطع حجرية ضخمة مسطحة^(٤٣) ، وتمثل هذه الظاهرة مرحلة مبكرة جدا من مراحل المحافظة على جسد المتوفى ، وقد أرتبطت هذه الظاهرة في حضارات الشرق الأدنى القديم بالعقيدة الدينية لدى الانسان ، الامر الذي يظهر بوضوح في أرفع درجاته وأرقاها في «التحنيط»^(٤٤) الذي امتازت به الحضارة المصرية القديمة

(٤٢) الحضارة النطوفية : وقد نسبت الى وادي النطوف ، شمال غرب القدس ، وقد عثر في طبقات هذا الموقع على آثار تمثل النقلة من مرحلة جمع الطعام الى مرحلة الاستقرار ، فهناك الأدوات الحجرية ورؤوس السهام وغيرها من آثار العصر الحجري القديم الأعلى ، فضلا عن المناجل والانجران التي تمثل عنصرا حضاريا جديدا يقترب بالانسان الى انتاج الطعام والاستقرار ، أكثر من انتمائه الى مرحلة الجمع والالتقاط ، كما دلت بعض عظام الحيوانات على اتفاقها مع الحياة المستأنسة أكثر من الحياة البرية ، حتى وان ذهب البعض الى عدم توصل أصحاب الحضارة النطوفية الى استئناس الحيوان ، وطبقا لكربون ١٤ ، فإن الحضارة النطوفية تؤرخ بحوالى ١٠.٠٠٠ عام ق م ، وان كان هذا التقدير قد بولغ فيه كثيرا ، وقد جمعت الحضارة النطوفية في مواقعها الاثرية بين الكهوف والساحات الممتدة أمامها ، وخاصة في نواحي جبل الكرمل ، وبين مواقع القرى في وادي نهر الاردن ، حيث يلاحظ اتضاح التطور الحضارى

وأما اهم مواقع الحضارة النطوفية الاثرية في منطقة وادي نهر الاردن فهي : عين ملاحه شمال غرب بحيرة الحولة حيث عثر على عدد من القرى تتميز بمنازلها الحجرية الدائرية ، وكانت أرضيتها دون مستوى سطح الاردن ، وفي هذه المنازل وجدت آثار هذه الحضارة ، الحجرية والعظمية ، وكذا الفنية كالتماثيل الصغيرة التي تعد أقدم أمثلة للنحت في الشرق الأدنى القديم ، وكذا الاثار المصنوعة من الخرز والاصداق ، كما عثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التي تشير الى الاعتقاد في العالم الآخر ، فقد لوحظ تغطية الهيكل العظمى للمتوفى بالكتل الحجرية التي تمثل مرحلة مبكرة جدا للحفاظ على جسد المتوفى ، والتي تطورت فيما بعد الى بناء علوى للمقبرة (رشيد الناضورى : غربى آسيا وشمال أفريقيا ص ١١٣ - ١١٦) .

43) R. Vaufray, Op. Cit., P. 342.

(٤٤) انظر عن التحنيط (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الأول - الاداب والعلوم ص ٤٤٤ - ٤٥٥) .

منذ بواكيرها ، فهناك آثار للتحنيط منذ الأسرة الاولى^(٤٥) (حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م) ثم لا نلبيث أن نتثبتها فى وضوح فى عصر الأسرة الثانية^(٤٦) وان كان المصريون قد توصلوا الى التحنيط بالمعنى الصحيح ومارسوه فعلا فى الأسرة الثالثة (حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م) ، اذ وجدت من عصر هذه الأسرة توابيت لحفظ الموميا ، وتوابيت أخرى بها أربعة أوان من المرمر لحفظ الاحشاء المحنطة ، كما وجدت بقايا موميا الملك «زوسر» (ثانى ملوك الأسرة) فى غرفة الدفن الجرانيتية فى هرمه المدرج فى سقارة^(٤٧) .

وعلى أية حال ، فهناك الكثير من الاشارات فى المقابر المغربية التى تدل على دفن بعض لوازم ومنقولات المتوفى معه فى مقبرته ، كما يبدو ذلك أكثر وضوحا فى كهف أشكار« هذا فضلا عن أن القوم انما مارسوا كذلك عادة الدفن الجماعى ، كما تدل على ذلك مقبرة «الكيفن» El-Kiffen — على مقربة من كهف بلتية فى تماريس بالدار البيضاء — حيث عثر فيها على ١٧ جمجمة ، وان قدر الباحثون عدد من دفن فيها بعشرين شخصا .

هذا وقد استعمل القوم التمائم ، من قطع تؤخذ من أجزاء معينة من عظام السلحفاة ، أو من درعها ، ثم تصقل هذه الاجزاء وتثقب لتعليقها كتميمة ، ومن عجب ، كما يقول بعض الباحثين ، أن السلحفاة ما تزال حتى اليوم فى اقليم قفصة موضوعا للوشم ، ولا يزال النوع الذى يعيش فى الماء العذب شائعا فى قفصة ، ولا يقبل الناس على قتله ، وعلى أية حال ، فربما أنيطت هذه التمائم المصنوعة من عظم السلحفاة أو درعها بفكرة طول البقاء والعمر المديد ، وربما كانت السلحفاة — فى نظر القوم وقت ذاك — تمثل تجسيدا لفكرة الخلود^(٤٨) .

45) JEA, 7, 1921, P. 7-31.

46) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, II, London, 1948, P. 230.

(٤٧) زكى اسكندر — التحنيط فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٣

ص ١٠ .

48) H. Camps-Fabrer, Op. Cit., P. 242.

D. Deyrolle, La Tortue en Prehistoire, Bull, de S. P. F., 8, 1911, P. 123-124.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك — فيما يرى فيرون — ما يشير الى أن الصحراء وشمال أفريقيا ، انما كانت في العصر الحجري الحديث مسكونة بقوم من الرعاة قدموا من الشرق ، مع قطعان لهم (٤٩) ، من الخراف والماعز (٥٠) والثيران ذات القرون ، والبقر (٥١) والكباش ،

(٤٩) يذهب بعض العلماء الى أن استئناس الحيوان واستخدام الزراعة ، انما كان موطنهما الأصلي في مكان ما في الشرق الأدنى القديم ، وطبقا لرأى «ماك برنى» فانه في غربى آسيا ، على أن هناك فريقا آخر يميل الى انهما قد ظهرا في أماكن مختلفة ، ومستقلة عن أى تأثير أو اتصال ، على أن «ريموند مورى» انما يقترح طريقين لوصول الحيوانات المستأنسة من الشرق الأدنى القديم الى الشمال الافريقى ، عن طريق مصر ، أولهما : على طول سواحل البحر المتوسط ، وحتى المغرب القديم ، ومنه اجتاز الاطلسى الصحراوى بحثا عن الماء ، حتى وصل التاسيلى والهوفار ، بينما يمتد الطريق الثانى مباشرة من مصر العليا (الصعيد) الى الصحراء على طول خط عرض ٢٠° (عشرين درجة) .

ولكن يقف دون ذلك أمران : الواحد : عدم وجود آثار استئناس الحيوان في مصر ، أقدم من وجوده في الصحراء الوسطى (الصحراء الجزائرية) ، كما أن «العير» أو «الحمادة» (وتقع جنوب جبال الهوفار في الجزائر ، وتمثل مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صخور شديدة الصلابة ، عارية من الرواسب والخصوبة ، بسبب فعل الرياح) انما تعتبر طريق مرور من مصر العليا الى الصحراء الوسطى ، ومع ذلك ، فلا أثر لماشية مستأنسة هناك (أنظر : أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٧٥ - ٧٦ ، C. B. M. Mc Burney, Op. Cit., P. 248.

A. R. Wilcox, Rock Art of Africa, New York, 1948, P. 35).

(٥٠) ليس هناك ما يميز الهياكل العظمية للماعز عن تلك التى للاغنام ، وان استؤنست الماعز أولا ، وهناك من يرجع أصل الماعز الى النوبة ، غير أن حفريات «أركل» في «شهيناب» (٤٨ كيلا شمال أم درمان) أثبتت أن الماعز لم يستأنس محليا ، وانما وفدت من الخارج ، وعلى أية حال ، فلقد وجدت آثارها في كهف «دوارف» في الصحراء الجزائرية وفي جنوب السودان ، وهناك احتمال دخول الماعز من كهف دوارف الى شهيناب ، كما وصلت وادى النيل عن طريق التبتى ، ومن ثم فهناك من يذهب الى أن الانسان في شمال أفريقيا قد استأنس الحيوانات محليا ، وفي وقت مبكر ، وكان هذا اتجاها فرضته الظروف الطبيعية عليه ، اما الزراعة فقد وصلتهم عن طريق اقوام شرقيين (أنظر :

A. J. Arkell, Shaheinab, P. 15-16.

R. Vaufrey, L'Art Rupestre Nord Africain, 1939, P. 65. وكذا

(٥١) هناك نوعان من البقر في المغرب القديم ، الاول : كبير

الحجم ، وهو سليل الابقار البرية ، والثانى صغير الحجم ، يذهب العلماء الى أنه من ايبيريا .

فضلا عن الحصان المستأنس (حوالى ١٥٠٠ ق.م) والجمل المستأنس (ربما قبل القرن الثالث أو الرابع قبل هذا العصر موضوع الحديث) ، وكذا الفيل والخرتيت والجاموس الضخم^(٥٣) ، ومن المؤكد أن الثور قد تم استئناؤه حوالى عام ٤٠٠ ق.م ، على الأقل ، وليس مستحيلا أن تكون الماشية قد استئنشت قبل ذلك في «أكاكس» (Acacus) ، وهى جبال تقع فى أقصى الجنوب الغربى للجماهيرية الليبية قسرب حدود الجزائر^(٥٤) .

هذا وقد انتشرت فى هذه الفترة من تاريخ المغرب القديم الرسوم الصخرية ، وقد كشف عنها الاثاريون فى مناطق عدة من الشمال الافريقى ، حتى زاد عددها الان عن عشرين ألف رسم صخرى^(٥٥) ، وقد عثر على هذه النقوش والرسوم الصخرية فى الاقاليم الجبلية لأطلس التل^(٥٥) ، فمثلا توجد نقوش فى «خنفة حجار» (على مبعده ٥٠ كيلا شرقى قسنطينة)^(٥٦) ، وفى كهف الخلوس فى وادى هليل على مقربة من «كيفين»^(٥٧) ، وعلى رصيف صخرى يعرف باسم «فجة الخيل» (كودية الخروبة من ضواحي عين مليلة)^(٥٨) ، ثم على الركائز الصخرية فى «جارة الطالب»^(٥٩) .

52) H. Alimen, Op. Cit., P. 422.

R. Furon, Manuel de Prehistoire generale, Paris, 1958, P. 311.

53) W. Resch, Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrikas, P.5 2. P. Beck et P. Huard, Tihesti, Carrefour de la Prehistoire Saharienne, Paris, 1969.

(٥٤) كارل شترينتر : الرسوم الصخرية كمصدر تاريخى - كتاب الصحراء الكبرى - ترجمة عماد الدين غانم - ليبيا ١٩٧٩ ص ١٤٥ - ١٥٥

55) H. Alimen, Op. Cit., P. 422.

56) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 414.

57) Ibid., P. 616.

58) Ibid., Pl. 49.

H. Alimen, Op. Cit., P. 427.

59) R. Vaufrey, Op. Cit., Pl. 44.

الباب الثاني

سكان المغرب القديم

الفصل الأول

سكان المغرب القديم فيما قبل هجرات شعوب البحر

(١) في العصر الحجري القديم :

عاش الإنسان في البيئة المغربية ، رغم الصعوبات المناخية ، كما عاش في غيرها من الميئات ، وقد قام العلماء بالبحث عن أقدم انسان وصل الى تلك المنطقة وصناعاته وحضارته الاولى ، فضلا عن علاقاته بغيره من سكان قارتي أوروبا وأفريقيا ، وقد عثر على عظام هذا الانسان الاول في مواقع تنتمي الى العصر الحجري القديم — بأقسامه الثلاثة ، الاسفل والاطلس والاعلى — فضلا عن العصر الحجري الحديث .

ولعل أقدم ما عثر عليه من بقايا العظام الانسانية من مرحلة العصر الحجري الاسفل انما كان في موقع «باليكاو» في الجزائر ، وهي عبارة عن ثلاثة عظام لفك أسفل تتميز بكبرها وثقلها ، الى جانب عظمة جدار أيمن للجمجمة ، هذا فضلا عما عثر عليه في «محجر سيدي عبد الرحمن» ، وهو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة في نواحي مدينة «الدار البيضاء» نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملي والجص طوال العصور الجيولوجية ، وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقيرة — كفرس النهر ووحيد القرن — وحيوانات لا فقيرة ، فضلا عن البقايا الاثرية — التي خلفها الانسان من تلك المرحلة ، وتندرج هذه المواقع من ارتفاع يزيد عن مائة متر ، والى مسافة ٥ كيلا ، تجاه المحيط الاطلسي ، كما تمتد نحو الجنوب الغربي ، حيث عثر على «كهف الدبية» (Grotte des Ours) ، و «كهف ليتورين» (Grotte des Littorines) . وقد كشف في الكهف الاخير (ليتورين) في عام ١٩٥٥ م عن فك سفلى انساني من قطعتين ، وفي حالة جيدة ، ينتمي الى مجموعة انسان

«باليكاو» ، أى «مجموعة أتلانثروبوس» ، اتى ترتبط بمجموعة الشرق الاقصى (انسان جاوه ، وانسان بكين) ، وان كان حجم الاسنان فى كهف «الليثورين» (Littorines) يقل عن نظيره فى «باليكاو» .

وفى شهر فبراير عام ١٩٣٣م ، عثر فى نواحي «الرباط» على بقايا انسان ، عرف باسم «انسان الرباط» ، وأغلب الظن أنه ينتمى الى مجموعة انسان باليكاو ، وسيدى عبد الرحمن (مجموعة أتلانثروبوس) ، كما يؤكد التشابه الجيولوجى بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط ، تشابه البيئة المحيطة بحياة الانسان الاول فى كلا الموقعين^(١) .

هذا وقد عثر من مرحلة العصر الحجري القديم الاوسط على فك انسانى فى كهف «هوافتيح» — الى الشرق قليلا من مرس سوسة (أبواونا القديمة) فى غرب درنة بمنطقة الجبل الاخضر فى ليبيا — وطبقا لتأريخ «كربون ١٤» ، فلقد أرخ الفحم الخشبى الذى عثر عليه فى الموقع بحوالى ٤٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد^(٢) ، وقد أكدت الدراسات الدقيقة لآسان «هوافتيح» أنه قريب الشبه بانسان «الطابون» و «الكرمل» فى فلسطين^(٣) ، فضلا عن التشابه فى الصناعة الحجرية ، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، مما دفع البعض الى القول بأن هذا الانسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب اثر هجرة جنوبية — شمالية ، ظهرت آثارها كذلك فى وادى النيل ، ثم تطور بعد استقراره فى هذه المنطقة^(٤) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه قد عثر على عدد من البقايا

(١) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ص ٥٤ — ٦١ ، وانظر :

H. V. Vallois, L'homme de Rabat, BAM, III, 1958-1959, P. 89.

C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, P. 118.

2) C. B. M. Mc Burney, The Haua Fteeh (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1961, P. 168.

3) Ibid., P. 349.

(٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٦١ — ٦٢ .

العظمية الانسانية فى الكهوف والمغارات الساحلية المواجهة للمحيط
الاطلسى ، والتي تمتد على طول الساحل المغربى مثل كهوف : مغارة
العالية وأشقر فى مجاورات طنجة ، ودار السلطان - على مبعده ٦ كيلا
جنوب غرب الرباط ، والخنزيرة جنوب الجديدة وغيرها ، بسبب عوامل
التحات والتعرية الناجمة عن مياه المحيط والصخور المتاخمة للساحل ،
وكانت هذه الكهوف مأوى للانسان فى تلك المناطق منذ عصور ما قبل
التاريخ^(٥) .

وأما فى العصر الحجري القديم الاعلى ، والذي تتمثل حضارته
- كما أشرنا من قبل - فى حضارتين ، الواحدة : الحضارة الوهرانية
(الاييرو مغربية = الاييرو موريتانية)^(٦) ، والاخرى : الحضارة
القفصية .

وكان أصحاب الحضارة الوهرانية من سلالة «مشتا العربى»^(٧)
(حوالى ١٣٠٠٠ ق.م) ، وهم طوال القامة (١٧٢ مترا فى المتوسط) ،
مستطيلو الرؤوس ، لهم جبهة ضيقة ، وشفاة طويلة ، وربما كانوا أول
سلالة تتخذ لها موطنها فى المغرب^(٨) ، وكانوا يمارسون عادة خلع الاسنان
القاطعة ، ثم بدا يظهر تحول نحو قصر الرأس ونحافة الجسم فى أماكن

(٥) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٦) أنظر ما سبق أن ذكرناه فى هذه الدراسة عن هذه المصطلحات .
(٧) هناك من يذهب الى أن العنصر البشرى فى المغرب فى مرحلة
العصر الحجري الحديث - كما أظهرته الجماجم والهياكل العظمية
الانسانية فى الطبقات الاثرية - انما ينتمى الى انسان «مشتا العرب»
(مشتا العربى) ، وهذا يتفق مع الانتقال الذى تم تدريجيا من حضارات
القفصية والاييروموريتانية الى حضارة العصر الحجري الحديث ، ويعتبر
غياب الشواهد من الطبقات الاثرية عن تغيير فجائى فى هيئة التسليح ،
انما يشير الى عدم قدوم عناصر جديدة فى شكل هجرات بأعداد كبيرة قادرة
على تغيير أنماط الحياة التى كانت سائدة (أنظر : حسن الشريف : دراسة
تاريخية لحضارة المغرب القديم أثناء العصر الحجري القديم : ص ١٨٢ ،
وكذا

C. Arambourg, M. Boule, H. Vallios et R. Verneau, les grottes Palcolithiques des Beni-Segoual (Algerie), AIPH, Memoire, 31, 1934.

8) L. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955, P. 375-377.

G. Camps, Op. Cit., 1974, P. 81-86.

معينة أظهرها «كولومنتا» (Columnata) في غرب الجزائر^(٩) ،
وذلك حوالى عام ٦٠٠٠ ق م •

ولعل من الجدير بالإشارة الى أن هناك من يذهب الى أن انسان
«مشتا العربى» من أصل غربى لوجود شبه بينه وبين انسان كرومانيون ،
وكذا انسان جزر كناريا ، والتي كانت بمثابة ملجأ بشرى تصل اليه
العناصر البشرية من المغرب ، غير أن هناك فريقا من العلماء انما يرى
أن ذلك أمرا بعيد الاحتمال ، ذلك لأن «الجوانشيين» (Guanches)
رغم أنهم مشابهون أنثروبولوجيا لرجبال «مشتا العربى» ، فانهم لا
يملكونهم في الحرف والصناعات والعادات ، كما أن الحضارة الوهرانية
لم تت من أوربا ، ذلك لأنها انما ظهرت قبل بداية الملاحة عبر المضائق
(حوالى الالف الرابع قبل الميلاد) ، ومن والى صقلية ، وهناك ما يحمل
على الظن بأن أصولها شرقية ، ومن المحتمل أيضا أنها أتت من شمال
سودان وادى النيل — فيما يرى تكسير — ومن ثم فما داموا قد أتوا
تحت ضغط من الشعوب المهاجرة ، فلا شك أن «الاييريين — الموريتانيين»
قد اتخذوا ملاجئ في التلال ، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر
الانثروبولوجية لسكان الجبال^(١٠) •

وأما القفصيون ، فقد ظهوروا حوالى عام ٧٠٠٠ ق م ، وهم قوم لهم
قوام رشيق ، من جنس البحر المتوسط ، ولكنهم لم يخلو من الصفات
شبه الزنجية ، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماما ، ولكنها بالتأكيد
تقع في الجزء الداخلى ، دون الامتداد ، فيما يبدو ، الى أقصى الحدود
الغربية لشمال أفريقيا ، ولا الى الصحراء الجنوبية ، وفي الغالب ، فلقد
استوطنوا روابى أو منحدرات قرب مصب مائى ، ولكنهم في بعض
الاحايين ، انما كانوا يستوطنون السهول التى تنتشر فيها البحيرات أو

(٩) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣١ — ٤٣٢ ، وكذا
M. C. Chamle, Les home epipaleolithiques de Columnata (Algerie Oc-
cidentale) Mem. C.R.A.P.E, XV, 1970, P. 113-114.

(١٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٢ •

المستنقعات ، وكان غذاؤهم يشمل القواقع ، وأما الثقافة القفصية فقد جاءت كذلك من الشرق ، ولم تستطع الانتشار عن طريق البحر ، وقد أنتهت حوالي عام ٤٥٠٠ ق م^(١١) .

هذا ورغم أن الجمجمة القفصية انما كانت مشابهة للانواع المعاصرة لها من الجماجم ، فمن المعتقد أنه لم يكن هناك أى دليل على وجود البربر البدائيين الاصليين حتى العصر الحجري الحديث ، حيث يبدو أن شعائر القفصيين في الدفن لم تنتشر في عالم ليبيا البربرية^(١٢) ، ومع ذلك ، فان عادة استخدام وتزين بيض النعام ، والتي كانت — فيما يرى كامبس — فابريه — احدى خصائص الحياة القفصية ، استمرت أثناء العصر الحجري الحديث ، حتى الوقت الذي ذكرت فيه الشعوب الليبية في السجلات التاريخية ، مثل الجرمانتيين^(١٣) .

وطبقا لـ «لوكيانوس» Lucianus^(١٤) فلقد استخدم الجرمانتيين البيض في أغراض شتى ، كما تشير الى ذلك الحفائر التي أجريت في «أبو نجيم» (في المناطق الداخلية في تريبوليتانيا — اقليم طرابلس) ، ومع هذا ، فليس هناك من ريب في أن رجال العصر الحجري الحديث انما يعتبرون أبناء عمومته للقفصيين ، ومهما يكن من أمر ، فان التعمير التاريخي للمغرب انما هو ، على وجه اليقين ، نتيجة اندماج — بنسب لم تحدد بعد — بين ثلاثة عناصر : الايبيريين — الموريتانيين ، ثم القفصيين ، فسلالة العصر الحجري الحديث^(١٥) .

(١١) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٢ ، وكذا

G. Camps, Op. Cit., P. 159, 265.

12) L. Balout, Op. Cit., P. 435-437.

13) H. Camps-Fabrer, Matiere et art Mobilier dans la Prehistoire Nord Africaine et Saharienne, Paris, 1966, P. 7.

14) R. Rebuffat, Zella et Les routes d'Egypte, Libya antiqua, VI-VII, 1969-197, P. 12.

(١٥) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٢) في العصر الحجري الحديث :

سكنت القبائل البربرية المغرب في مرحلة العصر الحجري الحديث ، والذي تميز بالاستقرار والرعى والزراعة ، هذا وقد اختلف العلماء اختلافا كبيرا ، حول أصل البربر ، والعائلة البشرية التي ينتمون اليها ، وكتب في هذا الموضوع كثير من المؤرخين ، وخاصة العلامة «عبد الرحمن ابن خلدون» (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) ، وقد أطلق البربر على أنفسهم اسم «الامازينغ» - أى الاحرار - وأغلب الظن أنهم ينتمون الى مجموعة للشعوب الحامية التي جاءت عن طريق شبه جزيرة سيناء ، أو عن طريق القرن الافريقى ، من موطنها الاصلى الذى يظن أنه كان فى اليمن أو عمان •

وأما كلمة «بربر» ، فأكبر الظن أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية (Barbarus) ، وهو التعبير الذى استخدمه الرومان للشعوب التى يرون أنها أقل منهم حضارة ، وعلى أية حال ، فالبربر ، انما هم من جنس البحر الابيض المتوسط بوجه عام وان تفاوتت صفات هذا الجنس فيهم حسب أماكن استقرار قبائلهم فلقد استقرت بعض القبائل فى الشمال ، والاخرى فى الجنوب ، الامر الذى جعلها تتأثر بالموجات البشرية القادمة عن طريق البحر المتوسط أو عن طريق الصحراء (١٦) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه من المتفق عليه - بصفة عامة - أن العصر الحجري الحديث انما يبدأ بصناعة الفخار ، وطبقا لتأريخ «كربون ١٤» ، فان استخدام الفخار انما قد انتشر من الصحراء الوسطى والشرقية ، وداخل هذه المنطقة - التى تعد أقدم مثال على العصر الحجري الحديث - يظهر التأثير السودانى ، ويمكن أن تؤرخ بدايات صناعة الفخار بالالف السابع قبل الميلاد ، فى المنطقة الممتدة من «اندى» (Ennedi) الى «الهوجار» (Hoggar) ، وربما كان الصناع سودا ، أو أشباه زنج ، ينتمون الى سودانى الخرطوم

(١٦) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦ •

المبكرة (١٧) .

بقيت الإشارة الى أنه في الازمنة القديمة ، كان الرجال ذوو البشرة السوداء ، الذين أسماهم الاغريق غيمسا بعد «الاثيوبيين» (بمعنى الموجه المصروقة) ، على اتصال بالعالم البربرى الليبى ، فى معظم واحات الصحراء — فى «قزان» ، وفى كل المنحدرات الصحراوية فى سلسلة أطلس — وقد عاشوا مسالمين ، واشتغلوا بجمع الطعام والصيد ، فضلا عن الزراعة التى قامت على طرق الرى القديمة ، وان ذهب البعض الى أن جمع الطعام استمر لوقت طويل المصدر الرئيسى لهؤلاء الاثيوبيين (١٨)

ومن الخطأ أن نتصور وجود صحراء أثيوبية كاملة فى العصرين — الحجرى الحديث وما قبل التاريخ — حتى وان حرصنا على اعطاء لفظ «أثيوبى» معناه الواضح ، وهو «رجل ملون» ، وليس «رجلا زنجيا» ، ويذهب «شاملا» الى أن ربع الهياكل العظمية فى هذه الفترة هو الذى يمكن أن يتماثل مع هياكل الرجال السود ، بينما لا تبين أكثر من ٤٠٪ أية صفات زنجية (١٩) .

وعلى أية حال ، فهناك الكثير من الأدلة على وجود الاثيوبيين على الحدود الجنوبية لأفريقيا الصغرى ، وخلال العصر القديم ذكرت كذلك شعوب تنتمى للسلاسل المتوسطة : الجيتوليون السود (Melano Getulas) والاثيوبيون البيض (Leuco Ethiopians) ، بصفة خاصة عند

17) G. Camps, Op. Cit., P. 269.

H. J. Hugot, Recherches dans L'Ahaggar Nord Occidental, 1950-1957. MCRAPE, I, 1963, P. 134, 138, 185.

(١٨) أنظر :

S. Gsell, Histoire ancienne de L'Afrique du Nord, P. 293-304.

H. Lhote, Problemes Sahariens, P. 67-68.

(١٩) أنظر :

M. C. Chamla, Les Populations anciennes du Sahara et des regions Limitrophes Etude des restes Osseux humains Neolithiques et Protohistoriques, Mcm. CRAPE, IX, 1968, P. 248. Pl. 8.

بطلليموس الجغرافى ، وقد وصف الجرمانتيون أنفسهم أحيانا ، بأنهم
سود نوعا ، أو حتى شديدا السواد ، وطبقا لبطلليموس ، فانهم قليلو
السواد ، وأنهم على الأرجح أثيوبيون ، ويؤكد مسح أنثروبولوجى
أجرى فى مدافنهم ، ان صفاتهم الجنسية ذات طبيعة مختلطة (٢٠) .

(٢٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٦ .

الفصل الثاني

التحنو والتمحو والمشوش والليبو

شهدت الاعوام ما بين ١٤٠٠ ، ١١٠٠ ق.م ، تغيرات خطيرة في منطقة البحر الابيض المتوسط ، والبلاد الواقعة الى الشرق منه ، ذلك لأن هذه المنطقة كانت قد تعرضت في أوائل القرن الرابع عشر ق.م لهجمات اعداد لا حصر لها ، سواء من الشعوب المتبربرة التي تنتمي أصلا الى وسط آسيا والتي يطلق المؤرخون عليها اسم الشعوب «الهنود - أوربية» (الهندية الاوربية) ، أو من الشعوب التي زحزحها هؤلاء عن أماكنهم ، وقد قدمت هذه الشعوب المهاجرة من الشمال ، ويبدو أنها وصلت الى مناطق شرق أوربا من شمال البحر الاسود ، وحطوا رحالهم في شمال البلقان ، ثم انتشروا جنوبا على عربات ثقيلة تجرها الخيول ، وكانوا دائمي التحرك ، محبين للنزال والقتال ، قساة القلوب تواقين الى سفك الدماء ، وانتهى بهم المقام في هذه المنطقة ، فاستقر الايوليون في شمال البلقان ، واستقر الايونيون في وسط بلاد اليونان ، وانتشر الدوريون في أنحاء الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى الغربية المطلة على بحر الارخبيل وفي جزر هذا البحر ، وهكذا بدأ التاريخ يتحدث عن الاغريق القدماء الذين التقوا لأول مرة بحضارة الايجيين الزاهرة المتقدمة ، وكانوا في التقائهم بأهلها على جانب من الوحشية والقسوة ، بحيث أن حضارة كريت اندثرت وانتهت على أيديهم ، كما كانت جزر بحر الارخبيل بمثابة ميادين لقتال مرير بين أهلها الاصليين وبين المغيرين ، وانتهى الامر بأن الآلاف من الاسرات التي كانت تسكن هذه الجزر قد اضطرت الى الهرب ، فركبت سفنها وهامت على وجهها في البحر المتوسط تبحث عن وطن جديد (١) .

(١) د. عبد المنعم أبو بكر - كفاحنا ضد الغزاة ص ٤١ .

وفي أثناء ذلك كانت هناك موجة جديدة تنحدر من وطن هندو أوربى في اشمال الشرقى ، وتستجمع قواها لتصبح صاحبة السلطان في المناطق الساحلية في شرق البحر الابيض المتوسط ولتتافس سكانه الاصليين من المصريين والسوريين والحيشيين على السيادة ، ولتحطم تماما ذلك التوازن الذى كان سائدا في بلاد الشرق القديم ، وكانت بلاد الاناضول هى المسرح الاول للصدام المرير المرتقب •

ومن الغريب أن كل هذه الافواج المتحركة ، سواء من المغيرين ، أو من المهاجرين أمامهم ، وسواء وصلت الى سورية ، أو أتجهت بسفنها غربا ونزلت على سواحل أفريقيا الشمالية كانت كلها تتجهه بأبصارها الى وادى النيل الخصيب الموفور الثراء حتى كأنما كانوا جميعا على موعد ، فقد هبت أفواجهم كالجزاد ، واتجهوا الى حدود مصر الشرقية والغربية ، وتحركوا في جماعات لا حصر لها ، كل منهم يرغب فى الوصول الى أرض الكنانة ، ففيها يجد ذلك الوطن الرؤوم والحياة السهلة والثراء السريع (٢) •

وهكذا تعرضت مصر فى الفترة ما بين السنة الخامسة من عهد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) والسنة الحادية عشرة من عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) (٣) الى غزوات ثلاث من ناحية الغرب ، والى واحدة - على الاقل - من ناحية الشرق ، وقد يكون الامر غير خطير ان كانت مصر فى أوج قوتها - كما كانت أيام تحوتمس الثالث - ولكن الامر يختلف هنا ، اذ أن مصر كانت فى هذه الفترة تمر بأزمات عصبية ، وتضعفت قواها وأخذت تنحدر نحو الانحلال والتدهور ، ومع ذلك فقد استطاع كل من «مرنبتاح» و «رعمسيس الثالث» أن يثبت أنه على مستوى المسئولية ، وأنه جدير بعرش الفراعين ، ونجح كل منهم فى أن ينفذ مصر - بل وسورية وفلسطين - من هذا الخطر الدايم •

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٢ •
(٣) هذه التواريخ من جاردنر

(Egypt of the Pharaohs, P. 445-6).

وأما هذه الشعوب التى هاجمت مصر ، فقد كانت على أيام مرنبتاح تتكون من الليبيين وأقربائهم المشوش وقهق ، بجانب خمسة من شعوب البحر ، هم «الاقواواشا» (اقوش) ، ولوكا وتورشسا والشردان وشيكلش ، وأما نصوص رعمسيس الثالث فتشير (كما نمتذكر ذلك فيما بعد) الى جماعات فى الغرب وهى : تحنو وتمحو والمشوش والليبو والاسبات والفايقاش والشايتب والهاسا والبقان ، وأما جماعات شعوب البحر فهى : البلست والثيكر والشكلش ودنين ، و «وثنش» ، وسنحاول فيما يلى التعرف على هذه الشعوب وموقعها بالنسبة لمصر على قدر الامكان .

أولا - الشعوب الليبية

(١) - التحنو :

لقد ورد اسم تحنو فى نصوص رعمسيس الثالث ، الا أن ذكر التحنو ، أو تحنى (TJehnu, Thny) قد جاء فى النقوش المصرية منذ فجر التاريخ المصرى ، وأقدم اشارة اليهم ترجع الى عهد الملك العفرب ، اذ كتب اسم بلادهم على أثر يصور أسلابة أحضرت من هناك ، ثم من عهد الملك نعرمر Narm ، ومنذ الدولة القديمة حتى الأسرة الثامنة عشرة كان سكان تحنو (T Jehnu) Thnu يذكرون باعتبارهم «حاتبوعا» Hatyu - ca وهو لفظ كان يطلق على الامراء المصريين^(٤) ، وبذا فان «تحنو» اسم منطقة جغرافية وليس اسما لقوم ، هذا وقد ذكرت بلاد تحنو كذلك على أثر من عهد الملك منتوحتب (نب حتب رع) من الأسرة الحادية عشرة ، الى جانب قومى النوبيين والاسيويين ، كما جاء ذكرهم فى قصة «سنوهمى» بأنهم الذين يسكنون بلاد تحنو ، ويرى الدكتور أحمد فخري أن كلمة «تحنو» قد استعملت منذ الأسرة الثانية عشرة للسكان ، كذلك ، وذلك حين فقدت كلمة تحنو معناها الاصلى^(٥) .

4) Gardiner, A. H. Onomastica, I, 1974, P. 116-117.

5) Fakhry, A. Bahria Oasis, I, 1942, P. 5.

وأما موقع أرض تحنو ، فكانت تقع — دون شك — الى الغرب من مصر ، ذلك لأنها تذكر دائما عندما تذكر أسماء البلاد التي تقع غربى مصر ، كما أنها تذكر بموقعها الغربى عند الحديث عن جيران مصر ، هذا الى أن نقوش «ساحورع» قد ذكرت لنا بلاد «تحنو» T Jehnu - Thny بأنها غربى مصر ، ويحددها لنا «هولشر» بطريقة أكثر دقة ، فيرى أن هذا الاسم كان يطلق غالبا على المكان الذى يستخرج منه النطرون الذى كان يستعمل فى مصر لتحضير طلاء أشكال الخزف والمزجاج^(٦) ، ولكن هذه البقعة ليس فيها من الخيرات ، ما يصلح لسكنى عدد كبير من الناس ، وكذلك يلاحظ أن تصوير الاشجار ضمن الغنائم — كما فى لوحتى العقرب ونعمر — يوحي الينا بأن أرض تحنو لا تشمل بلادا صحراوية فحسب ، بل تشمل كذلك بقاعا خصبة فى غربى وادى النيل ، ومن هنا يتجه الانسان الى التفكير فى واحة ، قد تكون واحة الفيوم ، ويذكر هولشر — ن أن «بسنج» قد أكد ذلك ، اذ شاهد فى نقش من عهد «منتوحتب» وفيه يعلق أحد رؤساء تحنو صور سمك فى حزامه ، ومن هنا استنتج أن الفيوم هى موطنه ، كما أن الاله «سبك» (التمساح) منذ القدم كان يقدس فى الفيوم ، كما أننا نرى «سبك» فى نص يرجع الى عهد طهراقا يمثل بلاد تحنو ، (كما كان الاله «ددون» يمثل النوبة ، و «سبدو» يمثل بلاد آسيا ، و «حور» يمثل مصر) ، كما أننا نشاهد «سبك» يمثل عدة مرات بوصفه سيد بلاد «باش» وهى — طبقا لنصوص ساحورع — جزء من بلاد تحنو ، كما ذكرته نصوص الاهرام^(٧) ، «سبك سيدباش» ثم ذكر بعد ذلك مباشرة أهل «أعوا» العظام جدا الذين فى مقدمة «تحنو» ، كما ذكر فى كتاب الموتى بأن «سبك سيد باش» عدة مرات ويذكر هولشر كذلك أن «زيته» تكلم بأسهاب عن موقع بلاد «باش» بوصفها غربى مصر ، ثم يقرر بعد مناقشة طويلة أن بلاد

6) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, London, 1948, P. 106.

(٧) أنظر :

K. Sethe, Pyramiden Texte, L. 456 a.

تحنو تقع في اقليم وادي النظرون والفيوم ، وأن قوم تحنو قد استوطنوها ، خاصة وأنه ليس لدينا ما يناقض ذلك من نقوش الاسرة الخامسة بصفة خاصة (٨) .

ويعترض الدكتور فخرى على هذه النظرية ، بأن كلا من المكانين - وادي النظرون والفيوم - كان معروفا للمصريين جيدا ، وقد وجدت أسماؤها على آثار الاسرتين الرابعة والخامسة ، كما أن وادي النظرون مكان فقير يستطيع بالكاد اعالة ما يزيد على الالفين من السكان وفي مستوى معيشى فقير ، ومن هنا فان هذا المكان لا يمكن أن يكون مقرا لهؤلاء القوم المذبح كانوا من عجين للفراعنة باستمرار، أما عن الفيوم فقد كان ينظر اليها منذ بداية اتلارخ المصرى بوصفها احدى الاقاليم المصرية ، وكانت تسمى البحيرة ، ومن هنا فيجب علينا أن نبحث عن مكان آخر ، ويرى بعد ذلك أن مريوط وواحة سيوه والبحرية وبرقة هي الاماكن التى يحتمل أنها كانت أرضا للحنو ، ويرى أن تفسير «نيوبرى» بأنها بلد الزيتون معقول ، ذلك لان أشجار الزيتون تنمو بكثرة في مريوط والواحات وبرقة ، وربما سمي المصريون هذا الاقليم باسم الشجرة الغير مألوغة في مصر ، وان كانوا قد استعملوا زيتها (٩) .

ويرى «جاردنر» أن التحنو يظهران ، وكأن بينهم وبين المصريين قرابة وثيقة ، وقد وضع اسم تحنو على لوحة الملك العقرب بين عدد من الاشجار ، ويذكر «جاردنر» أن «نيوبرى» اعتقد أنها شجر الزيتون ، ومما له أهمية في هذا الصدد ، أن هناك نوعا من الزيت قد ذكر باسم «حاتت تحنو Hatt - Thnu (أى زيت من الدرجة الاولى) ، وقد كتبت هنا كلمة « تحنو » ، بنفس الطريقة التى كتبت بها «بلاد تحنو» وقد برهن «نيوبرى» أن شجر الزيتون يعد من الاشجار المتوطنة في الشمال الغربى من أفريقية .

8) Holscher, W. Libyer und Agypter, P. 21 F.

9) Fakhry, A., Op. Cit., P. 5-6.

ويرى «جاردنر» بعد ذلك أن ملاحظة نيوبرى رغم أنها لم تساعدنا على تحديد موقع بلاد تحنو بالضبط ، فإن وجهة نظره بأنها تقع مباشرة في الغرب من الشمال الغربى للدلتا ، تتفق مع حقائق أخرى في رأينا ، ففي حملة سنوسرت الاول ضد بلاد تحنو ، قد أحضر معه أسرى وصفوا بأنهم «هؤلاء الذين هم في أرض تحنو» ، هذا فضلا عن احضاره ماشية كان من المستحيل أن تجد ما يلزمها الا في أرض على شاطئ البحر الابيض المتوسط ، هذا ولدينا طقوس تربط بلاد تحنو بغرب الدلتا ، منها الاله «تحنوى» (أى صاحب تحنو) ، فانه يوجد ضمن آلهة أخرى من آلهة الوجه البحرى ، ويمكن توحيد بالاله «حور تحنو» الذى ذكر في مناسبات مماثلة ذكرها — فيما يرى جاردنر — «نافيل» في كتابه المسمى «قاعة العمدة»^(١٠) كما يذكر «جاردنر» أن «كيس Kees» قد وحد هذا الاله بالاله «تحنو» صاحب الذراع العالمية ، والذى ذكر عدة مرات في عهد الدولة القديمة ، وكذلك نجد الالهة «نايت» صاحبة تحنو قد ذكرت مرة •

وعند هذه النقطة — يرى جاردنر — أنه يجب أن نناقش بعض الحقائق التى دعت «زيت» وتبعه فيها «هولشر» الى أن يقترح بأن الفيوم ربما كانت في الازمنة القديمة ضمن بلاد تحنو ، فقد سجل في مناظر المعبد الجنزرى لـ «ساحورع» كلمة «بشاش» (والمعروف بـ «باخو» Ba h W) وهو اسم ، على الرغم من أنه أطلق فيما بعد على جبل يعرف بأنه الافق الشرقى لمصر ، كان في الاصل جبلا في الغرب ، وكان الاله «باخو» هو الاله «سبك» الذى يمثل في صورة تمساح ولم تكن عبادة «سبك» قاصرة على الفيوم ، بل ان قائمة ادفو العظيمة وصفته بأنه اله المقاطعة الرابعة من مصر السفلى وكذلك وصف «سبك» بأنه ابن الالهة «نايت» ، وقد عبد في المقاطعة الصاوية (نسبة الى صا الحجر) ، ومع ذلك فرغم العلاقات الوثيقة بين آلهة الدلتا وبين بلاد تحنو ، فليست لدينا براهين قاطعة على امتدادها

بعيدا الى الجنوب ، وكل ما يمكن استنتاجه مما سبق ان «تحنو» تقع في غربى مصر ، وأن تحنو الدولة القديمة ، وما فيها من آلهة مصر السفلى وما فيها من اسماء مصرية الاصل وملابس رؤسائها التى تتفق تماما مع الملابس المصرية يدل على ان بلادهم كانت تشتمل التخوم الغربية للدلتا ، أو كانت تقع على حدودها تماما .

وأما فى غزوات مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، فنلاحظ أن كلمة تحنو ، وعبرة قوم تحنو ، قد استعملت كلها فى الغالب بمعنى تقليدى مبهم ، ولكن لما كانت نقوش الكرنك المنظمة التى تركها مرنبتاح تقرر : «أن أمير ليبو قد انقض على أرض التحنو Hast nt Thnu فيمكننا أن نعتبر التعبير يدل على أن هذا الاقليم ما زال هو الملاصق للدلتا مباشرة من جهة الغرب ، ومن المحتمل أنهم كانوا دائما يعدون من أصل ليبى ، ذو بشرة بيضاء ، ويتكلمون لغة بربرية» (١١) .

وأما عن التشابه بينهم وبين المصريين ، فقد كانوا سمرا مثلهم . كما كانوا يختنون مثلهم كذلك ، وكان التحنو يعلقون فى ملابسهم ذيولا (الذيل المعلق فى الحزام) كالتى كان يعلقها الفراعين ، ويطلقون جباههم بخصلة من الشعر تحاكي صورة الصل المقدس الذى كان يتحلى به الفرعون ليحميه من شمر الاعداء اذا هاجموه ، ويذكر الدكتور سليم حسن أن «بولر» يرى أن خصلة الشعر التى تزين الجبهة هذه ، توجد كذلك عند الاحاميين الذين يسكنون جنوبى مصر ، وكذلك عند أهل كريت ، هذا فضلا عن أننا نراها حتى يومنا هذا فى شرقى آسيا وقد ظن البعض أن هذه الخصلة هى الصل نفسه ، بيد أن من ينعم النظر يجدها خصلة شعر وحسب (١٢) ، وكانوا كذلك يرتدون قرابا يضعون فيها عضو التذكير ، وهى التى لبسها مصريو عصر ما قبل التاريخ ، وهذه الخصائص كانت تميز التحنو عن الليبيين وعن التملحو كذلك (١٣) . بل انهم كانوا

11) Gardiner, A. H. Onom. I, P. 117-19.

(١٢) د . سليم حسن - مصر القديمة ج ٧ ص ٢٦ .

13) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 117.

يشبهون المصريين في الاسماء ، فمثلا «(ونى)» و «(خوتفس)» والاول اسم القائد المعروف في الاسرة السادسة ، والثانى (ومعناه : المحمى من والده) اسم كثير التداول بين الاعلام المصرية ، يضاف الى ذلك أن لفظه «(تحنو)» ترجع الى أصل مصرى بمعنى «(البراق)» (وقد تعزى الى الملابس البراقة التى يلبسها التحنو) ، ونفس الكلمة «(تحنو)» معناها كذلك زجاج أو قاشانى ، وقد استعملت لفظة «(تحنو)» لتدل على الزجاج ، كما ان كلمة «(صينى)» تدل على القاشانى المطلوب من الصين أولا^(١٤) .

وهكذا توجد أوجه شبه بين تحنو والمصريين ، مما يشير الى وجود علاقة وثيقة بين المصريين والتحنو من بعض الوجوه ، غير أن هذا التشابه لا يصل الى الملامح ، الا كما يرى ، «(ادوارد ماير)» — فيما يذكر هولشر — بأن المصريين يرجع أصلهم الى الجنس الليبى ، وهم الذين وفدوا على وادى النيل فى بادىء الامر بوصفهم صيادين ورعاة ماشية ، ثم أصبحوا فيما بعد زراعا . بل ان «(هولشر)» يرى أننا يمكننا أن نقرر أن كلمة تحنو مصرية ، ذلك لان التحنو يختلفون عن الليبيين الذين يقطنون بجوارهم ، فهم لا يتحلون بالريشة ، شعار الليبيين المميز ، وأن لهم صلة بالمصريين ، — بعكس الاقوام الاخرى — كل ذلك يوحى بأن التحنو كانوا فى الأصل — مصريين وأنهم سكنوا الوجه البصرى ، ثم هاجروا منه فى وقت ما نحو الغرب ، وسكنوا إقليم «(تحنو)» الواقع على الحدود المصرية ، حقا أنه لم يصل اليينا حتى الان أثر من بلاد الدلتا يحدثنا عن هذه السلالة من الناس ، بيد أننا فى الوقت نفسه لا نعد الاثرين الخاصين بالتحنو ، وهما أثرا الملك العقرب والملك نعرمر مجرد صدفة ، بل انهما أقيما بمناسبة انتصار الملكين على التحنو ، ذلك النصر الذى كان قبل توحيد الوجهين ، ويمكن القول أن أمير تحنو كان أميرا صغيرا بمثابة حاكم مقاطعة (حاتى عا) قد أصبح يطلق عليه أمير التحنو ، وبمرور الزمن أصبح اللقب يطلق على هذه السلالة التى هجرت موطنها الاصلى ، وقد أحيط هؤلاء القوم الجدد فى موطنهم الجديد بأقوام لهم

(١٤) د . سليم حسن : المرجع السابق ص ٢٨ .

ثقافة خاصة ، وبخاصة وانهم قد انفصلوا عن مصر وقد كانت لهم ثقافة راقية ، ولكنهم قد اخذوا من ثقافة جيرانهم الجدد في موطنهم الجديد بأقوام لهم ثقافة خاصة ، وبخاصة وانهم قد انفصلوا عن مصر وقد كانت لهم ثقافة راقية ، ولكنهم قد اخذوا من ثقافة جيرانهم الجدد ، ودليلنا وجود اسم غيرهم في نقوش «ساحورع» وهم قوم «وسا» ، وعلى الرغم من هذا الاختلاط الجديد ، فانهم قد حافظوا على شخصيتهم وتقاليدهم وملابسهم الخاصة . وأما كيس عضو التناسل واستعمالهم له فيمكن أن يعزو الى أصل ليبي ، لانه كان مستعملا منذ الازمنة السحيقة وبقى استعماله ، بينما هجر في مصر منذ وقت مبكر ، ولم يستعمل الا في الاحتفالات الدينية ، فنشاهد «زوسر» يلبسه في حفل «شوط تقديم القرمان» ، كما نجد بعض الالهة يلبسونه من وقت لآخر (١٥) .

وقد حدث تغيير في مدلول اسم «تحنو» بظهور سلالة جديدة من الليبيين يطلق عليها اسم «تمحو» ، وترينا المناظر المصورة على جدران معابد «ساحورع» و «ببى الاول» الجهود الاخيرة للتحنو في نضالهم مع التمحو ، وفي الدولة الوسطى ، نرى اسم البلاد يطلق على سكانها ، كما أصبحت كلمة الغرب تطلق على بلاد تحنو ، ومن ثم أطلق على أهل البلاد «سكان الغرب» ، بل اننا لا نستطيع أن نميزهم على وجه التأكيد بعد الاسرة الخامسة ، اذ أصبحت كلمة تحنو — فيما بعد — تدل على الليبيين ، ففي نقوش «منتوحتب» (من الاسرة الحادية عشرة) نجد أن مميزات ملابسهم قد اختفت ، واذا ما وصلنا الى الدولة الحديثة نرى الملكة حتشبسوت تذكر في قاعدة مسلتها بالاقصر ، أن الجزية من بلاد تحنو سبعمائة سن فيل ، وذلك ينطبق على بلاد نائية موقعها في الجنوب (١٦) .

- (١٥) د . سليم حسن : المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ .
 وكذا
 ASAE, 27, P. 108.
 وكذا
 JEA, 12, P. 163.
 وكذا
 L. Borchardt, Sahure, I, I, P. 50, Pl. 24.
 16) W. Holscher, Op. Cit., P.19.
 وكذا
 Urkunder, IV, P. 373.

وهكذا نجد أن لفظ تمحو في أقدم العصور كان يدل على اسم مكان ويدل على أقرب الجهات الى مصر من ناحية الغرب ، ثم تغيرت دلالاته فأصبح يطلق على اسم الاقوام الذين سكنوا في غرب مصر ، ولكن بمرور الزمن أصبح هذا اللفظ لكثرة تداوله يدل على الليبيين عموما ، ولذا فإن العودة الى استخدامه في نصوص الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين (مرنبتاح رعمسيس الثالث) الى جانب الفاظ تدل على اقوام آخرين قادمين من الغرب ، انما يوحى بأن المقصود به هنا هو الشعوب التي كانت أقرب الى مصر ، وخاصة من جهة الشمال الغربى *

(٢) التهمو :

ورد اسم التهمو في نصوص رعمسيس الثالث — كما ورد اسم تمحو — ولكنهم مختلفون عنهم تماما ، ذلك لأن التهمو قوم ذو بشرة بيضاء وشعر أشقر وعيون زرقاء ، ولا بد أن هؤلاء الذين كانوا يسكنون شمال أفريقية وصحراء ليبيا كانوا معروفين لدى المصريين قبل أن يظهر اسمهم في النصوص المصرية ، ذلك لأنه في عهد الاسرة الرابعة قد عرف أفراد ينسبون اليهم مثلوا على الاثار المصرية ، والواقع أنه قد صادفتنا حالة واحدة لم تتكرر ، وان كانت شواهد الاحوال تدل على أن هؤلاء التهمو هم الذين تتمثل فيهم الثقافة الليبية^(١٧) . أما هذه الحالة للتمحو ، فهي في مقبرة «(مرسى عنخ الثالثة)» بالجيزة ، اذ وجدت والدتها «(حتب حرس الثانية)» (ابنة خوفو) قد صورت في ثوب غير مصرى بعقدتين بارزتين على الكتف ، وتظهر ببشرة بيضاء ، وشعر أصفر براق *

وقد ذكر التهمو — لأول مرة — على الاثار المصرية في عهد بنبى الاول ، حيث ذكر «(ونى)» في لوحته المشهورة^(١٨) ببلاد تمحو Ta - Tmh كواحدة من الاماكن التي حصل منها على جنود

17) Hofscher, W., Op. Cit., P. 25.

(١٨) وجدت لوحة «ونى» بمقبرته بأبيدوس ، وهى الآن بمتحف القاهرة وتحمل رقم ١٤٣٥ ، وقد نشرت عدة مرات ، ولكن أحدث نشر لنقوشها ما قام به «ويلسون» ANET, P. 227-228.

لجيشه ، ويرى الدكتور سليم حسن أن علاقة مصر لم تكن وقتئذ وثيقة ببلاد التمحو ، ولا يمكن أن ننهم من وجود فرقة من هؤلاء التمحو في الجيش المصرى ، أنهم كانوا خاضعين للسيطرة المصرية ، ولكن من المحتمل أنه كان يوجد جزء منفصل من قوم التمحو يعملون في الجيش المصرى (١٩) .

وفى عهد الملك «مرى ان رع» خليفة بى الاول ذهب «حرخوف» شريف اليفانتين أثناء رحلته الثالثة الى «ايام» ، فوجد زعيمها ذاهبا الى «أرض تمحو» (Ta - Tmh) ، هذا وقد اعتاد التمحو أن يهاجروا الى مصر بعائلاتهم ، اما للاستقرار أو ربما للتجارة ، والمنظر المشهور فى مقبرة «خنوم حتب» من عهد أمنمحات الاول فى بنى حسن ، يصور قافلة من هؤلاء التجار ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، وفى عهد الدولة الحديثة ازدادت العلاقات بين مصر وبين القوم الذين يعيشون على الحدود الغربية ، وقد بدأوا فى تهديد أمن وادى النيل ، وقد بقيت أسماء التمحو والتحنو فى الاستعمال كأسماء جغرافية ، ولكن سادت أسماء قبيلتين أخريين من هؤلاء القوم ، هم المشوش وليبو ، وقد أعطى الآخرون اسمهم للبلاد التى سميت به حتى اليوم (٣٠) .

وأما عن موطنهم ، فيقدم لنا «جاردنر» نظريته التالية : انه من المستحيل توحيد أرض التمحو التى ذهب اليها أمير «ايام» ليشن حربا ضدها بالاقليم الشمالى الذى يحمل هذا الاسم الذى سمعنا عنه فيما بعد ، أما النظرية الجريئة التى تقترح أن أرض التمحو كانت تطلق على أى اقليم يحتله الليبيون ذو البشرة البيضاء فقد تجاوزت الحد ، فمثلا أن المد الذى ضمه «ونى» الى جيشه من أرض التمحو كانوا قد أتوا من الواحة الخارجة ، وذلك لأنهم لم يذكروا فى الفقرة الخاصة بالدلتا ،

(١٩) سليم حسن : مصر القديمة ج ٧ ص ٣٨ .

20) Fakhry, A., Op. Cit., P. 8.

ولكنهم ذكروا مع قبائل نوبية عدة ، ولكن مما يدعو الى الحيرة أن «(حرخوف)» يذكر أنه أثناء رحلته الثالثة الى «(أيام)» وجد زعيمها قد رحل الى أرض التمحو «(ليذبح التمح في ركن السماء الغربى)» ، ويبدو أن قيام رئيس قبيلة صغيرة من النوبيين بحملة الى الخارجة يعد مشروعا مستحيل الخيال ، هذا فضلا عن أن الواحة الخارجة تقع في اتجاه مغاير لموطن «(حرخوف)» في اليفنتين ، كما انها بعيدة جدا عن بلاد يام ، وعند وصوله الى هناك وجد أن رئيسها قد ذهب لمحاربة الليبيين ، الذين يتوقع الانسان بناء على ذلك أن يكونوا في مكان أبعد الى الجنوب ، ورغم ذلك فلا يوجد في هذا الاتجاه منطقة مسكونة حتى «(دنقلة)» ، كما أن واحة «(سليمة)» لا تكاد تكون في هذه المنزلة ، وحتى دنقلة لا يمكن أن تكون أرض التمحو التي كان ينشدها «(حرخوف)» أكثر من الواحة الخارجة .

واننى لأعترف أن هذه الفقرة قد هزمتنى تماما ، وأن أرض تمحو التي غزاها سنوسرت الاول — كما في قصة سنوهى — يجب أن تكون في شمال غرب الدلتا ، ومن الجائز أنها كانت تمتد غربا حتى «(طرابلس)» (أى أن أرض التمحو تمتد في شمال غرب الدلتا حتى طرابلس) ، ويلاحظ أن عبارة «(قوم تمحو)» في الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين كانت تستعمل على ما يظهر بمعنى تقليدى مهم ، في حين أن التسمية الأكثر دقة هي «(ليبوومشوش)» ، وإذا كان هناك أى فرق بين هذه العبارة ، والعبارة التقليدية (تحنو) ، فإنه ينحصر في أن أرض تحنو كانت أقرب الى أرض مصر من أرض تمحو (٢١) .

وهكذا يرى «(جاردنر)» أن بلاد التمحو تمتد على الحدود الغربية لمصر حتى طرابلس والنوبة ، غير أن سليم حسن يذكر أن «(مولر)» يعتقد أنهم كانوا يسكنون في غرب مريوط ، وعلى ذلك فهو يرى أن التمحو الذين ذكروا في قصة سنوهى قد بقى اسمهم حتى العصر الاغريقى في لفظة «(درماح)» ومنه اشتق الاسم الليبى «(دورماح — ثورناح)» ، وفي

21) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 115-6.

المصرية القديمة «اترماح»^(٢٢) ، والمواقع أن هذا الاشتقاق في ظاهره مغر ، وبخاصة عندما نعلم أن الكلمة اليونانية الأصلية «اترماح» معناها «الأزرق العينين» ، كما ذكر لنا «فروبينوس» ، غير أن هذا الاشتقاق لا يركز على قواعد علمية صحيحة^(٢٣) . والمواقع أنه لا يوجد للأن اشتقاق نطمئن إليه ، فالمكلمة تتكون من ثلاثة حروف ساكنة «تمح» (ت م ح) — كما في نقش حرخوف وقصة سنوهى — ثم نجد بعد ذلك اختلافات بسيطة في الدولة الحديثة ، فكتب تمحو في مقابر الملوك ، وفي متن الاجناس الأربعة التى كان يعتقد المصريون أن العالم مكون منها^(٢٤) — ويرى بعض المؤرخين أنها مشتقة من «تامح» أرض الشمال ، وأن رأوا أن هذا الاشتقاق غير صحيح ، وأنه اما اشتقاق عامى ، أو نوع من التورية^(٢٥) .

وأما رأى الدكتور فخرى في موطنهم فهو يختلف عن ذلك ، اذ يرى أن التمحو كانوا يعيشون في بلاد احتلها التחנו من قبل ، وربما قد عاش الشعبان في نفس الوقت جنباً الى جنب ، ولكن التחנו قد فقدوا كيانهم ، وسرعان ما اندمجوا مع غزاتهم التمحو ، وليست هناك حاجة الى أن نفترض أن التمحو قد عاشوا فقط في الجنوب ، ذلك لأنهم في الحقيقة قد شغلوا كل اقليم التחנו ، وربما الشاطئ ، وقد تجولت بعض قبائلهم نحو الجنوب واحتلوا الواحات الخصيبة حتى دارفور^(٢٦) ، وهذا ما يميل اليه الباحث .

وأما عن أصل التمحو . وهل هم مواطنون أفريقيون ، أم مهاجرون من قارة أخرى ؟ فهناك نظريتان ، أما الاولى ، فقد نادى بها — كما

(٢٢) د . سليم حسن : المرجع السابق ص ٦٣ .

23) Holscher, W., Op. Cit., P. 50.

(٢٤) كان المصريون القدامى يعتقدون أن العالم يتكون من أربعة اجناس هي : «رمث» (المصريون) و «العامو» (الاسيويون) و «النحسيو» (النوبيون أو السودانيون) ، «التمحو» (سكان الغرب) أو «الليبيون» .
(٢٥) د . سليم حسن : المرجع السابق ص ٦٤ .

26) Fakhry, A., Op. Cit., P. 7.

يذكر سليم حسن - «مولر» وقبلها «زيت» و «بيت» وتري أن سلالة التمدد ذو البشرة البيضاء ينتسبون الى قبائل البربر القاطنين في شمال افريقية وأنهم لا صلة لهم بسلالة تحنو ذو البشرة السمراء ، وأن التمدد ليسوا فرعا من التحنو ، كما أن التحنو ليسوا فرعا من التمدد (٢٧) - وأنهم قد اتوا من أوروبا الى شمال افريقية ، ثم تجولوا على طول الشاطئ ، ثم توغوا الى الجنوب ، ونحن نعرف أن هذا قد حدث عدة مرات في العصور التاريخية ، وأنهم ينحدرون من قبائل الموندال (Vandals) أو أى جنس شمالي (Nordic) آخر (٢٨) • ولـسكن هناك من يرى أن نسبة التمدد الى لىي شمال افريقية الاخرين لا يتركز على أساس متين ، وأن ما اتخذه «مولر» ليبرهن به على أن متبرة بنى حسن - وان لم تذكر كلمة لىيين - كانوا من التمدد معتمدا في ذلك على صورة وجددهما في الدبر البحرى وقد كتب عليها «رقص التمدد» فيمكن أن تتخذ دليلا ضده لا له ، اذ أن هؤلاء الراقصين مصريون ، ويمثلون رقصة هؤلاء القوم فحسب ، هذا فضلا عن أن أوجه الشبه بين اللبيين المثلين في مقبرة خنوم حتب وبين هؤلاء الراقصين ضعيف جدا ، وبخاصة اذا لاحظنا أن أول ظهورهم في العهد الاغريقى يختلف عن الصور القديمة اختلافا بينا ، ولا يصح أن نجزم بالقول بأن لىي متبرة «خنوم حتب» هم من التمدد ، اذ أن الموضوع لا يزال مفتوحا (٢٩) •

(٢٧) د . سليم حسن : مصر القديمة ج ٧ ص ٤١ •

(28) Fakhry, A. Op. Cit., P. 7.

(٢٩) د . سليم حسن : المرجع السابق ص ٤٣ ، ٤٤ وكذا

Moller, Die Agypter und ihr Libyschen Nachbarn P. 45, Note. I.

W. Holscher, Op. Cit., P. 30.

وكذا

L. D, III, 136 d.

وكذا

وهناك نظرية أخرى ترى أن قوم «مجموعة C»^(٣٠) النوبيين فرع من التتمحو ، وقد استمدت على أنها تظهر صلة بين الثقافة الأوروبية والأفريقية عن طريق التتمحو^(٣١) ، ذلك أن الرحالة «نيوبلد» قام برحلة في صيف ١٩٢٣م إلى «وادي هوى Wadi Howa» كما قام بمثلها غيره ، وقد عثروا في «وادي هوى»^(٣٢) هذا ، على فخار يشبه فخار «مجموعة C» التي كشف عنها «ريزنر» وغيره في بلدة «كرما» وغيرها من بلاد النوبة ، ثم بدأ العلماء يربطون بين الاثنين وقد كتب الاثري «باتس Bates» عن مجموعة C في الصحراء الغربية ، وقال : «ان وجود الفخار هناك يعزى إلى قبيلة من أصل ليبي هاجرت إلى هناك ، ويرى أنها من قوم «تتمحو» ، معتمدا في ذلك - كما يذكر سليم حسن - على التشابه بين الجماجم التي وجدت في مقابر مجموعة C والتي وجدت في المقابر الميجالينية في شمال أفريقية ، ويذكر سليم حسن كذلك ، أن «هولشر» قد عارض هذا الرأي ببعض البراهين ، منها أنه يمكن تحديد تاريخ المجموعة C من أواخر الأسرة السادسة حتى الأسرة الثامنة عشرة وهذه الفترة تعد العصر الذهبي في تاريخ قوم التتمحو .

ويبدو أن التتمحو قد سلكوا طريقهم من الجنوب الغربي للصحراء متجهين نحو الشمال ، يؤكد ذلك ما عثر عليه في وادي هوى من فخار يشبه فخار المجموعة C ، هذا إلى أن فخار المجموعة C هذا لا توجد أوان سابقة له بل ظهر فجأة في بلاد النوبة ، مما أوجد احتمال غزو أجنبي ولكننا نجد في منطقة مجاورة أوان مماثلة ، وربما كانت معاصرة ، وان كان لا يوجد شيء بجوارها . ويحتمل أنها ليست في موطنها الأصلي ، بل هي في المواقع محطة في طريق المهاجرين أو الجالين للفخار النوبي ، وهكذا يعتبر فخار وادي هوى أنه كان في طريق هجرة

(٣٠) يؤرخ عصر حضارة المجموعة (C) أو الثالثة بالفترة (٢٤٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) بينما يؤرخ عصر المجموعة الثانية بالفترة (٢٩٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م) والاولى بالفترة (٥٠٠٠ - ٢٩٠٠ ق.م) .

31) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 7.

(٣٢) يقع وادي هوى على مسافة ٤٠٠ كيلا جنوب غرب الشلال الثالث .

التمحو ، وهكذا نصل الى ان هناك صلة بين التمحو — وهم سكان شمال أفريقيا الشقر — وبين هذه الالوانى الفخارية ، والان وقد عرفنا أن الفخار المصرى كانت به زخرفة أجنبية غائرة ، ومن ثم نصل الى الموطن المحتمل للتمحو ، والذي يعتقد انه ، اما أوروبا أو اقليم البحر الابيض المتوسط ، وذلك لأن الفخار المصرى فوق أنه يمتاز بزخرفة خاصة وهى التلوين بوضع طبقة من الدهان ، كان يفضل من جهة أخرى فخار البحر الابيض المتوسط ، وكذلك غربى وشمال أوروبا فى عهد ما قبل التاريخ بسبب الزخرفة المحرزة * والواقع ان هناك صلة مذهشة من حيث الشكل والزينة بين هذا النوع من الزخرفة وبين الزخرفة الافريقية لا يمكن أن تكون مجرد صدفة أو توافق افكار ، ولاشك أنه توجد هنا روابط عظيمة قديمة لها أهميتها وضرورتها البالغة ، لأنها تجعلنا نطل على دور لعبة هؤلاء القوم فى حالات خاصة ليس فى الثقافة المصرية فحسب ، بل كذلك فى اقامة مبانيها (٣٣) .

(٣) المشواش :

المشوش أو المشواش Meshwesh احدى الشعوب التى ذكرت فى نصوص رعمسيس الثالث ، وهم قوم ليبيون ، وحدهم «بروكش» — كما يذكر جاردنر — بقوم «الماساى» والذين قال عنهم «بروكش» — كما يذكر جاردنر — يقوم «الماساى» والذين قال عنهم «هيودوت» (٤ : ١٩١) انهم فى مجاورات تونس (٣٤) ، وهم يكونون احدى القبيلتين الهامتين — المشوش والليبيين — فى البلاد التى أصبحت تعرف باسم «ليبيا» بصفة عامة ، وأن هناك أشياء كثيرة مشتركة بين الليبيين والمشوش مما يثبت أنهما كانا من نفس الجنس ، ولكنهم يختلفون فى تفصيلات جـوهريّة ، منها أن الليبيو كانوا لا يستعملون كيس عضو التناسل ، وأنهم كانوا لا يختنون ، ولهذا السبب فقد كانوا يعتبرون دنسين ، بينما استعمل المشوش كيس عضو التناسل ، كما كانوا يختنون وان كان «وينرايت» يرى غير ذلك لأن رعمسيس الثالث فعل معهم ما

(٣٣) د. سليم حسن مصر القديمة ج ٧ ص ٦٥ ، ٧٤ .

34) Gardiner, A. H. Onomastica, I P. 119.

فعله مع الليبو ، اذ قطع غلفهم وأيديهم كذلك ، هذا الى أن مرنبتاح يقرر في مناسبات ، عدة أن عضو التذكير الليبي كان بغلف ، وهذا يعنى أنهم كانوا غير مختونين ، ومن هنا فيجب أن نأخذ على أن المشوش كانوا كذلك غير مختونين ، وهكذا فان اختلاف الملابس بينهم وبين ليبو كانت مجرد نوع من الطراز . وان قرر بعد ذلك أنه ليست هناك صلات جنسية أو جسدية ، وهكذا فان المشوش لبييون بالكاد — بقدر ما يذهب اليه دليلنا — وقد أتى ذلك تحت تأثيرات هامة من شعوب البحر ، منها استعمال السيف الطويل ، ومنها استعمال اشارة لابعاد الشر (Apotropaic sign) ، وذلك بالاشارة بباليدي في هيئة القرن في وجهه الاعداء (Manu Cornuta) ، وهذه المقابلة بين المشوش والشماليين تميز المشوش عن الليبيين الاخرين .

ويناقش «وينرايت» بعد ذلك هذه المقابلة أو المشابهة ، فأما عن السيف الطويلة ، فيرى أنهم قد حصلوا عليها بطريقة ما ، وبأعداد كثيرة ميزتهم عن أسرى مرنبتاح الاخرين ، حتى أن هذه الاسلحة قد احتلت المكان الاول بين غنائمه ، كما وصفها كذلك رعمسيس الثالث في قائمة أسلحه التي غنمها من المشوش ، ويبدو أن المشوش قد حصلوا على السيف الطويلة من أقوام أكثر منهم حضارة ، ذلك لأنهم أنفسهم كانوا مجرد رعاة ، وربما قد حصلوا عليها من قرصان البحر — كما يذكر باتس Bates وهولشر — ذلك لان بعض شعوب البحر — وبخاصة الفلسطينيين والشردان — قد حملوها كذلك ، وان رأى «باتس» بعد ذلك أن المشوش قد حصلوا على السيف الطويلة من الخارج ، لأنهم أنفسهم لا يستطيعون صنعها بسبب ندرة التكوينات المعدنية في أوطانهم .

وهكذا فان المشوش لم يكونوا قادرين على صنع أسلحة جديدة ، بل ولا حتى على اصلاح القديم منها ، ودليلنا على ذلك الاسلحة القليلة التي حصل عليها رعمسيس الثالث منهم ، بعكس العدد الكبير الذي حصل عليه مرنبتاح ، اذ أنه قد حصل على ٢٣٩ سيفاً من عدد القتلى ٣٨٨٦ من المشوش أى بنسبة حوالى ١ : ١٥ محارب ، وربما يفيد ذلك أن الغزو في عهد رعمسيس الثالث كان أقل منه في عهد مرنبتاح وأن

عدد السيوف التى يمكن أن يحصل عليها من المشوش فى هجومهم الاخير
كان أقل مما كان منذ ٦٠ سنة مضت *

وأما الوسيلة الاخرى التى يتشابه فيها المشوش مع شعوب البحر
فهى الاشارة باليد فى هيئة القرن فى وجه الاعداء (Manu Cornuta)
وقد كان أول من استعملها رجل يدعى «تحنسو» ويلبس ملابس تحنو
القديمة ، «ومششر» زعيم المشوش فى عهد رعمسيس الثالث ، وان كان
ليس لدينا دليل على أن تحنسو الدولة القديمة قد استعملوها ، وانما
تقابلنا هذه الاشارة أول مرة فى عهد سبتى الاول ، ثم عملت مرتين ضد
رعمسيس الثانى ، وهكذا يظهر المشوش فى التاريخ قبيل عهد رعمسيس
الثانى وأثنائه^(٣٥) — وان رأى «سير ألن جاردنر» أن ذكرهم قد جاء
لأول مرة فى عهد الملك أمنحتب الثالث^(٣٦) — هذا وقد كانت هذه الاشارة
تعمل اما بابهام اليد والاصابع الامامية، واما بالابهام والأصبع الصغير*
وربما ترجع اشارة الاصبع والابهام الى عادة صيد عرفت منذ الاسرة
الخامسة ، حيث يشير الصياد بأصبع واحدة على أسد يمسك ثورا ، وعلى
آية حال فربما استعمل اللبيو — الذين يشبهون المشوش — هذه الاشارة،
هذا الى أن الفلسطينيين كانوا أول شعوب البحر الذين استعملوها ، وان
كنا لا نعرف ان كان أقوام «اقوش وتيرش ولوكسا وشيكلش» الذين
هاجموا مرنبتاح مع المشوش قد استعملوا هذه الاشارة ، وان كان من
الموضح أن الشردان الذين أتوا معهم لم يستعملوها ، ولكن الفلسطينيين
ليست لهم أية علاقة بالمشوش ، فهم لم يهاجموا مرنبتاح أو رعمسيس
الثالث مع المشوش أو اللبيو ، انهم غزاة مختلفون تماما هاجموا
رعمسيس الثالث فى سنته الثامنة مع أقوام آخرين من الشرق وليس
من الغرب ، كما أن أحدهم كان يشير بالاصبع الامامية المفردة ، ولم
يكن يشبه فى ذلك المشوش ، وانما كان يشبه صائد الاسرة الخامسة

35) Wainwright, G. A. The Meshwesh, in JEA, 48, 1962 P. 89.

36) Gardiner, A. H. Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 283.

المذكور أعلاه ، كما أن الفلسطينيين يبدو أنهم قد علموا هذه الاشارة الى بعض الاموريين والحيثيين •

وأما عن شكل اسم المشوش ، فيرى «وينرايت» انه ينتهى بـ «شا» Sha ككثير من أسماء الشماليين مثل اقوش وتيرش وشيكلش ، وهكذا يبدو أن مشوش ينتمون الى نفس المجموعة ، ولكن ثبت أن هذه المشابهة مجرد صدفة ، فملا بسهم وطنية ، كما أن «باتس» — كما يذكر وينرايت — يقرر أن اسم مشوش أو بالاحرى «مشو» هو شكل شائع عند البربر ، ثم يرى «وينرايت» بعد ذلك أن «شا» Sha لا يمكن أن تشتق من القبائل الاسيوية ، لأنها كانت مستعملة لمدة ١٥٠ سنة قبل أن تظهر شعوب البحر في افريقيا في عهد مرنبتاح ذلك لأن أمنتب الثالث قد استعمل الاسم في سنته الرابعة والثلاثين ، أى في عام ١٣٧٤ ق م (٣٧) • ومن هنا فان المباحث يميل الى أن المشوش من الليبيين — وليسوا من شعوب البحر — •

وأما عن علاقتهم بمصر ، فقد عرف اسمهم منذ عهد أمنتب الثالث — كما ذكرنا آنفاً — الا أنهم يذكرون بصراحة منذ عهد رعمسيس الثانى ، ورغم أنهم هم الذين كان يعينهم سبتى الاول في حروبه الليبية ، فانه سماهم بالتحنو • وان لم يسلحوا بالسيوف الطويلة في هذه الحرب ، ولم يحملوا اسم «مشوش» الا في عهد رعمسيس الثانى حيث ذكروا مع الشردان وقهق والنوبيين ، وربما كانوا يؤلفون فرقة في الجيش المصرى ، وربما حدثت حروب ليبية أخذ فيها المشوش أسرى ، أما في عهد مرنبتاح ورعمسيس الثالث فقد اشتروا مع الليبيين وغيرهم في الهجوم عليها ، الا أنهم لعبوا دورا رئيسيا في حرب رعمسيس الثالث الليبية الثانية ، حتى أن «وينرايت» ليرى أن حروب سبتى الاول ورعمسيس الثالث في سنته الحادية عشرة قد سميت بالحرب الليبية ، رغم أنها كانت ضد المشوش وليست ضد الليبيين ، بل انه يرى أن

37) Wainwright, G. A., Op. Cit., P. 99.

الليبيين لم يظهروا بالمرّة في عهد سبتي الاول^(٣٨) (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م).^{*}

لقد استطاع رمسيس الثالث أن يسحق هجوم القبائل الليبية التي هاجمت حدوده الغربية ، إلا أن ذلك النصر لم يمنع المشوش من أن يأتوا الى مصر مسلمين هذه المرة ، ثم وضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرعون ، وانضم كثير منهم الى الجيش كمرتزقة ، إلا أن قلة الحروب في الاسرة العشرين بعد عهد رمسيس الثالث ، وعدم توفر المال اللازم لدفع أجورهم ، بجانب وجود فراعين ضعاف على العرش المصري ، كل ذلك قوى من نفوذ هؤلاء الاجانب ، بمرور الزمن أصبح هؤلاء الذين أتوا الى أرض الكنانة يطلبون الرزق مثار قلق واضطراب ، حتى أننا أصبحنا نرى «العمال قد توقفوا عن العمل بسبب الخوف الذي أصابهم من المشوش» ، كما اننا نرى عمال الجبانة يكتبون الى الوزير محذرين بأن «المشوش قد أتوا الى طيبة»^(٣٩) .

ولكن العلاقات لم تكن دائماً عدائية مع هؤلاء المشوش (كما سنفصل ذلك في الباب التالي) حتى أن جماعة منهم قد أقامت في هيراكليون بوليس التي لا تبعد كثيراً عن مدخل الفيوم ، وسيكون منهم ذلك الزعيم الذي سيعتلى عرش الفراعنة باسم شيشنق مؤسس الاسرة الثانية والعشرين^(٤٠) ، والذي كان قبل وصوله العرش يحمل لقب «رئيس المشواش العظيم» وهي تسميه ترجع في أصلها — فيما يرى الدكتور الناضورى — الى منطقة شط الجريد جنوب قرطاج (تونس)^(٤١) ، ومن ثم نجد كثيراً من الامراء الصغار يحملون هذا اللقب (أمير) ، مستعملين اما الكلمة المصرية (ور — Wr) أو الكلمة الليبية (مس Ms) ، وغالبا

38) Ibid., P. 89.

39) Wilson, J., AJSL, LI P. 81.

40) Cerny, G. Egypt from the death of Ramesses III to the end of 21 dynasty. P. 16.

(٤١) د. رشيد الناضورى المغرب الكبير ج ١ ص ٢٢٤ .

ما يكتبون كلمة «مشوش» باختصار «مي M = Me» ثم استقر المشوش في الاسرة الثانية والعشرين في الواحة الداخلة ، وفي داخل مصر كذلك ، وأحدث اشارة وجدت على لوحة «بعنخي» حيث نجد على الاقل ستة من أمراء «مي» قد ذكروا كحكام لمدن مختلفة منها أبو صير ومنديس (٤٢) .

(٤) الليبيون :

ليبو Libu أو «ريب Rb» احدى الشعوب الغربية التي ذكرت في نصوص رعمسيس الثالث ، والكلمة مصرية تعنى كلا من الارض والشعب ، ومن الواضح أنها تشير الى قبيلة خاصة في شمال أفريقيا تعيش على مسافة كبيرة من مصر ، وعند الكتاب الاغريق الاوائل ، فان «ليبو» (ليبيا) لم تعد اسما لمنطقة خاصة ، وانما تدل على كل شمال افريقيا غرب النيل وأما اقدم ذكر لهم فكان من عهد رعمسيس الثاني (٤٣) (١٢٩٠ - ١٢٣٤ ق.م) .

وبدأ الليبيون يلعبون دورا هاما بعد ذلك في التاريخ المصري ، فقد اشتركوا في الحروب ضد مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، وكان أميرهم محرزا للحروب التي لعب المشوش وشعوب البحر فيها دورا هاما ثم استطاعوا - بعد حروب رعمسيس الثالث - أن يتسللوا الى البلاد وأن يحتل بعضهم مراكز هامة فيها حتى رأينا أحد المتهمين في مؤامرة الحرير ضد رعمسيس الثالث كان من قوم ريبو ، وأنه كان يعمل حاجبا في القصر الفرعوني ، ثم زاد عددهم في البلاد ، وشاركوا في كثير من الاحداث التي شارك المشوش فيها ، وهكذا يبدو أن الحدود الغربية ربما تركت مفتوحة نسبيا بعد حروب رعمسيس الثالث ، حتى «أصبحنا بعد ثلاثين سنة من موته نرى الليبيين يتجولون بمصر في جماعات للسلب» ويسرد دفتر يومية العمال في الجبانة الملكية بغرب طيبة عدة أيام كان

42) Gardiner, A. H. Onom. I, P. 120.

43) Ibid., P. 121.

المعمل معطلا فيها «بسبب رييو» وحينما كانت أتى هذه القبائل الى المعاصمة كانت تسبب الاضطرابات ، وتقضى على الامن فيها(٤٤) . ويبدو أن ذكر الليبيين أصبح نادرا بعد الاسرة الحادية والعشرين ، فلم نر ذكرهم الا في مثال على لوحة الامير الليبي الذي كان أميراً من المشوش ، وفي مثال آخر من عهد شيشنق الرابع ، وفي مثال ثالث عن أمير من نفس العهد يدعى «عنخ حر» ، وهكذا فانه من غير الواضح لنا : من أين أتى الكتاب الاغريق الاول بالاسم ، ثم أعطوه المعنى الواسع ، وربما تعلموه من الليبيين أنفسهم(٤٥) .

وقد صور الليبيون في مقبرة سيتى الاول ، بأنهم كانوا يلبسون ثوبا ضيقا طويلا مفتوحا من الجانب ، مغطيا الكتف اليمنى تاركاً الذراع اليسرى عارية ، وهذا الثوب أبيض اللون ومزخرف بمشبك من نماذج مختلفة من الجانب المعلق ، وفي شعورهم ريشتان ، وللرجل دقن صغيرة وشارب كامل ، وأما صفاتهم المميزة لظهورهم العام ، فبشرة بيضاء وشعر أحمر وعيون زرقاء ، هذا وقد وشم الذراع والساق ، كما أنهم لبسوا النقبة بدل كيس عضو التناسل ، كما كانوا غير مخفونين .

وأما عن اسطلتهم فيرى هولشر — كما يذكر سليم حسن — أن الليبي لم يعرف سوى القوس والنشاب ، غير أن أقواسهم ليست بالأقواس الخشبية البسيطة ، ولكنها كانت أقواسا مركبة وتظهر المناظر انها كانت من نوع يطلق عليه «القوس ذو الزاوية» ولم نجد في صور المواقع الحربية ليبيا واحدا قد شد قوسه ليضرب به ، بل نجد قوسه ملقى على الارض أو معلقا على كتفه أو ممسكا به في يده ومطلقا لساقبه العنان ، ولذا لم نجد السهم مركبا في القوس ، ولا نستطيع الحكم على ضرورة السهم عند الليبيين ، ولكن ينبغي علينا أن نعتقد أن السهم كان مصنوعا من حجر النار وانه كان ذا أسنان ، وبخاصة أننا صادفنا بهذه

44) Wilson, J. Op. Cit., P. 81-82.

45) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 122.

الصورة فيما بعد^(٤٦) . كما نشاهد عدة صور للكثانة وهي على هيئة قربة ، فالقوس هو السلاح الوحيد الوطنى الذى ظل الليبى يستعمله ، كما أنه سلاحه الوحيد البعيد المرمى ، ولم يعثر فى أيدي الليبيين المحاربين — طبا للرسم — على الرمح أو الحربة ، وقد ترجم برستد كلمة «(خت عا)» بكلمة حربة ، وهذا خطأ ، ويحتمل أن الترجمة الحقيقية عصا رماية ، وذلك لأن نقوش الدولة الحديثة لم تظهر فيها هذه الكلمة بوصفها سلاح حرب ، بينما نجد أن ليبى «(مقبرة خنوم)» كانوا يحملون عصا رماية فى شعائر الالهة «(موت)» كان التمثيل يستعملونها سلاح صيد ، وهناك كان يطلق عليه لفظ «(قما)»^(٤٧) هذا وقد استعمل الليبيون ، فى عهد رعمسيس الثالث المعريات ، فقد غنم منهم ٩٢ عربة ، وكانت عرباتهم تشبه العربات المصرية ، الا أن عجالاتهم لها أربع شوكات بدلا من ست فى العربة المصرية حينئذ ، ومن هنا فلا بد أن نسلم بأن الليبى قد أخذ استعمال العربة عن المصرى^(٤٨) .

وأما شعوب «(الاسبات والمقايش والشايتب والهاسا والبقان)» ، والتي جاء ذكرها فى نص السنة الحادية عشرة والتي تخص الحرب الليبية الثانية «(فيبدو أن اللغة المياضة التى تضم الكثير من الكلمات الاجنبية غير المعروفة التى يلجأ اليها رعمسيس الثالث كثيرا^(٤٩))» هى السبب فى ذكر هذه الشعوب التى لا تعنى سوى أسماء غير معروفة لنا على الاقل .

(٥) قهق KhK

لم يذكر قوم قهق فى نصوص رعمسيس الثالث التاريخية ، وانما ذكروا فى نصوص مرنبتاح ، ولعل الذى دفعنا الى ذكرهم هنا هو هذا السبب . بالاضافة الى ذكرهم فى بردية هاريس .

وهناك اتفاق عام على ان «(قهق)» هى المنطقة التى احضر منها

46) Holscher, W. Op. Cit., P. 39.

47) Ibid., P. 39.

(٤٨) د . سليم حسن المرجع السابق ، ص ٥٣ .

49) Gardiner, A. H. EP., P. 287.

«أحمس بن نخبت» في عهد أمنحتب الاول أسلaba، وتعد أرضا يحتمل أنها في النوبة ، وعلى ذلك فإن ما جاء في بردية انستاسى الاولى من ذكر المشردان والقهق والمشوش والنوبيين بوصفهم فرقا في الجيش المصرى يعد أقدم اشارة لهم ، وقد ذكر القهق في سجلات مرنبتاح مع اللويس بوصفهم أسرى ، كما نجد ذكرهم مع المشردان في بردية هاريس بوصفهم محاربين في الجيش المصرى ، وقد ذكروا في نفس البردية على أنهم كانوا يعيشون فى أمان فى بلاد ملكهم ، هذا وليس هناك ما يبرر أنهم ليعييون سوى ذكرهم فى سجلات مرنبتاح ، وهناك فى متحف تورين بعض النصوص التى يقال انها كتبت بلغة القهق فى متن سحرى⁽⁵⁰⁾ .

50) Gardiner, A. H. Onom I, P. 123.

الباب الثالث

علاقات مصر بالشمال الافريقى (ليبيا)

الفصل الأول

علاقات مصر بالشمال الإفريقي فيما قبل عصر الدولة الحديثة

(١) تقديم:

لعل من الأفضل هنا — بادئ ذي بدء — أن نشير الى عدة أمور ، منها (أولاً) أن المدلول الجغرافى لأسماء الاقاليم والدول لم يكن في العصور القديمة — موضوع الدراسة — محدداً بوضوح ، كما هو الحال في أيامنا هذه ، وانما كانت البلاد تسمى غالباً باسم الشعب الذي يسكنها ، ومنها (ثانياً) أن مصر لم يكن يفصلها عن جيرانها في المغرب حدود واضحة — كما هي الحال الآن — ذلك لأن الرقعة الغربية من مصر انما تكاد تكون صحراء تماماً ، ولكن علينا أن نقدر مدى الجفاف الذي حل بها خلال الخمسة آلاف عام الماضية ، وعلى أية حال ، فلقد كان هناك على طول البحر المتوسط اقليم مأهول بالسكان ، تشغل جانباً منه المراعى ، وتشغل جانباً آخر منه أرضين صالحة للزراعة ، كانت موطناً للبليخ ذوى الشعور الحمراء ، والعيون الزرقاء ، الذين — متابعين منا للاغريق — نعرف أنهم «الليبيون» ، وهذه التسمية في الواقع تسمية غير صحيحة ، ولا تتماشى مع تسلسل الاحداث ، ذلك لأن القبيلة المعروفة المشهورة باسم «الليبو» سمع عنها ، لأول مرة ، في عصر «مرنبتاح» (حوالى عام ١٢٢٥ ق.م) ، حين قامت على رأس حلف من الغزاة ، الذين قدموا من اقليم أبعد غرباً ، ونستطيع أن نميز في العصور الاقدم مجموعتين ، هما «اتحنو» و «تمحو» ، وتشبه الاولى منها المصريين — جنساً وثقافة — وان كانوا يعتبرون دائماً كأنما هم أجنب (١) ، وقد قدمنا في الباب السابق دراسة شبه متكاملة عن هذه الشعوب .

1) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 43-35.

ومنها (ثالثا) أن تسمية «ليبيا» انما جاءت من اسم القبيلة المشهورة «الليو» (ريو = ريب) ، وكانت تعيش في شمال أفريقيا على مسافة كبيرة من مصر ، ثم نقل الاغريق الالوانث هذه التسمية ، وان استخدموها لتدل على شمال أفريقيا غرب النيل ، ومن هنا رأينا «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) انما يذهب الى أن ليبيا تقع غرب النيل ، وتمتد حتى المحيط الاطلسي ، وتحددها جنوبا أثيوبيا^(٢) ، كما يذهب الى أن ليبيا يحيط بها البحر من جميع الجهات ، الا من جهة اتصالها بآسيا^(٣) ، ومن ثم فقد كانت ليبيا عند الجغرافيين المقدامي قارة بذاتها ، ولم يظهر اسم «أفريقيا» الا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وهو نسبة الى قبيلة «افرى» التي تقطن جنوب تونس^(٤) .

وهكذا ، وطبقا لما جاء في كتابات هيرودوت — فان ليبيا انما تشمل كل شمال أفريقيا الى الغرب من مصر ، ومن ثم فقد حدد مكان سكنى «المشواش» — احدى القبائل الليبية — والذين أطلق عليهم اسم «ماكسييس» (الماكسيون) بجوار تونس^(٥) ، كما أنه حدد سواحل ليبيا الشمالية بأنها تطل على البحر الشمالى (البحر المتوسط) ابتداء من مصر، وحتى رأس سولون^(٦) ، وأكبر الظن — فيما يرى الدكتور أحمد بدوى — أن «رأس سولون» هنا انما المقصود به تلك المنطقة الصخرية من ساحل أفريقيا الغربى ، وهى التى عرفت فيما بعد باسم Spartel وان كان بعضهم يظن أن المقصود بها الصخور المعروفة باسم (Cantin) (٧) .

ومنها (رابعا) أنه — طبقا لدراسة «كابار» للصفات السلالية

-
- 2) Oric Bates, The Eastern Libyans, London, 1970, P. 51.
 - 3) Herodotus, IV, 254-255.
 - 4) P. E. Berry, The Tehenu, Obive land, in Ancient Egypt, 1915, P. 98.
 - 5) A. Gardner, Op. Cit., P. 283.
 - (٦). هيرودوت يتحدث عن مصر . ترجمة محمد صقر خفاجة — تقديم وشرح أحمد بدوى — القاهرة ١٩٦٦ ص ١١١ - ١١٢ .
 - (٧) أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١١٢ ، هامش ١ .

(الاثنية) لليبيين القدامى — فقد كانوا يسكنون شمال أفريقيا بأسماء مختلفة ، منها البربر والقبائل Kabyles والشاوية والطوارق والجوانشيين ، من صفاتهم الجبهة العالية والجمجمة المرتفعة والأنف المعقوف والشعر المفلفل والبشرة الببيضاء والعيون الزرقاء واللحية المدببة^(٨) ، ومنها (خامسا) أن «شارل أندريه جوليان» انما يذهب الى أن أصل قبيلة «رييو» يمكن أن يكون من جيل الاطلسى المصحراوى فى شمال أفريقيا ، حيث يسكن حاليا «الشاوية» ، وأن أسماء زعماء «رييو» انما تشبه كثيرا أسماء النوميديين الى حد كبير^(٩) .

(٢) فى عصور ما قبل التاريخ :

لا ريب فى أن هناك علاقة ما بين مصر والشمال الافريقى فى عصور ما قبل التاريخ — كما رأينا من قبل فى الباب الاول — وخاصة فى مرحلة الحضارتين — العاترية والقفصية — من العصر الحجري القديم ، الامر كذلك بالنسبة الى مرحلة العصر الحجري الحديث فى المغرب ، الامر الذى فصلناه من قبل فى الباب الاول كذلك ، ورأينا بوضوح كيف أثرت مصر فى المغرب القديم ، كما تأثرت به ، وأعطته الكثير من عناصر الحضارة ، كما أخذت عنه أيضا .

(٣) فى عصر ما قبل الاسرات :

كانت مصر فى العصرين — الحجري القديم والحديث — فى مستوى حضارى يعادل ، وربما يتفوق قليلا أو كثيرا على مستواه فى كثير من بلدان العالم القديم ، غير أن مصر سرعان ما انفردت بعد ذلك بالتفوق الحضارى والخصوصية الثقافية ، ومهدت للحضارة العظيمة التى ظهرت فى عصر الاسرات ، ومن ثم فان مصر توضع فى هذه الفترة فى مرحلة

8) M. Kapart, le Prehistorique Egyptien, Bruxelles, 1904, P. 6.

9) C. A. Julien, Histoire de L'Afrique Du Nord., Paris, 1957, P. 54.

وأما النوميديون : فهم سكان المغرب القديم أثناء حكم القرطاجيين فى شمال أفريقيا ، وقد كون هؤلاء البربر ممالك نوميديية ، منها مملكة نوميديا الشرقية ، وعاصمتها «سرتة» (Cirta) ، وهى قسنطينة الحالية فى الجزائر (أم الخير العقون : المرجع السابق ص ١٢٦) .

حضارية خاصة بها ، أطلق عليها «عصر ما قبل الاسرات» ، وتقابل بداية عصر استخدام المعادن في مناطق الشرق الادنى القديم الاخرى ، ففي هذه الفترة التزم المصريون الوادى بصفة نهائية ، وزادت عنايتهم بحرف الاستقرار — وخاصة الزراعة — ومن ثم فقد زادت عنايتهم بملكية الارض ، مما أدى في نهاية الامر الى قيام الوحدات الاقليمية ، التى انتهت بوحدة سياسية مستقلة في الصعيد ، عرفت بمملكة الصعيد ، واتخذت من «نخن» (البصيلية — مركز ادفو — محافظة أسوان) عاصمة لها ، وأخرى في الدلتا ، عرفت بمملكة الدلتا ، واتخذت من «بى» (تل الفراعين — مركز دسوق — محافظة كفر الشيخ) عاصمة لها ، كما تميز عصر ما قبل الاسرات كذلك باستخدام المعادن ، وكان النحاس هو الذى استخدم طوال هذا العصر *

وهكذا يمكن القول ، أن انسان العصر الحجري الحديث ، ان كان قد شهد مولد حضارة جديدة ، قد أسست دعائمها على الاستقرار ، وابتكار الزراعة ، واستئناس الحيوان ، وتشديد أول مسكن ، وانشاء أول قرية ، فقد شهد انسان عصر ما قبل الاسرات مرحلة حاسمة في تاريخ الحضارة المصرية ، تخطى خلالها أكثر العقبات التى كانت تقف في سبيل تقدمه ، وأرسى قواعد الحضارة التاريخية التى أعقبتها ، ومهد الطريق لقيام أول وحدة سياسية عرفها تاريخ البشرية ، فقد عرفت حضارة ما قبل الاسرات استخدام النحاس والكتابة ، وتميزت بقيام المدن ، وتقوية الصلات بالاقطار المجاورة ، وظهور الوحدات الاقليمية ، وقيام الممالك المحلية ، واختفاء نظام العشائر (١٠) *

هذا وقد قام جدل طويل بين العلماء حول منشأ حضارة عصر ما قبل الاسرات (وتمثلها في الصعيد حضارات : العمرة وجبرزة والسماينة ، وفى الدلتا : حضارات حلوان الثانية والمعادى) (١١) ، فذهب فريق الى

(١٠) مصطفى عامر : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى — حضارات عصر ما قبل التاريخ — القاهرة ١٩٦٢ ص ٥٨ .
(١١) أنظر عن حضارات عصر ما قبل الاسرات في مصر (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧٥ — ٢٩١)

أنها لم تنشأ في الصعيد ، وإنما أتى بها قوم من جنوب بلاد العرب ، عبر البحر الأحمر ، وليس عن طريق برزخ السويس^(١٢) ، على أن هناك وجهها آخر للنظر يذهب إلى أن أصحاب هذه الحضارة ، إنما قد أتوا من الجهات الواقعة ، فيما بين الوادى والبحر الأحمر ، حيث توجد جميع الأحجار التى استعملت في هذه الحضارة ، وأن النماذج المصرية في هذه الحضارة ، إنما هى تقليد لنماذج معروفة عند أصحاب هذه الحضارة في مواطنهم الأصلية^(١٣) .

وهناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أن الجنوب (النوبة) هو منبع حضارة مصر في عصر ما قبل الأسرات^(١٤) ، الأمر الذى عارضه جمهرة الباحثين ، بل إن العلماء إنما يجمعون — أو يكادون — على أن مصر هى التى أمدت النوبة بعناصر الحضارة — وليس العكس — كما حدث طوال العصور التالية^(١٥) .

على أن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أن هناك أوجه شبه بين حضارة عصر ما قبل الأسرات في مصر ، وبين الحضارة الليبية ، وأن هناك من يرى أن الحضارة الليبية هى التى أخذت عن الحضارة المصرية ، وليس العكس^(١٦) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن جمهرة العلماء إنما تذهب إلى أن حضارة عصر ما قبل الأسرات الأولى ، إنما هى حضارة محلية متطورة من

12) A. Scharff, Some Prehistoric Vases in The British Musum, JEA, 14, 1928, P. 267-270.

13) W.M.F. Petrie, Prehistoric Egypt, BSAE, 31, London, 1920, P. 48. A. Scharff, Op. Cit., P. 273. وكذا

14) E. J. Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, I, Oxford, P. 18, 49.

15) E. Massoulard, Prehistoire et Protohistoire d'Egypt, Paris, 1949, P. 173.

16) Ibid., P. 172-173.

«حضارة البدارى»^(١٧) وأنها قد تلقتها مباشرة ، بل انها كانت — فيما يبدو — متداخلة معها زمنيا الى حد كبير ، ذلك لأن الطقوس الجنازية فيها واحدة ، كما ان كثيرا من أنواع الفخار انما يشبه بعضه البعض الآخر ، كالفخار الاحمر المصقول ، والفخار الاسود المصقول ، والشخار ذى القمة السوداء ، هذا فضلا عن الشبه الكبير بين تماثيل النساء فى حضارة البدارى ، وحضارة عصر ما قبل الاسرات الاول^(١٨) .

على أن هذا لا يمنع من القول بأن هناك — فيما يرى بعض الباحثين — عناصر جديدة ، ربما وفدت مع مهاجرين جدد من الغرب ، ومن تلك العناصر نوع من الادوات الحمراء عليه نقوش برسوم بيضاء ، على هيئة خطوط مستقيمة ، وأحيانا على هيئة صور بشرية ، وأخرى حيوانية ، وقد أطلق الباحثون على هذه الزخرفة الجديدة اسم «الخطوط البيضاء المتقاطعة» (White Crossed Lines) ، هذا الى جانب الرسوم المحفورة فى سطح الفخار ذى الصافة السوداء ، أو المنقوشة على اللوحات الاردوازية ، والتي تدل على قرابتهما الوثيقة بالنقوش القفصية .

هذا فضلا عن أوجه شبه بين حضارة عصر ما قبل التاريخ فى مصر ، وبين فن الصحراء الكبرى ، حيث ظهر على فخار العمرة ذى الخطوط البيضاء ، رسوم غطاء الرأس ذى الريش المعروف على صخور الصحراء الغربية كما أن عقرد قشر بيض النعام انما هى تطوّر لهذه الصناعة المعروفة عن الحضارة القفصية فى شمال أفريقيا^(١٩) .

(١٧) أنظر عن «حضارة البدارى» (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول ص ٢٤٧ — ٢٥٧) .

18) E. Massouard, Op. Cit., P. 171.

(١٩) ابراهيم أحمد رزقانه : الحضارات المصرية فى فجر التاريخ — مكتبة الاداب — القاهرة ١٩٤٧ ص ١٧٩ ، وأم الخير العقون : المرجع السابق ص ١٣٩ .

ومن ثم فقد ذهب «(وينرايت)» الى أن هناك عنصرا ليبيا سكن مصر ، وكانت له مراكز قوية في «(سايس)» (ساو المصرية ، و «(صا الحجر)» الحالية ، على مبعدة ٧ كيلا شمال بسيون بمحافظة الغربية) ونقادة (بمحافظة قنا) ، وأما دليله ، فهو الريشتان ، وهما علامة الزعيم الليبي ، وكانتا توجدان في العصور التاريخية ضمن مقاطعات الصعيد في : نحن وطيبة (الاقصر) و «(قفط)» (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) و«(دندرة)» (على مبعدة ٥ كيلا شمال غرب قنا ، عبر النهر) و «(ديوسبوليس بارفا)» (هو الحالية ، على مبعدة ٥ كيلا جنوب نجع حمادى) ، وأبيدوس (عراة أبيدوس ، على مبعدة ١٠ كيلا غربى البلينا ، بمحافظة سوهاج) ثم أخميم^(٢٠) — في مقابل سوهاج ، عبر النهر — •

ولعل من الاهمية بمكان أن هناك بعض اللوحات المصرية من عصر ما قبل الاسرات — حوالى منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد ، ربما تشير بوضوح أكثر الى علاقات مصر بجيرانها الغربيين ، ومن ذلك «(سكين جبل العركى)» (مركز فرشوط — بمحافظة قنا) ، وقد صور الليبيون عليها بشعور طويلة ، عراة الا من حزام لستر العورة^(٢١) •

وهناك «(صلاية صيد الاسود)» ، وقد عثر عليها من ثلاث قطع ، الواحدة بمتحف اللوفر ، والاخرى بالمتحف البريطانى ، وقد نقش على أحد وجهيها مجموعتان من الرجال ، انتظموا في صفين على حافتيهما العريضتين ، وحملوا أسلحة مختلفة ومعروفة لدى المصريين من قبل ، كالاقواس والحراب ذات الرأسين والعصا المعقوفة وحبال الصيد ، وسلاح جديد منه البلط ذات الحدين والتروس البيضاوية ، هذا وقد صور كل رجل من رجال الصلاية بشعر مستعار ولحية مستعارة ، ونقبة نصفية خططت أو فصلت بما يشبه خطوط سعف النخل ، وتدلى خلف

20) G. A. Wainwright, The Red Crown in Early Prehistoric Times, JEA, 9, 27-30.

(٢١) جيهان ديزانج : البربر الاصليون — تاريخ أفريقيا العام — تورينو ١٩٨٥ ص ٤٣٨ •

ظهره ذيل ذئب أو ابن آوى ، كما وضع كل رجل ريشه أو ريشتين فوق رأسه ، باعتباره من رجال الحرب ، وقد ظلت هذه الريشة بدورها ، مما يميز صور الجنود في العلامات الهيروغليفية خلال العصور التاريخية (٢٢) .

هذا وقد لاحظ بعض الباحثين (ماسبيرو - جاردنر) تصوير الامراء الليبيين في المناظر المصرية التاريخية ببعض هذه المناظر ، لا سيما الذقن المستعار والريشة ، هذا فضلا عن ذيول متصلة بنقبتهم القصيرة ، وكانت الذيول ميزة خاصة بالفراعين أنفسهم ، ولم تعرف لدى غيرهم ، الا في صور الليبيين المقهورين المرسومة على جدران يؤدى الى معبد هرم «ساحورع» من ملوك الاسرة الخامسة ، ولنفس هؤلاء الرؤساء الليبيين الذين يضعون قضبانهم داخل غمد ، كذلك خصلة شعر غريبة صغيرة فوق مقدم رؤوسهم تذكرنا بالصل (الكوبرا) على جبهة فرعون ، ومن ثم فقد تساءل «جاردنر» عما اذا كان ذلك يدل على أن ملوك الدلتا فيما قبل الاسرات كانوا ذوى صلة بليبيا ، أم أن الامراء الليبيين هم الذين قلدوا الحكام المصريين في مظاهر الرياسة التي تخيروها لأنفسهم (٢٣) .

وهناك «صلاية الاسد والعقبان» ، وقد نقشت من وجهها وظهرها ، وفقدت جانبا من جزئها الاعلى ، وبقي جزؤها الاسفل من قطعتين - الواحدة بالمتحف البريطانى ، والاخرى بمتحف أشموليان فى أكسفورد - واختلفت مناظر كل من الوجه والظهر فى مواضعهما ، فصور أحدهما ختام معركة عنيفة ، وصور الاخر وحدة زخرفية خالصة ، وتوسط وجه الصلاية أسد ضخم غضوب يمزق صدر عدو عار ، يتلوى جسده على الارض ، فى قسوة بالغة ، وتوزعت حول الاسد وفريسته

(٢٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٢ ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٢ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 394-395.
L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, II, Leipzig, 1931
Pls. I, 5,
P. M, V, 104.

وكذا

بقية مفردات المعركة ، فظهرت أمامه شخصية ذات مقام ، لم يبق منها غير نصفها الاسفل وردائها المرقش الطويل ، وقد تمثل معبودة مصرية — فيما يظن كورت زيته — أو أميرا ليبيا — فيما يظن جاك فاندييه — أو المعبودة «اينخرة» (أنوريس) — فيما يظن ثوت — وعلى أية حال ، فان الفنان هنا لم يلتزم بالواقعية الخالصة في التعبير عن جنس ما يمثله ، فقد صور الاعداء عراة بشعور مفلتة تقربهم من النوبيين ، ولكنه ترك ملامحهم وذقونهم قريية من ملامح الليبيين ، وأبعد ما تكون عن النوبيين ، ولهذا تعددت الاراء في تعيين جنسهم ، وتعين مكان المنتصرين عليهم من المصريين (٢٤) .

وهناك «صلاية الحصون والغنائم» ، وقد عثر عليها في أبيدوس ، وتوجد الان بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وقد صور الفنان على أحد وجهى الصلاية غنائم الحرب التى شنها ملكه ، فصورها صفوفًا من الثيران والحمير والكباش ، وتحتها أشجار زيتية صمغية ، وكتب بجانبها علامة تصوير تعتبر من أقدم العلامات الكتابية ، وتدل على كلمة «تحنو» — بمعنى أرض ليبيا — أو على الاصح الارضين الشمالية الشرقية من الصحراء الليبية المجاورة لحدود الدلتا (٢٥) .

هذا ونظرا لان صورة الملك فى هذه اللوحة تشبه صورة الملك «المعترب» (واسمه الشخصى آب ، والخورى كا) التى عثر عليها «بوالتر ايمرى» فى مقبرة الملك «عما» فى سقارة ، وتلك التى عثر عليها

-
- (٢٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٣ - ١٩٤ وكذا
J. Vandier, Op. Cit., P. 586.
S. Schott, Hieroglyphen, Untersuchungen Zum Ursprung der Schott, 1951, P. 181.
(٢٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٢١ ، وكذا
L. Keimer, BIFAO, 31, 1931, P. 121 F.
A. H. Gardiner, Onom., I, 1947, P. 119.
K. Sethe, ZAS, LII, P. 56.

في مقبرة «نعرمر» في أبيدوس^(٢٦) ، فإن البعض انما ينسب صلابة الحصون والغنائم هذه للملك العقرب ، وبالتالي فقد نسبوا اليه القيام بحروب داخلية دمر فيها بعضا من الحصون ، فضلا عن القيام بحروب خارجية في «أرض التحنو» ، غنم منها الكثير من قطعان الماشية والزيت ، وان ذهب البعض الى أن اللوحة لا تمثل انتصارا خارجيا ، وانما احياء لذكرى انتصار الملك العقرب على «بوتو» (الدلتا)^(٢٧) .

وليس هناك من ريب في أن لوحة الملك العقرب هذه — أو لوحة تبحنو — انما تمثل أقدم اشارة واضحة الى الليبيين في الاثار المصرية ، حيث ظهر في أحد وجهي اللوحة من أسفل اشجار يفترض «نيوبري»^(٢٨) أنها أشجار الزيتون ، وان عارضه في ذلك «كيمر»^(٢٩) هذا وقد ميز «زيتته» الى جانب الاشجار ، العلامة الهيروغليفية الدالة على بلاد التحنو ، وهي أرض الليبيين المعروفين باسم «جحنيو» (تبحنو) ، وليس الامر في حاجة الى كثير من البراعة للقول بأن الماشية عبارة عن غنيمته ، وأن الاشجار يستخرج منها زيت «جحنيو» الذي له قيمة كبيرة^(٣٠) .

وهناك لوحة أخرى يظهر فيها الملك في شكل «ثور قوى» يطعن حتى الموت رجلا مستلقيا من ذلك الطراز الذي يطلق عليه «ليبي» ، وأما هدف اللوحة فكان تسجيل المذبحة ، أو القبض على مصريين من الدلتا ، أو اعداء ليبيين ، على يد زعيم من الصعيد على رأس حلف من بضعة أقباليم^(٣١) ، وهناك من يرى أن لوحة «نعرمر» انما تشير الى انتصاره

26) W. B. Emery, Hor-Aha, Cairo, 1939, P. 92-93.

W. B. Emery, The Royal Tombs of The Earliest Dynasties, II, London 1901, Pl. III, 9, P. 20-21.

27) S. Schott, Op. Cit., P. 21.

28) P. E. Newberry, The Tehenu-Olive Land, in Ancient Egypt, 1915, P. 97-98.

29) L. Keimer, Op. Cit., P. 121 F.

30) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 394.

A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, P. 116-117.

31) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 396.

على الليبيين ، كما تشير الى انتصاره على الدلتا ، وهكذا تسجل الآثار المصرية انتصار المصريين على التحنو (الليبيين) (٣٢) .

(٤) في عصر التأسيس (الاسرتين الاولى والثانية) :

من المعروف تاريخيا أن مصر قد تعرضت على أيام الاسرة الثانية الى اضطرابات وقلقل — داخلية وخارجية — أدت الى انفصال الدلتا عن الصعيد (٣٣) ، ويرجع المؤرخون أسباب ذلك الانفصال الى أن الملك «سخم اييب» قد تخلى عن ولائه للمعبود «حور» وعبد «ست» ، وغير اسمه الى «بر — اييب — سن» ، وكتب هذا الاسم في اطار (سرخ) يعلوه حيوان المعبود «ست» بدلا من «الصقر» الذى كان يعلوه اسمه الاصلى «سخم اييب» ، وهو حدث يكاد يكون منفردا في تاريخ مصر ، ثم يعتبر «ست» حاميه ، وأنه هو الذى سلم اليه عرش مصر ، وربما كان ذلك نتيجة لخصومة عنيفة بينه وبين مناطق الدلتا التى تعصبت لمعبودها «حور» ، الامر الذى رأى فيه المؤرخون ثورة دينية أو نوعا من الصراع السياسى والدينى بين الصعيد والدلتا ، وربما ثورة ضد عقيدة الملكية الالهية (٣٤) .

على أن المشكلة الاخطر ربما كانت تتمثل في أنه أطلق على حيوان المعبود «ست» في بعض الاختتام الخاصة بالملك «بر — اييب — سن» اسم «اش» (Ash) أو «شا» (Sha) ، ومن المعروف أن هذا انما يخص المقابل الليبى للامبوتى (Ombuite) (٣٥) .

(٣٢) انظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول ص ٣٢٧ — ٣٣٢ ، الجزء الثانى ص ٩٤ — ٩٥ .
(٣٣) انظر (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٤٧ — ٥٧) .

34) P. E. Newberry, The Set Rebellion of The II nd Dynasty, Ancient Egypt, 1922, P. 10 F.

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 65.

W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 96.

35) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 417.

وهنا بدأ بعض المؤرخين يقدمون تفسيراً آخر للاحداث ، فيذهبون الى أنه قد حدث في عهد الملك «نتر» (نثرن أو نثريمو ، بمعنى المنتمى الى الاله ، وربما كان المقصود أوزير) (٣٦) — وهو الملك السابق للملك (بر — اييب — سن) — أن هاجم الليبيون أرض الدلتا ، واحتلوها عنوة ، وانفصلوا بها عن الصعيد ، فلما جاء بعده «بر — اييب — سن» لم يحكم غير الصعيد وحده ، ولكنه اعتزم الكفاح ، وتسمى باسم «سخم اييب» أى «الجبسور» وتلقب «برن ماعت» ، بمعنى «الذى خرج للحق» أو بمعنى «انبعث للنظام» ، واستمسك في أغلب أحواله برب الصعيد «ست» ، باعتباره من أرباب الحرب والقتال ، واحتفظ لنفسه بلقب «نيسو بيتى» ، أى أنه ظل يحتفظ بانتسابه الى شعار الدلتا وربتها ، بجانب ربة الصعيد وشعاره ، وان لم ينته في كفاحه الى شىء (٣٧) .

ثم جاء الملك «خغ سخم» ، واتخذ ثوب «حور» واستنصره ، ولم يجد بأساً من أن يعترف بالامر الواقع في أول عهده ، فظهر في تماثيله بتاج الصعيد وحده ، وصور المعبود «حور» بتاج الصعيد تارة ، وبلقب «حور السماء» تارة أخرى ، ثم هاجم أراضى الدلتا ، وقا تل الليبيين المسيطرين عليها قتالاً عنيفاً ، حتى انتصر عليهم في نهاية عهده ، وعندما أراد رجاله أن يعبروا عن انتصاره عليهم ، أشعاروا الى أرض الدلتا باعتبارها الأرض التي كان الليبيون يحتلونها ، وليس باعتبارها وطنهم الاصيل ، أو أرض الخصوم الفعليين (٣٨) .

وهناك لوحة مكسورة للملك «خغ سخم» عثر عليها في «نخن»

(٣٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٧ ، وكذا

ASAE, XXVIII, 1928, P. 153 F, LIV, 1944, P. 287.

(٣٧) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم — الجزء الاول —

مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٨٠ .

(٣٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨١ ، وكذا

W. M. F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pls. XXI, 164-172, XXII, 173-1900.

J. E. Quibell, Hierakonopolis, I, London, 1901, Pl. LVIII, P. 48.

(البصيلية) تشير بوضوح الى أن ذلك الصراع انما كان مع عدو ليبي ، ذلك لأن اللوحة انما تكشف عن ماهية هؤلاء الاعداء ، إذ أن هناك رأسا ملتحيا (فوقه ريشه) تتصل بما يشبه الدعامة البيضاء التي شهدناها في لوحة «نعرمر» ، وهي تشير في وضوح الى الاعداء الليبيين (٣٩) .

وهناك تمثالان جالسان للملك نفسه ، وأيضا من «نخن» — الواحد من الحجر الجيري في متحف اكسفورد ، والاخر من الاردواز في متحف القاهرة — وتزين قواعد التمثالين زخارف من صور محفورة لأعداء مذبحين في كل مظهر يمكن تصويره ، مما يمثل الألم والعذاب ، وقد قدم احصاء بعددهم البالغ ٤٧٢٠٩ من أحد التمثالين ، بينما يقدم التمثال الاخر احصاء بعددهم البالغ ٤٨٢٠٥ أسيرا (٤٠) .

هذا وتشير «لوحة نعرمر» (٤١) (مينا) — والتي كشف عنها «ادوارد كويل» في معبد حور في عاصمته نخن (البصيلية) ، والموجودة الان بالمتحف المصري بالقاهرة رقم ٣٠٥٥ — الى الخصوم المصورين على هيئة البدو الاسيويين والليبيين ، أن العلامات المصورة مع القتيلين والحصن المفتوح علامات يمكن تقريبها الى اسم حصن أسيوى (حصن ستة) ، وأن الرقم المكتوب بجوار الاسير يردده الى الاقليم الشمالى

39) J. E. Quibell and F. W. Green, Hierakonopolis, II, London, 1902, Pl. 58.

40) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 418.

J. E. Quibell and F. W. Green, Op. Cit., Pls. 39-40. وكذا

(٤١) انظر عن لوحة نعرمر :

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 404.

J. E. Quibell, Hierakonopolis, I, London, 1900, Pl. XXIX, P. 10, II, London, 1902. P. 41-43.

F. Legge, PSPA, 28, 1906, P. 126-129.

وكذا

I. E. S. Edwards, The Early Dynastic Period in Egypt, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, P. 7-11.

الغربي على حافة الصحراء الليبية^(٤٣) ، وأن الملك «نعرمر» (مينا = أول ملك في تاريخ مصر الموحدة) قد شن غارة على الليبيين في غرب الدلتا ، وأسر منهم حوالي ٢٠ ألف نسمة^(٤٣) .

(٥) في عهد الدولة القديمة :

هناك في «حجر بالرمو» ما يشير الى أن الملك «سنفرو» — مؤسس الاسرة الرابعة — انما قد قام بحملة ضد «تيحنو — الليبيين» ، وأنه قد حصل على غنائم كثيرة ، فلقد أسر من التحنو ١٩٠٠ أسيرا ، واستولى على ١٣١٠٠ رأسا من الماشية والاعنام^(٤٤) ، وليس هناك مجال للدخول في مناقشة جدلية حول القيمة التاريخية لهذه الارقام ، طالما أنها المصدر الوحيد لدينا ، وهى — على أية حال — انما تشير الى وجود اضطرابات على الحدود الغربية في ذلك العهد ، مما أدى الى قيام مثل هذه العمليات العسكرية الكبيرة هناك^(٤٥) .

وفي الاسرة الخامسة يبدو أن الاضطرابات قد تجددت على الحدود الغربية ، ويقدم لنا معبد الملك ساحورع الجنازى في أبو صير — على مبعده ٥ كيلا جنوبى أمرام الجيزة — مناظر توضح نشاطه العسكرى ضد فريق من عصاة القبائل الليبية في الصحراء الغربية ، مسجلة أعداد الاعنام والماعز والماشية التى تم الاستيلاء عليها ، وهى من الكثرة بحيث تدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية كانت وفيرة العشب والمرعى ، كما تقدم المناظر اخضاع أمراء أجانب وعائلاتهم ، حيث تقدم لنا زوجة الامير الليبي الاسير وولديه ، وقد كتبت أسماؤهم فوق مناظرهم^(٤٦) .

-
- (٤٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٢٢٧ ،
A. Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne, Paris, 1926, P. 172 F.
R. Weill, Recherches sur la Ier Dynastie et les Temps Prépharaoniques, II, le Caire, 1961, P. 189 F, 194.
43) G. Galassi, Op. Cit., P. 24.
44) E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, P. 170.
(٤٥) فوزى فهم جاد الله : ليبيا في التاريخ ص ٦٢ .
46) A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 43.

ومن عجب أن نلتقى بالمنظر نفسه في معبد الملك «ببى الثانى»
— من الأسرة السادسة — حيث يحمل الامراء الليبيين الاسماء
نفسها (٤٧) ، الامر الذى دفع بعض الباحثين ، من أمثال أركل ودريوتون
وفاندييه ، الى القول بأن الكثير من مناظر الحروب والانتصارات انما
هى مناظر تقليدية ، وعلينا ألا نأخذها كوثائق تاريخية ، دون أن نضعها
تحت منظار البحث العلمى (٤٨) .

ومع ذلك ، فالذى لا ريب فيه ، ان مناظر معبد الملك «ساحورع»
انما هى مناظر أصيلة (٤٩) ، فضلا عن أن فائدة هذه المناظر والنقوش انما
هى جد كبيرة ، حتى وان كانت مناظر تقليدية ، ذلك لانها انما تقدم لنا
الكثير من مميزات الازياء والملابس والاسلحة وغيرها من المميزات
والخصائص ، مما أفاد المعرفة التاريخية كثيرا (٥٠) .

وفي الأسرة السادسة ، يحدثنا «ونى» أنه ضم الى جيشه الذى قاده
الى غربى آسيا ، ليقضى على الاضطرابات هناك ، جنودا من «أرض
التمحو» (٥١) ، كما أن رئيس القوافل «حرخوف» يحدثنا في مقبرته
بأسوان (جزيرة اليفانتين) أنه تقدم الى «أرض التمحو» (٥٢) أثناء
رحلته الى بلاد «يام» (٥٣) .

(٦) في عهد الثورة الاجتماعية الاولى :

يذهب بعض الباحثين الى أن هناك غزوا أتى من الغرب — عن طريق

47) G. Jequier, Le Mounment Funeraire de Pepi, II, Vol. II, Cario, 1963, P. 8-11.

48) A. J. Arkell, A History of The Sudan ..., London, 1961, P. 100.

49) H. Kees, Ancient Egypt, London, 1961, P. 170 F.

(٥٠) فوزى فهميم : المرجع السابق ص ٦٣ .

51) J. A. Wilson, Asiatic Campaigns under Pepi, I, in ANET, 1966, P. 228.

52) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 100.

(٥٣) انظر عن بلاد «يام» (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء
الثانى ص ٢٤٥ — ٢٤٧) .

اقلليم الفيوم — ابان عهد الثورة الاجتماعية الاولى^(٥٤) (الاسرات من السابعة الى العاشرة) ، ورغم أن كثيرا من المؤرخين انما يترددون في قبول هذا الاتجاه في تفسير الاحداث وقت ذاك ، فالرأى عندى أن الشعوب الليبية الطاعنة عند الحدود المصرية الغربية ، فضلا عن المقيمة حولها ، انما قد اهتمت فرصة الفوضى التى كتب على البلاد أن تعيشها ، خاصة في أوائل عهد الثورة الاجتماعية الاولى ، حتى وصل الامر آنذاك أن تركت الحدود مفتوحة ، دونما أية حماية من جنود مصر ، ومن ثم فقد تدفق بعض الليبيين الى غرب الدلتا بصفة شبه مستمرة ، حتى استطاع ملوك اهناسية (في الاسرتين التاسعة والعاشرة) ايقاف هذا السيل المنهمر كالجراد ، وان كان النجاح التام في طردهم من البلاد تاما ، انما كان من نصيب «منتوحتب الاول» من الاسرة الحادية عشرة .

ومع ذلك ، ورغم أن الليبيين لم يتركوا لنا شيئا من آثارهم في غرب الدلتا ، فاننا ما زلنا نرى في مصر الوسطى ، آثار عائلة ليبية أثت من الصحراء الغربية ، عن طريق واحة الغرافرة ، واستقرت في منطقة (منفلوط — ديروط — بمحافظة أسيوط) ، ولا تزال آثارها في مقبرة «سبنى» حاكم «القوصية»^(٥٥) في عهد الملك «أمنمحات الاول» (١٩٩١

54) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, P. 126-129.

J. Baikie, A History of Egypt, I, London, 1929, P. 221-222.

(٥٥) القوصية : وتقع على ترعة الابراهيمية على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط ، وكانت تسمى في المصرية «قيس» ربما بمعنى الرابطة ، وفي القبطية «قوص قام» ، وفي اليونانية «كوساي» ، ومنها جاء اسمها الحالى القوصية ، وكانت عاصمة الاقليم الرابع عشر من أقاليم الصعيد ، ومعبودتها الرئيسية حتحور ، وأضافت اليها قائمة سنوسرت لها أخسر عرف بلقب «تب شبس» (الاله الفاخر) ، وربما كان أوزير (انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وكذا

M. C. Gaillard, ASAE, 27, 1927, P.

P. Lacau et H. Chevrier, une Chapelle de Sesostri, Ier, a Karnak, Caire, 1956, P. 224.

— ١٩٦٢ ق.م) مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، في جبانة «مير»^(٥٦) ،
وهى منطقة فقيرة تقع عند بداية طريق القوافل التى تصل وادى النيل
بواحة الفرافرة ، ولكنها رباط هام بين الاقاليم الليبية ووادى النيل ،
وهذه حقيقة يمكن تأكيدها من نصوص الحروب الليبية في عهد «مرنبتاح»
(١٢٢٤ — ١٢١٤ ق.م) ورعمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ ق.م) ،
والتي تشير الى أن القبائل الليبية انما بدأت غزوها لمصر وقت ذاك
بالاستيلاء على واحة البحرية والفرافرة^(٥٧) .

(٧) في عهد الدولة الوسطى :

اهتم ملوك الدولة الوسطى بجيرانهم الغربيين ، ومن ثم فقد أقام
«أمنمحات الاول» سلسلة من الحصون على حدود الدلتا الغربية ، كما
في واحة المنطرون والخارجة ، وما زالت بقايا الاولى قائمة حتى الان
في وادى المنطرون ، وبداخلها معبد له بوابة من الجرانيت عليها
أسمه^(٥٨) .

وهناك في «قصة سنوهى»^(٥٩) ما يشير الى أن «أمنمحات الاول» قد
أرسل حملة في خواتيم أيامه الى الغرب — تحت قيادة ولى عهده
سنوسرت الاول — لتأديب الليبيين الثائرين في الصحراء الغربية ، حيث

(٥٦) مير : وتقع على حافة الصحراء بين القوصية وديروط ،
بمحافظة أسيوط ، وهى فى المصرية القديمة «مرية» أو «ميرية» ، وثابت
بمئابة جبانة للقوصية ، وقد نشر مقابرها «بلاكمان» فى سبعة أجزاء
(A. M. Blackman, The Rocks Tombs of Meir, 7 Vols, London, 1914-
1953).

57) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 11.

58) A. Fakhry, Wadi El Natrun, ASAE, XL, 1940, P. 837-848.

(٥٩) انظر عن قصة سنوهى :

A. Erman, LAE, 1927, P. 14-29.

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 18-22.

G. Posener, Op. Cit., P. 87-115.

A. M. Blackman, JEA, 22, 1936, P. 35-44.

M. Litchtheim, Op. Cit., P. 222-235.

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 57-74.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

نقرأ «أرسل جلالته جيشا الى التخنو (الليبيين) بقيادة ولده البكر ،
الاله الطيب ، سنوسرت ، ليضرب البلاد الاجنبية ، وليأسر سكان أرض
تخنو ، وكان فى طريق العودة ، ومعه اسرى أحياء من التخنو ، وكل
أنواع الماشية التى لا تحصى» (٦٠) .

وتابع «سنوسرت الاول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) سياسة أبيه فى
مراقبة الليبيين ، وهى نفس السياسة التى تابعه فيها خلفاؤه ، حتى
لنرى لقباً جديداً يظهر فى هذه الفترة ، هو «مراقب الصحراء الغربية»
الذى حمله كبار الموظفين ، وهناك ما يشير الى قيام تجريدة على أيام
سنوسرت الاول الى الواحات الغربية ، وقد قامت هذه التجريدة من
طيبة (الأقصر) ، ويحدثنا أحد قوادها بقوله «لقد وصلت الى الواحات
الغربية ، وكشفت عن الطرق المؤدية الى المتمردين ، وأسرت الذين
وجدتهم هناك ، وبقي جيشى سالماً ، وبدون خسائر» (٦١) .

هذا وقد أخذ الليبيون الى الهدوء والسكينة بعد الحملة التى قادها
الفرعون على أيام أبيه ضدهم ، ومن ثم فلم نجد إشارة الى التخنو فى
النصوص التى ترجع الى عهد «سنوسرت الاول» ، وان كان الملك قد
داوم على الاتصال بالواحات ، ومن ثم فقد ذهبت رسله الى الخارجة ،
عن طريق أبيدوس (٦٢) .

وهناك من عهد الدولة الوسطى لوحة محفوظة بالمتحف البريطانى فى

60) J. A. Wilson, The Libyans and The End of The Egyptian Empire,
in AJSL, LI, 1935, P. 74.

(٦١) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر
رعسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١١٧ .

62) G. Posner, Litterature et Politique dans L'Egypte de la XII^e
Dynastie, Paris, 1956, P. 53, 104.

J. Vorcutter, The Near East, The Early Civilization, London, 1967,
P. 368.

ZAS, 42, 1905, P. 124-128.

لندن ، تعرف باسم «لوحة دد - اقو» ، يتحدث فيها صاحبها عن رحلته الى واحة الخارجة ، فيقول «لقد خرجت من طيبة ، بوصفى نبيلًا ، قد مدح كرئيس للجنود الشبان ، وذلك لكى أقيم حكما فى أرض الواحات ، لأننى موظف ممتاز» ، ويقول فى نفس النص : انه يبقى عينيه مفتوحتين ليحفظ حدود الملك ، وهذه اللوحة ، فيما يرى شيفر ، أقدم أثر مصرى يتحدث عن واحة الخارجة ، والطريق بينها وبين أبيدوس .

على أن الدكتور أحمد فخرى يذهب الى أننا لسنا فى حاجة الى أن نفترض أن «دد - اقو» يجب أن يكون قد بدأ رحلته من أبيدوس ، صحيح أن الواحات كانت فى عهد الاسرة الثامنة عشرة تتبع اقليم «ثنى» ، وصحيح كذلك أنها كانت طريق القوافل بين جرجا والخارجة ، ولكنه صحيح كذلك أن طيبة كانت ما تزال - وحتى الوقت الحاضر - تستعمل كذلك ، بل وان هناك طريقا آخر يربط مدينة اسنا بباريس فى الخارجة ، وهو الطريق الذى استعمله «دد - اقو» فى مهمته هذه ، لانه أسهل الطرق دونما ريب^(٦٣) .

وهناك لوحة أخرى ، محفوظة بمتحف برلين ، وقد عثر عليها «بورخاردت» عام ١٩٢٨م فى «قم-ولا» ، على مبعدة ١٧ كيلا شمال الاقصر ، وتؤرخ ببداية الدولة الوسطى ، وربما فى عهد «سنوسرت الاول» أو من عهد أبيه «أمنمحات الاول» ، وتخص موظفا يدعى Kay كان يعمل «مدير صيادى الصحراء ، ومدير الصحراء الغربية ، ورئيس الحملة» ، يقول : لقد وصلت الصحراء الغربية ، وفنتشت على كل طرقها وأحضرت الهاربين الذين وجدتهم هناك ، وقد عادت الرحلة بأمان وبدون خسارة ، وأما هؤلاء الذين أوكل الى أمرهم ، فقد عادوا بسلام ، وهكذا يبدو أن حملة Kay انما كانت ذات طابع حربى ، وأنها قد حدثت بعد الاضطرابات السياسية ، وان لا نستطيع أن نحدد ، ان كان Kay

63) A. Fakhry, Bahria Oasis, P. 12.

هذا ، يعنى واحة أخرى (غير الخارجة) ، وأنه ذهب من الخارجة لهذه
الأخرى ، مفتشاً كل طرقها (٦٤) .

(٨) فى عهد الانتقال الثانى :

هناك ما يشير الى أن «أبو فيس» ملك الهكسوس ، قد حاول ، أثناء
حرب التحرير (٦٥) ، أن يوقع البطل المصرى «كامس» (كاموزا) بين فكى
الكماشة ، ومن ثم فقد حرض أمير كوش على الزحف شمالاً ، لحصر
القوات المصرية بين القوتين — الهكسوسية والكوشية — وامعانا فى
السرية ، فلقد أرسل أبو فيس رسله عن طريق الواحات ، ليكونوا بمأمن
من عيون كاموزا ، ولكن هؤلاء علموا بأمرهم ، فأرسل كاموزا سرية من
جيشه استولت على الرسالة ، ثم أطلقتهم لينقلوا الى ملكهم خبيبة أمله ،
وفشل مسعاهم ، وفى نفس الوقت عمل كاموزا على احتلال الواحات
البحرية ، همزة الوصل الوحيدة بين الهكسوس وأمير كوش ، ومن ثم
فقد أرسل من «ساكو» (ليتوبوليس الاغريقية) — وتقع فى مكان القيس
الحالية ، على مبعده ٤ كيلا جنوبى بنى مزار بمحافظة المنيا — أرسل
كتيبة من جيشه احتلت الواحات البحرية ، وذلك لمنع أى اتصال بين
الهكسوس وأمير كوش ، وليخلق هذا الطريق الصحراوى بين مصر
والسودان (٦٦) .

64) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 13.

(٦٥) انظر عن حرب التحرير ضد الهكسوس (محمد بيومى مهران:
حركات التحرير فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠١ — ٢٢٣ .

66) T. J. H. James, Egypt, from The Expulsion of The Hyksos to
Amenophis, I, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1973; P. 291-292.

H. G. Fisher, A God and General of The Oasis on a Stela of The Late
Middle Kingdom, in JNES, 16, 1957, P. 226-227.

L. Habachi, ASAE, 53, 1955, P. 202.

الفصل الثانى

علاقة مصر بالشمال الافريقى فى الدولة الحديثة

أولا - فى عهد الاسرة الثامنة عشرة

هناك ما يشير الى أن الملك «أمنحتب الاول» (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق م) قد قام بحملة ضد سكان الصحراء الليبية ، فلقد حدثنا القائد المعروف «أحمس بن نخب» (أحمس الكابى) أنه رافق الملك «أمنحتب الاول» فى حملة على مكانين ، الواحد يقال له «قهنق» ، والاخر يقال له «يامو» ، وذلك حيث يقول : «لقد رافقت ثانية ملك مصر العليا والسفلى ، جسر كارع ، (أمنحتب الاول) ، وقد أحضرت له من شمالى «يامو» التابعة لحقول «قهنق» ثلاثة أيدى» .

هذا ويذهب «كورت زيته» الى أن مكان «قهنق» هذه غير معروف ، وان كان يرجح أنه يقع الى الشمال الغربى من حدود مصر ، وأن حقون «يامو» هذه ، يحتمل أن تكون احدى الواحات الواقعة فى الصحراء الليبية ، وأما «جاستون ماسبيرو» فالرأى عنده أن الفرعون انما قام بحملة الى ليبيا - بعد حملته على النوبة - وأن قبيلة «قهنق» هذه انما تقع فيما بين بحيرة مريوط وواحة أمون المعروضة .

وأيا ما كان الامر ، فمكان «قهنق» لا يعدو الصحراء التى تقع الى الغرب من مصر ، ولا يبعد كثيرا عن غرب الدلتا ، وفى تاريخ مصر من الشواهد ما يشير الى كثرة الغارات التى يقوم بها سكان تلك البقاع الغربية على دلتا النيل ، ومن المحتمل أن يكونوا قد هاجموا فى زمان «أمنحتب الاول» - ثانى ملوك الاسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨

ق.م) — الذى حمل عليهم ، وظفر بهم ، ثم سجل انتصاره على لوح من خشب ، يصوره ملوحا بسيفه ، وقد جثم العدو عند قدميه^(١) .

هذا وقد اهتم ملوك الاسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ — ١٣٠٨ ق.م) بالمواحات ، فقسموها الى مجموعتين ، لكل منها حاكم تحت ادارة أمير أبيدوس ، وان أصبح حكامها — فيما يرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري — مستقلين منذ الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ — ١١٨٤ ق.م)^(٢)

ثانيا - فى عهد الاسرة التاسعة عشرة

(١) فى عهد سينى الاول (١٣٠٩ — ١٢٩١ ق.م) :

بدأت مصر فى أوائل عهد الاسرة التاسعة عشرة تتعرض لأخطار جسيمة من ناحية حدودها الغربية ، فلقد تعرضت المنطقة الواقعة فى حوض البحر المتوسط ، والبلاد الواقعة الى الشرق منه ، فى القرنين — الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد — الى تعديلات هائلة ، وذلك نتيجة هجرات شعوبية جديدة ، أشاعت القوتر فى الشرق ، وقد كانت هذه الهجرات الجديدة «هندو — أوربية» الاصل ، خرجت طوائفها الاولى من نواحي القوقاز ، ثم انتشرت فى حوض البحر المتوسط واختلطت بسكان سواحله ، ونزل بعضها على شواطئ الشمال الافريقى .

ويزداد الخطر على الحدود المصرية الغربية ، ونجد أنفسنا الان أمام تحركات ليبية تتجه شرقا ، لا نعرف لها سببا مؤكدا ، فربما كان هناك جفاف يتزايد فى أوطانهم ، وربما كان هناك غمر سكانى للمنطقة الضيقة على الشريط الساحلى ، وربما كان بسبب عناصر جديدة فى الشمال

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس — الجزء الثانى — القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٨٦ ، وكذا

T. G. H. James, Egypt, From The Expulsion of The Hyksos to Ameno-phs, I, in CAH, Part, 2, Cambridge, 1973, P. 310.

K. Sethe, Urkunder der 18 Dynastic, IV, P. 36.

J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, P. 254.

2) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Caïro, 1942, P. 14.

الافريقي أثناء تحركات شعوب البحر^(٣) ، وأيا ما كان السبب فهناك تحركات ليبية نحو مصر ، وتقوم مصر بالتصدي لها — بقيادة سيثي الاول — وتهزمهم في معركتين حاميتين ، ومن هنا يعتبر المؤرخون الملك سيثي الاول ، أول فرعون دافع عن بلاده ضد هجوم لبيى كان بداية الخطر الذى ستعرض له من هذه الناحية في عهد مرنبتاح ورعسيس الثالث ، ويبدو من الرسوم التى تركها المصريون لهم أنهم يختلفون عن الليبيين الذين حاربهم المصريون من قبل ، ومع ذلك فقد استمروا يطلقون عليهم اسم «تحنو» ويبدو أن المهاجرين الجدد كانوا طلائع المشوش والليبو الذين سيظهرون في الحملات القادمة .

ويختلف المؤرخون في تحديد هذه الحرب بالنسبة الى حروب سيثي الاول الاخرى ، فيرى «برستد» أنها تقع في السنة الثانية من حكمه^(٤) ، بينما يرى «فولكر» أن نقوش الكرنك وضعتها بين نقوش الاستيلاء على قادش وبين نقوش الانقصار على حاتى ، ومن هنا فإنه يعتبرها الحملة الرابعة من حملات سيثي الاول الخمسة^(٥) . ومع ذلك فكثير من المؤرخين يرجحون أنها في السنة الثانية ، رأى ذلك الدكتور عصفور^(٦) والدكتور فخرى^(٧) والدكتور دريوتون^(٨) وفاندييه .

وتهدأ الاحوال على الحدود الغربية أيام رعسيس الثانى ، وان كنا نقرأ على لوحة بأسوان من سنته الثانية أنه أفنى التحنو ، ويفسر الدكتور فخرى ذلك بأن هذا لا يعنى حقيقة تاريخية ، وانما يعنى أن التحنو كانوا يخافون قوته ، وأنهم لم يجروا على أن يغزو البلاد^(٩) ، وعلى أية حال فإننا سنشهد بعد ذلك خطرا جديدا على مصر ، وهو هنا

3) Wilson, J., AJSL, LI, 1935, P. 74.

4) Breasted, J. H. Op. Cit., P. 412.

5) Faulkner, R. O. JEA, 33, 1947, P. 38.

(٦) د. محمد أبو المحاسن عصفور ، المرجع السابق ص ١٨٨ .

(٧) أحمد فخرى ، المرجع السابق ص ٣٤١ .

(٨) دريوتون - فاندييه ، المرجع السابق ص ٤٦٩ .

9) Fakhry, A., Op. Cit., P. 16.

ليس خطرا على أملاكها في آسيا ، بل على الحدود المصرية نفسها ، وقد يجعلنا ذلك نفترض أن هزيمة سيئى الاول للمتحنو لم تكن عملية حربية كبيرة استطاعت أن تقضى على الاخطار من ناحية الحدود الغربية ، ولكنها عملية حربية نجحت فقط فى أن تحجب المتاعب المتوقعة من هذا الركن قبل مضى زمن طويل •

وهناك ما يثبت أن الركن الشمالى الغربى للدلتا كانت تحصيه من الغزو الملبى سلسلة من القلاع على طول شاطئ البحر الابيض المتوسط بناها رعمسيس الثانى مثل حصن الغربانيات على مقبرة من برج العرب ، وحصنا آخر عند العلمين ، وحصنا ثالثا عند زاوية أم الرخم على مبعدة ١٨ كيلا الى الغرب من مرسى مطروح ، هذا الى جانب العثور على لوحات من عصر رعمسيس الثانى عند العلمين ، بل والى أماكن أخرى بعد ذلك الى الغرب منها (٩) •

(٢) فى عهد مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق م) :

ويتولى مرنبتاح العرش وتصبح المشكلة الملبية حادة ، اذ يبدو أن الاجراءات التى اتخذها رعمسيس الثانى قد اثبتت كفاءتها لعدة سنوات ، الا أن فترة الراحة الطويلة التى منحها رعمسيس لنفسه فى نهاية حكمه لم تكن تتفق والتحركات التى تجرى فيما وراء الحدود الغربية لمصر ، ومن هنا تعرضت البلاد للخطر من جديد ، ذلك أن الملبيين ظلوا يتدفقون نحو غرب الدلتا ، ولم يكونوا يكونون خطرا يهدد الكيان المصرى فى أول الامر حتى انضمت اليهم شعوب بحرية قادمة من البحر الابيض المتوسط أخذت تتدفق على الدلتا من سردينيا فى الغرب الى آسيا الصغرى فى الشرق ، ويشير ذكر هذه الشعوب فى النصوص المصرية الى أول ظهور للاوروبيين على مسرح الصراع ، وهكذا يبدو أن أخريات أيام رعمسيس الثانى الهادئة قد أعطت قبائل الملبىو فرصة إخضاع المشوش والحصول على تأييد بعض قراصنة البحر الابيض

(٩) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١١٩ - ١٢٠ •

المتوسط وتدمير القلاع والحصون والاندفاع بقواتهم صوب الواحات الشمالية (١٠) .

ويرجع المؤرخون أسباب هذا الزحف الليبي نحو مصر لأسباب عدة ، ربما كان منها ، زوال شخصية رعمسيس الثانى ، ذات الشهرة الحربية ، ولكن السبب الأرجح يرجع الى العوامل الاقتصادية ، فان «الليبياء» كانت بلدا فقيرا لم يكن يقوم فيما مضى بأود سكانه الاصليين ، ولهذا كان السكان المجاورون لمصر خلال كل العهود دائمي الرغبة في أن يتركوا حياة الصحراء القاسية ويتمتعوا بالامن والراحة على حدود وادى النيل «لقد أتوا الى أرض مصر يبحثون عن طعام لا قواهم» ، وزاد الامر سوءا هذه المرة تحركات الشعوب التي أطلق عليها المصريون «الشماليون الذين في جزرهم» وأطلق عليهم علماء المصريات «شعوب البحر» ، وقد وصلت هذه التحركات الى الشاطئ الافريقى تجر في ركابها النساء والاطفال على عربات تجرها الثيران ، ثم اختلطوا بالسكان الاصليين وأجبروهم على الخضوع لهم ، ومن ثم تحركت هذه الجموع طامعة في أن تعبر البرارى الى الدلتا وأن تستقر في أرضها الخصبة ، ويفسر «ويلسون» العوامل الاقتصادية في هذه التحركات تفسيرا آخر ، ذلك أنه يرى أن شعوب البحر حين أخضعوا كريت أصبحوا الخلفاء الطبيعيين للتجارة البحرية الكريتية ، وأنهم حين فكروا في الاتجاه جنوبا كان الشاطئ الافريقى عند برقة Cyrenaica أقرب اليهم من أية نقطة أخرى (١٨٠ ميلا) ، ذلك لأن أقرب ميناء مصرى كان ضعف تلك المسافة تقريبا ، ومن هنا نشأت علاقات ودية بين شعوب البحر وبين ريبو برقة ، وفضلا عن ذلك فانه من المحتمل أن التجارة المصرية البحرية قد خملت في تلك الفترة ، ومن هنا ربما كان الانفصال بين شعوب البحر ومصر من أجل تجارة البحر الابيض المتوسط وربما كان ذلك هو نفس السبب الذى جعلهم ينضمون الى الليبيين ضد

(١٠) جان يويوت ، مصر الفرعونية ، ص ١٣٩ .

مصر في هذه الحرب^(١١) . وعلى أية حال ، فإن الليبيين — العنصر الرئيسي في هذه الحرب — لم يكونوا من الليبيين الذين يقطنون الصحراء ، والذين كانت تربطهم بمصر صلة ، بل ربما كانوا من منطقة برقة المشرفة على البحر^(١٢) ، وأنهم قد هاجموا التحنو في طريقهم الى مصر ، وأن شعوب البحر — الذين حرضوا الليبيين على هذه المخاطرة وكانوا حلفاء لهم فيها^(١٣) — . يتكونون من الشردان والشكلش ولوكا والاقاواشا والتورشا وآخرين ، ومن هنا فان هذا التهديد يعتبر التهديد الخطير الاول بدرجة عظيمة لمصر منذ أيام الهكسوس .

وترى النصوص المصرية أن الهجوم كان في منطقة الفيوم وجنوبها أكثر منه على الحدود الغربية للدلتا ، ذلك أن الليبيين حين هاجموا الحدود الغربية كانت خطواتهم الاولى احتلال البحرية والغرافرة لكي يجعلوا من هاتين الواحيتين مركزا لاعتداءاتهم ، وقد سجل مرنبتاح هذه الحقيقة في نقوش الكرنك ، «لقد وصلوا الى تلال الواحة واستولوا على اقليم الغرافرة» (تا احت) .

والواحات في الصحراء كالجزر في المحيطات تعتبر كملجأ ، ولكنها أرفع منزلة في أهميتها الحربية ، ففيها الماء الذي يجعل الصحراء تحت ادارته التامة ، كما يجعل طريق القوافل تحت رحمته ، وتاريخ الحروب في الصحراء — في الأزمنة الحديثة والقديمة — يظهر أهمية احتلال الواحات^(١٤) . ولكن هناك عقبات تقف دون ذلك ، منها دليل الاسماء الجغرافية ، ومنها أن القوات العسكرية الكبيرة تصل الى مصر عادة على طول ساحل البحر ولكن بالكاد خلال الصحراء ، ومنها أن وجود شعوب البحر ضمن الغزاة واهتمامهم الواضح بموانئ مصر البحرية يوجههم

11) Wilson, J. AJSL, LI, 1935, P. 75.

12) Wilson, J., The Culture of Ancient Egypt, P. 254.

13) Wilson, J., AJSL, LI, P. 75.

14) Fakhry, A., Op. Cit., P. 17.

نحو الدلتا ، وبخاصة المنطقة حول الاسكندرية (١٥) .

وفي السنة الخامسة من عهد مرنبتاح استطاع «ماراي» (Maraye) بن «ديد» (DID) ملك قبيلة الليبو التي تظهر لأول مرة - أن يجمع بين الحافاء من جنسه «قهنق ومشوش» الى جانب خمسة من شعوب البحر ، «وأن يأخذ معه كل محارب حسن ، وكل رجل قتال في قبيلته ، وقد أحضر معه زوجه وأطفاله» (١٦) وكذلك فعل حلفاؤه ، اذ جاءوا بنسائهم وأطفالهم ، كما جاءوا بالماشية وثروة من الاسلحة والادوات التي تم الاستيلاء عليها فيما بعد ، ومع ذلك فان الحاجة هي التي دفعت بهم الى هذه المغامرة ، وتصورهم نقوش الكرنك بأنهم «..... كالديدان لا يهتمون بأجسامهم ، بل كانوا يحبون الموت ويحتقرون الحياة ، وقلوبهم متعالية على أهل (مصر) رؤساؤهم ، لقد أتوا الى أرض مصر سعيا وراء الطعام الذي يسدون به أفواههم» (١٧) . ويرى جاردنر أن الهجوم لابد وأن يكون قد جاء من مكان بعيد في الغرب من «برقة» ، وربما من ورائها ما دام التحرك الاول - لـ «ماراي» كان يستهدف النزول على أرض تحنو واحتلالها ، ولم يمض وقت طويل حتى غزوا القلاع الامامية ، بل ان بعضهم شق طريقه الى واحة الفرافرة ، ومع ذلك فان النهر الكبير أو الفرع الكانوبى للنيل جعل حدا لتقدمهم (١٨) .

وتنتشر أخبار الغزو في البلاد ، ويشعر المصريون بالخطر المداهم الذي يهدد وطنهم ، خاصة وأن ظهور هذه الافواج كان مفاجأة للمصريين لم يستعدوا لها وأخذ القلق والفرع بفرعون مصر مأخذه (١٩) . ولكنه أثبت أنه سليل الفراعين العظام ، وأنه قادر على أن يرد للمعتدين كيدهم في نحورهم ، ويأمر بتحسين الحدود ويهتم بقلع عين شمس

15) Wilson, J. Op. Cit., P. 76.

16) Breasted, J. H. ARE, III, Parag. 579. P. 243.

17) Breasted, J. H. ARE, III, Parag. 580. P. 244.

18) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 272.

.. (١٩) د. عبد المنعم أبو بكر ، كفاحنا ضد الغزاة ، ص ٤٢ .

ومنف «البحمي هليوبوليس ، مدينة آتوم ، وليدافع عن حصن بتاح
تانتن ، ولينجو ... من الشر» (٢٠) ، ثم يحشد جيوشه ويجهزها للقتال
في ظرف أربعة عشر يوما ، «وقد أمرت أرض مصر قائلا ... تستعد
للمسير في أربعة عشر يوما» (٢١) .

ويفزع مرنبتاح الى أقرب الالهة الى نفسه — الى بتاح — ويبتهل
اليه أن يرزقه النصر على عدوه ، وينجي وطنه من شر هؤلاء الغزاة
المتبربرين ، والمغامرين المتوحشين ، فلا يلبث ربه بتاح أن يسمع لدعائه ،
ويتجلى عليه في منامه ، فيبشره بالنصر ، ويشجعه على الخروج للقتال
ويعطيه بيده سيف القتال ، ليضرب به عدو وطنه وعدوه ، يقول النص
«وبعد ذلك رأى جلالته فيما يرى النائم كأن تمثال بتاح واقف أمام
الفرعون — له الحياه والفلاح والصحة — وكان مثل ارتفاع
فتكلم اليه : خذ انت ، ومد له يده بالسيف ، واقص عنك أنت القلب
الوجيل» (٢٢) .

ويخرج مرنبتاح على رأس قواته — ، وان رأى جاردنر انه لم يظهر
بشخصه للقتال (٢٣) ، لمنازلة العدو الذي كان قد عسكر على الجسائب
الغربي للفرع الكانوبي ، ومن المرجح ان مرنبتاح في هذه المعركة قد
استطاع أن يختار موقعا يستطيع ان يكسب النصر منه . فهو وان اختلف
المؤرخون (٢٤) في تحديده ، الا أنه لم يكن من السهل على القوات
المهاجمة أن تتجازه .

20) Breasted, J. H., Op. Cit., Parag. 576. P. 241.

21) Ibid., Parag. 581, P. 245.

22) Ibid., Parag 582. P. 245.

23) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 272.

(٢٤) اختلف المؤرخون في مكان الموقعة بين مرنبتاح والليبيين ،
فراى بيتري أنها كانت في مكان بين الضهرية والنجيلية en-Negileh
(على مبعده ١٥ كيلا من كوم حمادة) (تاريخ مصر ص ١٠٩) ، وقد وافق
على ذلك الدكتور عصفور (تاريخ الشرق ص ١٠٢) والدكتور نجيب (مصر

وأيا كان الامر ، فان معركة حامية الوطيس دارت رحاها بين المصريين والمعتمدين ، وأنها انتهت بهزيمة ساحقة للغزاة ، ولاشك في أن هذا النصر الذى أحرزه المصريون يمكن أن يعزى الى اختيار مرنبتاح الموفق لمكان المعركة — كما اشرنا — وما تميز به هذا الفرعون المسن من بسالة وشجاعة ، فضلا عن فعالية النبالة للمصريين الذين تمكنوا من صد المهاجمين^(٢٥) ، ويبدو أنها كانت مجبزة بشرية بلغ فيها القتال غاية الشدة والعنف ، مع أن المعركة لم تستمر أكثر من ست ساعات بحسب ما ورد عنها فى النصوص المصرية ، ويكفى دليلا على قسوتها أن نورد هنا عدد القتلى والاسرى الذين سقطوا أو اسروا بعد انتهاء المعركة ، بلغ عدد القتلى ٦٢٠٠ من الليبيين ، ومن رجال جزائر البحر ٢٣٧٠ ، كما بلغ عدد الاسرى من الفريقين ٩٣٧٦ بين رجل وامرأة ، من بينهم نساء القائد الليبى وأولاده وأخوته ، ولست أدري معركة تنتهى بقتل وأسرى ما يقرب من ١٨ ألف شخص ، دون أن تكون قد بدئت بجيش قد قارب فى عدده على الاقل ثلاثة أمثال هذا العدد^(٢٦) .

وهكذا كتب النصر للمصريين ، «وهرب العدو الخسيس أمير «ريبو» وحيدا فى جناح الظلام ، ولم تكن فى رأسه ريشة ، وقدماه بدون حذاء ، وقد أخذت نسائه أمام وجهه ، وقد أخذت أرغفة مؤنته ، ولم يكن لديه

=
والشرق القديم ج ٢ ص ٢٧٧) ورأى جاردنر أنها فى اقليم غير محدد ولكن دون شك داخل الدلتا (مصر الفراعنة ص ٢٧٢) ، ورأى دريوتون أنها واقعة على حافة وادى النطرون الى الشمال الغربى قليلا من منف (مصر ص ٤٧٩) ورأى سيلي أنها قرب مدينة بلبس ، وهو رأى يرى الباحث أنه مبالغ فيه اذ لا يعقل أن يتركهم مرنبتاح يتوغلون فى الدلتا الى شرقها ، حتى محافظة الشرقية وعلى أية حال فان ظروف الهجوم ، يجعل أن مكانه المتوقع يجب أن يكون فى غرب الدلتا ، وأنه يقترب الى الشمال قدر الامكان ، ما يجعل من رأى بيتري يبدو اقرب الاراء الى الصواب (أى فى مكان ما بين الضهرية — على مبعدة ١١ كيلا من كوم حمادة — وبين النجيلية — ١٥ كيلا من كوم حمادة بمحافظة البحيرة) .

25) Hayes, W. C. Op. Cit., P. 353.

(٢٦) د. عبد المنعم أبو بكر المرجع السابق ص ٤٤ .

وانظر : جون ويلسون : الحضارة المصرية ص ٤٠٥ .

ماء في القرية ليحفظه حيا ، وبدت وجوه أخوته متوحشة فحاولوا ذبحه ، وحارب كل واحد من قواده رفاقه ، وحرقت خيامهم ، وصارت رمادا ، وأصبحت كل أمتعته طعاما للجنود» (٢٧) • ثم يصف النص وصوله الى بلاده ، وهو يبكي ، ولم يجد من بين مواطنيه من يستقبله ، وأنهم كانوا يسمونه الامير المعاقب ، ذو المصير الاسود ، ثم يصف النص بعد ذلك حالة ليبيا ، «هكذا يتحدث كل شخص لابنه : الويل لـ «رييو» فقد منعوا حياتهم المرضية ولا يمرح الواحد منهم في الحقول ، فقد قضى على تجوالهم في يوم واحد ، كما قضى على التحنو في عام واحد فقد حول الاله ست ظهره عن رئيسهم ، وخربت مساكنهم بسلطانة ، ولا يوجد عمل لحمل السلال في ذلك اليوم» (٢٨) • (وربما كان ذلك عمل الليبيين في وقت السلم ، اذ كانوا حمالين للقوافل) •

وهكذا انتهى تهديد الليبيين وأنفذت الحدود المصرية الغربية ، واطمأنت مصر فترة من الزمن ، وقد احتفل المصريون بذلك ، وأصبح من المستطاع «أن يمشى الانسان بخطوات متتدة ، لانه لا أثر للخوف في قلوب الناس ، وقد تركت الحصون وشأنها ، وأصبحت الابار مباحة ، يستطيع أن يرد هاكل مسافر ، وأبراج الجدران هادئة تغمرها الشمس حتى يستيقظ حراسها والمجا» (٢٩) (المازوى) يتهددون خارجها ، وكأنهم نيام ، أما «ناو Nau » و «تكتن Tekten» (٣٠) فهم في المروج يمرحون كما يرغبون ، وماشية الحقول منطلقة على حريتها تسير بدون راع حتى في أثناء عبورها مياه القنوات ، وليس هناك صياح بالليل : قف ؟ أنظر : انه شخص قادم ، قد أتى يتكلم لغة الاجانب ، بل يذهب

27) Wilson, J. ANET, P. 377.

28) Ibid., P. 377.

(٢٩) المجا أو «المازوى» كانت تطلق على قبائل نوبية قوية اشتهرت بالقيام بالحراسة وشاع استخدامها في البوليس الى درجة أن هذه الكلمة أصبحت تطلق على رجال البوليس وان لم يكونوا نوبيين أو من هذه القبيلة .

(٣٠) ثاو Nau ، تكتن Tekten : هم حرس الحدود الصحراوية (Wilson, ANET, P. 378.)

الانسان ويجىء وهو يغنى ، ولا يسمع المرء انسانا يصيح كأنما هناك حزن ، وعمرت المدن ثانية ، والذي حرث محصوله سوف يأكله (يحصده) ، لان «الرعى» أعاد نفسه ثانية الى مصر ، وقد ولد ، وهو مقدر له أن يدافع عنها ، ملك مصر العليا والسفلى ، با أن رع ، مري أمون ، ابن رع ، مر ان بتاح ، حوتب حرماعت (٣١) .

وهكذا استطاع مرنبتاح أن يهزم هذا التحالف على طول الحدود المغربية للدلتا ، وحق لشاعره أن يصوره بأنه «الشمس التى أزاحت الغيوم التى رانت على مصر وجعل مصر ترى اشعة قرص الشمس مزيج جبل المعدن من فوق رقاب الناس ، ولذا فهو قد أعطى النفس للشعب (العامة) الذى قد اختنق (٣٢) . وهكذا أظهرت مصر قوتها وتفوقها على الاجانب ولكن لم يكن ذلك الا لأجل ، فما لبث هؤلاء أن عاودوا محاولتهم ، كما حاولت شعوب البحر الوصول الى مصر ، ولكن تصدى لهم رعمسييس الثالث ، واستطاع أن يفسد محاولتهم فلم يتمكنوا من غزو البلاد ، كما سنفصل ذلك فيما بعد .

ثالثا : فى عهد الاسرة العشرين

١ - الحرب الليبية الاولى :

كتب للملك «رعمسييس الثالث» (١١٨٣ - ١١٥١ ق.م) - ثانى ملوك الاسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م) - أن يدافع عن مصر ثلاث محاولات لغزوها - من الغرب والشمال - وكانت كلها بسبب عدم استقرار شعوب البحر ، غير أن واحدة منها فقط هى التى قامت بها شعوب البحر (حملة السنة الثامنة ، حوالى عام ١١٧٤ ق.م) ، وأما الغزوتان الاخريان فقد قام بهما الليبيون الذين هددوا حدود البلاد المغربية وأثساعوا القلق بين سكانها ، وان كان ذلك لم يبدأ منذ عهد رعمسييس الثالث ، وانما يرجع الى أيام مرنبتاح الذى استطاع أن

31) Wilson, J. ANET, P. 378.

32) Ibid., P. 376.

يلقنهم درسا قاسيا ، وأن يبعد أطماعهم في الاستيلاء على أرض مصر الخصبة ، ومن هنا لا نراهم يستغلون فرصة التطاحن على العرش فيما بين عهدي درنبتاح وست نخت ، ويقوموا بغزو الدلتا ، وان كانت هناك شواهد تدل على أنهم لم يضيعوا الفرصة نهائيا ، اذ استغلوها في تنظيم أنفسهم واعداء الثقة الى جنودهم بعد المهزيمة المفكرة التي لاقوها على يد مرنبتاح العظيم ، حتى رأى «جان يويوت» أن قبائلهم تندققت في عهد ست نخت ، واحتلت المتحصينات الغربية لحدود مصر ، ووصلت غاراتهم الى سيوه (٣٣) ، وحتى أن «مولر» يرى — كما يذكر سليم حسن — أن «ست نخت» (١١٨٤ — ١١٨٢ ق م) قام بطردهم في عهد مبكر ، غير أنه لم يذكر لنا المصدر الذي استقى منه هذا الخبر ، ويضيف سليم حسن كذلك أنه يجب أن نسلم بأن تحصين الحدود وحمايتها قد حال بين هذا العدو وبين استيطانه الدلتا فعلا ، وتدل الوثائق التي لدينا على أن هؤلاء القوم كانوا على الحدود ، وأنهم لم يتعدوها في سكانهم (٣٤) . ومع ذلك فإن «دريوتون» يرى أن الليبيين الذين جذبهم الى مصر داعى الحياة السهلة قد امتنعوا بمجرد اقامتهم بمصر عن احترام التعهدات التي ارتبطوا بها لكي يقبلوا في مصر ، وتحرروا من دفع الضرائب والقيام بالسخرة ومن الخدمة في الجيش ، وبهذا أصبح أغنى جزء من البلاد ضحية لمفوضى تكاد تكون عامة (٣٥) ، ولعل ما يعنيه من ذلك أن الليبيين قد أقاموا في مصر ، دون أن يكون للحكومة المصرية أى سلطان عليهم ، وأظن أن هذا لم يحدث ، وأن الوقت الذى سيفعل الليبيون فيه ما يقارب ذلك مكانه في نهاية الاسرة العشرين ، وليس في أولها ، وأيا كان الامر ، فإن مصر أصبحت الان بين فكي الكماشة ، فشعوب البحر يهددون حدودها الشرقية ، والليبيون يهددون حدودها الغربية .

(٣٣) جان يويوت : مصر الفرعونية ص ١٤٠ .
 (٣٤) د . سليم حسن : مصر القديمة ج ٧ ص ٢٨٦ .
 (٣٥) تريوتون ، فاندنيه : مصر ص ٤٨٢ .

كان الاحتكاك الاول بين رعمسيس الثالث وبين الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر ، كان في السنة الخامسة من حكمه ، ويرجعه المؤرخون الى تهديد الليبيين وحلفائهم لمصر ، وان كان هناك سبب آخر تشير اليه النصوص المصرية ، ذلك أن رعمسيس الثالث أراد أن يفرض عليهم حاكما من قبله ، ويبدو أن مصر قد أصبح لها يد في تعيين الحاكم الليبي منذ أيام مرنبتاح الذى تدخل في عزل الحاكم الذى حاربه بعد أن هرب من مكان المعركة ، بل وأن الدكتور سليم حسن يرى أن مرنبتاح نصب مكان هذا الحاكم أخاه (٣٦) .

وينتھز الليبيون فرصة الضعف التى أتت بعد مرنبتاح ليحافظوا على استقلالهم بل ويحاولوا الاستقرار فى الدلتا ، وكان السبب المباشر للحرب الليبية الاولى فى عهد رعمسيس الثالث محاولة الفرعون أن ينصب عليهم ملكا من اختياره ، وان كانت النصوص تشير الى أنهم «قد طلبوا رئيسا بأفواهم وليس بقلوبهم» ، ومعنى هذا أن الليبيين طلبوا من رعمسيس الثالث أن يختار لهم حاكما ، وان كان ذلك لم يكن عن رضى منهم ، بقدر ما كان يوحى من الفرعون ، وأيا كان الامر ، فان رعمسيس الثالث ينتھز الفرصة ، وقد كان جلالته نافذ البصيرة ، داهية مثل تحوت ، وقد رثيت قلوبهم وخطتهم ، وحكم عليها فى حضرته ، وكان جلالته قد احضر ولدا صغيرا من أرض تمحسو ، وهو طفل ، وقد عضده بقوة ساعديه ، ونصبه عليهم رئيسا لينظم بلادهم (٣٧) وهكذا اختار رعمسيس الثالث ينتھز الفرصة ، وقد كان جلالته نافذ البصيرة ، داهية مثل تحوت ، عارضت هذه القبائل تعيينه فكانت الحرب ، وعلى أية حال ، فسواء أكان ذلك هو السبب الرئيسى ، أو أن غزوهم كان تكرارا للمحاولات السابقة منذ عهد سبتى الاول ، فان هذه الحرب الليبية الاولى انتهت بهزيمة

(٣٦) د . سليم حسن ارجع السابق ص ٢٨٨ .

37) Edgerton, W. & Wilson J. Historical Records of Ramesses III, P. 25.

الليبيين هزيمة منكرة على حدود الدلتا الغربية ، عندما كانوا في طريقهم الى منف •

ويرى بعض المؤرخين أن فريقا من شعوب البحر قد تحالفت مع الليبيين في هذه الحرب — كما حدث في أيام مرنبتاح — فيرى «برستند» أن هناك فريقا من شعوب البحر اتجهوا بأساطيلهم التي يقودها رجاء منامرون الى شواطئ الدلتا ، متبعين أساليب النهب والقرصنة أينما حلوا ، وحينما وصلوا الى شواطئ أفريقية انضم اليهم الليبيون الذين كانوا يأملون في نهب أراضي الدلتا الخصبة واحتلالها ، ثم تقدموا معا — برا وبحرا — حيث قابلهم رمسيس الثالث ، وحدثت بينهم معركة انتهت بهزيمتهم^(٣٨) • ويرى كذلك أستاذنا الدكتور عصفور أن الهجوم الذي شنّه الليبيون كان بمعاونة حلفائهم من شعوب البحر ، وقد استطاع رمسيس الثالث أن يهزمهم على حدود الدلتا الغربية^(٣٩) •

ومن ناحية أخرى فهناك فريق آخر من المؤرخين يعارض هذه الفكرة ، ذلك أن «جون ويلسون» يرى أن مناظر الحرب العشرة الموجودة بمدينة هابو لا تصور اعداء ، باستثناء جيش (ريبو — تحنو) وأن شعوب البحر المصورين كانوا يحاربون في جانب مصر كمرتزقة ، كما أن النقوش المصاحبة لم تذكر الشماليين اطلاقا وأن نقش السنة الخامسة الذي يعطى بيانات عن هذه الحرب ، ينقسم الى قسمين ، قسم يعالج الحرب الليبية الأولى ، وقسم منفصل يعالج الحرب ضد شعوب الشمال ، وأن المعركتين بقتينا مختلفتين ، ومن هنا فليس هناك تحالف ، بخاصة وأن الاشتباك الحاسم كان على حافة الصحراء في الركن الشمالي الاقصى من الدلتا^(٤٠) •

ويبدو لي أن الحرب كانت في جملتها من الليبيين ، وان كان هذا لا يمنع من أن بعضا من شعوب البحر قد ساعدوا الليبيين في حملتهم هذه

38) Breasted, J. H. Cambridge Ancient History, II, P. 173.

• د محمد أبو المحاسن عصفور المرجع السابق ص ٢٠١ •

40) Wilson, J. AJSL, LI, P. 77.

ضد مصر • وان لم يكن ذلك بصورة رئيسية ، ذلك لان هذه الحرب الليبية الاولى كانت أصلا من الليبيين ، ويذكر سليم حسن أن «(فرشنسكى)» قد استنبط أن نصوص هذه الحرب تذكر «(التمحو)» بكثرة بالنسبة لاسمى «(الليبيين والمشوش)» ومن هنا فان أعداء رعمسيس الثالث في هذه الحرب هم في الاصل أهل «(التمحو)» ، ولكن من جهة أخرى فان كلمة «(تمحو)» أصبحت في هذا الوقت لا تعنى ما كانت تعنيه في الأزمان السالفة لهذا الوقت ، وأن رعمسيس الثالث قد أكتفى هنا بذكرهم في هذه الحروب الاولى بصفة عامة ، بدلا من تعداد أسماء القبائل الأخرى التى كان يتألف منها الشعب الليبى ، لانهم كانوا الجنس السائد (٤٢) •

ولو رجعنا الى التحالف الليبى في السنة الخامسة لوجدناه يتألف من (رييو — سبد — مشوش) (٤٣) ، و(تمحو — سبد — مشوش) (٤٣) فأما «(سبد)» فنحن لا نعرف عنهم شيئا (٤٤) • وأما ذكر «(التمحو)» فلم يكن الا أمرا تقليديا ، أو في منظر عام ليشم كل الأعداء الغربيين ، ومن المحتمل كثيرا أنهم لم يصوروا في الحرب كقوم لهم «(كيان سياسى)» وأن الملابس وترتيب الشعر في نقوش الحرب الاولى من أسلوب (تمحو — رييو) الليبى ، أكثر من أسلوب المشوش الذى صور بوضوح في الحرب الثانية ، ولهذا فان «(رييو)» الذين يدعون تمحو في الغالب كانوا يقودون المعتدين في الحرب الليبية الاولى ، كما أن المشوش كانوا أبطال الحرب الليبية الثانية •

أما عن تطورات هذه الحرب وسير المعركة ، والاستعدادات التى قام بها رعمسيس الثالث ، فان هناك سلسلة من المناظر الرائعة المصورة على الجدارين الخارجين — الغربى والشمالى — بمبعد مدينة هابو ، بالإضافة

(٤١) د • سليم حسن المرجع السابق ص ٢٨٧ •

42) Edgerton, W. & Wilson J. Historical Records of Ramesses III, Pl. 16 P. 7.

43) Ibid., Pl. 22. P. 13.

44) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, 1961. P. 283.

الى نقش السنة الخامسة المشهور ، وهى — كغيرها من نصوص جدران المعبد — تشير بصفة عامة الى الحروب التى خاضها رعمسيس الثالث ، وهى مليئة بالعبارات الطنانة والمبالغات الكثيرة ، ويلعب المجاز فيها دورا ضخما ، هذا فضلا عن الكثير من الصفات والنعوت وعبارات المديح والاطراء للفرعون ونصره على العدو ، وذلك على لسان موظفيه من رجال البلاط ، ولكن ذلك — بطبيعة الحال — لا يخلو من الحقائق ، وان قلت ، ولكنها هامة ، بخاصة وأنها مصدرنا الوحيد عن هذه الحرب .

وتأتى الاخبار الى الفرعون بأن التحنو يتحركون ، وهم يتآمرون ، وقد تجمعوا واحتشدوا فى عدد لا يحصى ، وهم مكونون من (ريبو ، سبد ، مشوش) ، وقد احتشدوا ليزحفوا الى مصر قاصدين أن يكونوا سادتها ، وقد وصل جلالته عند أفق الاله المسيطر (معبد أمون رع) ليصلى من أجل النصر ، ولينال سيفاً بتاراً من والده أمون سيد الالهة ، وقد بعثه بالقوة ، ويده معه ، ليقضى على أرض التمحو الذين تعدوا حنوده ، وقد كان الالهان «مونتو» و «ست» حمايته السحرية عن يمين وعن شمال ، كما كان الاله «وب واوات» يخرق الطريق أمامه ، وقد جعلوا سلطانه قويا ، وقلبه شجاعا ، لي طرح أرضا هذه البلاد المتفاخرة (٤٥) .

ويقدم لنا المنظر الاول لهذه الحرب رعمسيس الثالث كمفوض من أدون للقيام بالحرب الليبية ، اذ نشاهده وهو يتسلم سيفه المعقوف (Sickle - Sword) ، بحضور الالهين «تحتو» و «خونسو» ، وهذا يرمز للتصريح للفرعون بالحرب ومنحه الثمر (٤٦) ، وفى منظر آخر يخرج رعمسيس الثالث من المعبد ممسكا بالسيف المعقوف والقوس ، ويتبعه اله الحرب «مونتو» ، ويسبقه كهنة يحملون أربعة أعلام ، هى أعلام «وب واوات» فاتح الطريق ثم خونسو وموت وأمون ، ثم نقش جاء فيه

45) Historical Records of Ramesses III, Pl. P. 7-8.

46) Ibid., Pl. 13 P. 4.

«لقد ارتحل جلالته وقلبه قوى ٠٠٠٠ وفى شجاعة وبطولة ، الى بلاد تمحو «تمح Tmh) الخاسئة التى تحت سلطان جلالته ، وأن والده قد سيره فى رزانة من قصر طيبة ، وقد منحه سيفاً ليصد به أعداءه ، وليهلك من لم يكن خاضعاً له ، وقد فتحت أمامه الطرق التى لم تكن مطروقة» (٤٧) .

ويشاهد بعد ذلك كه اله من الالهة ، يخاطب الملك ويعدده بالمساعدة كل فيما امتاز به ، فالاله «مونتو» (اله الحرب) يذبح له الاعداء ، والاله «وب واوات» يفتح له كل طريق يؤدى الى النصر ، والاله «خونسو» يجعل يديه قويتين على الاقواس التسعة ، والالهة «موت» تكون له حرزا سحرى الى الابد ، والاله أمون يذهب معه الى المكان الذى يرغب فيه ، جاعلا قلبه فرحا فى البلاد الاجنبية ، كما أنه ينشر الرعب منه ، ويولد الرهبة منه فى كل أرض أجنبية» (٤٨) . وهكذا نجد أن الالهة كانت تلازم الفرعون فى حروبه ، كل منهم يحمل علمه ويؤدى وظيفته الخاصة به ، وهذا يدل على مدى تغلغل نفوذ رجال الدين فى كل أمور الدولة حتى فى حروبها ، وربما كان ذلك يرجع الى أن المصريين كانوا يعتقدون أن الفضل فى انتصاراتهم ، ثم تكوين امبراطوريتهم تبعاً لذلك ، كان راجعاً الى آلهين هما «الاله — الملك» الذى قاد الجيوش ، والاله الذى بارك تلك الحروب ، ذلك أن الاله «أمون رع» قد تعطف وأذن بالحملات الحربية ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقود طريقهم الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على الجيوش أن تدفع ما عليهما من دين لامون بعد أن تنتصر ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر .

ويتقدم رعمسيس الثالث الى ميدان المعركة يتبعه حرسه (شمسو Smsw) الخاص ، وجنوده من المصريين ، والاجانب كذلك ، ويبدو أن ميدان المعركة كان على جانب تل فى صحراء حمراء قد خضبت

47) Ibid., Pl. 14 P. 5.

48) Ibid., Pl. 14 P. 6.

بدماء غزيرة ، وقد رأى فيه الدكتور صالح مكانا قرب وادى النطرون^(٤٩) ورأى الدكتور فخرى أننا لو تتبعنا دروب الصحراء لوجدنا أن هذه المعركة ، اما أن تكون قد حدثت على مقربة من الفرع الكانوبى ، أى فى نهاية الطريق الساحلى ، أو عند «كـوم أبو بللو» وهى احدى المدن المصرية الهامة فى ذلك العهد ، واما الدرب الموصل من الصحراء الى الدلتا عن طريق ودى النطرون^(٥٠) ، ورأى «جون ويلسون» أنها ربما تكون فى مكان ما غرب بحيرة مريوط^(٥١) ، وأما النصوص المصرية فتذكر أن مكان المعركة كان عند مدينة «وسر ماعت رع مرى أمون» ، طارد التمحو^(٥٢) ويرى «جاردنر» أن هذه المدينة قد ذكرت ثلاث مرات فى مناسبات مختلفة بمعبد مدينة هابو ، وأنها تقع فى الصحراء قرب بحيرة مريوط^(٥٣) . وأيا كان الامر فان مكان المعركة لابد وأن يكون فى مكان ما فى الصحراء قرب حدود الدلتا الغربية .

وتنتهى المعركة بنصر مبین لرعمسيس الثالث ، ونراه يحتفل بانتصاره على الليبيين ، فيشاهد واقفا فى الشرفة ، وعربته منتظرة خلفه ، وهو يخاطب موظفيه الذين يحيونه بكل احترام ، ثم نرى الضباط المصريين يقودون الاسرى من الليبيين ، بينما يحصى الكتبة عدد الايدى المقطوعة فى ثلاث كومات ، وأعضاء الاكثار فى كومتين ، ثم يخاطب الفرعون موظفيه قائلا : «تأملوا الانعامات العديدة التى أتمها أمون رع ملك الالهة على ابنه الفرعون ، لقد أودى ببلاد (تمحو ، سبد Seped مشوش) الذين كانوا لصوصا يعيثون فسادا فى مصر يوميا ، وقد أصبحوا مطروحين أرضا تحت قدميه ، وقد بترت أقدامهم ، ولم يبق واحد منهم ، وقد انقطعت أقدامهم عن أن تطأ مصر أبدا ، وذلك بالنصائح الطيبة التى عملها جلالته ، وهى أن تحافظ على مصر التى كانت قد خربت ، فأفرحوا

(٤٩) د . عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٥٠) أحمد فخرى مصر الفرعونية ص ٣٧٢ .

51) Wilson J., AJSL, LI, P. 77.

52) Historical Records of Ramesses III, Pl. 22 P. 13.

53) Gardiner, A.H. JEA, 5 P. 134.

وابتهجوا حتى عنان السماء ، ذلك لانه قد ظهر مثل «مونتو» ، وقد وسع حدود مصر ، وقد أصبح ساعدى قويا ، وقاهرا للاقواس التسعة بما عمله والدى آمون سيد الالهة (ثور والدته) ، ومبدع جمالى»^(٥٤) . ثم نرى بعد ذلك موظفيه يحيونه بكلمات المديح والاطراء ، وهم يقدمون له كومتى أعضاء الاكثار والايدي التى تمثل أعداد القتلى ، هذا ويرى «ويلسون» أن الارقام التى أعطيت للقتلى والاسرى مضطربة ، ويرى أن الحل المحتمل أن عدد الاسرى بلغ أربعة الاف ، بينما بلغ عدد القتلى ١٢٠٠٠ قتيل^(٥٥) .

وهناك تفصيلات بين مناظر الحرب ، تستحق الذكر — فيما يرى ويلسون — فهناك منظر فى معركة لجندى لىبي مغمور ، وقد صور — بطريقة مؤثرة — وهو يبحث عن زوجته وطفله و نرى المرأة تلبس زى زوجها نفسه ، ويتكون من عباءة طويلة مفتوحة مع نقبة ، وقد صفت شعرها على هيئة خصلة شعر جانبيه ، وأما الطفل فقد كان عاريا ، وان لبس خصلة الشعر الجانبية كذلك^(٥٦) .

ويعود رعمسيس الثالث من حملته هذه مصحوبا بالجند والموظفين ، وهم يسوقون الاسرى من الليبيين أمام عربته ، وقد صور الليبيون مربوطين أسفلها وبعد أن يستقر فى قصره يأمر بنقش النص المعروف بنقش السنة الخامسة — وان رأى البعض أنه نقش بعد حرب السنة الثامنة لذكرها فيه — يسجل فيه أنه كسر العمود الفقرى لاهل التمحو الى الابد ، ولم تعد أقدامهم تطأ حدود مصر ، أما قوادهم فقد نظموا وصفوا رمزا بالانتصارات ، ووسموا باسم جلالته العظيم ، والذين هربوا كانوا تعساء وارتعدوا ، ولم تعد أفواههم تستطيع أن تستذكر طبيعة أرض مصر ، وأهل تمحو هربوا وجردوا ، وقوم المشوش كانوا فى حيرة فى أرضهم واجتثت جذورهم ، ولم يكونوا فى حالة واحدة ،

54) Historical Records of Ramesses III, Pl. 22 P. 13-14.

55) Wilson J., AJSL, LI, P. 77.

56) Ibid., P. 77-78.

وكل جزء من أجسادهم كان ضعيفا من الفرع ، وقالوا أنها هي التي تقسم ظهورنا مشيرين الى مصر ، وسيدها هو الذى قضى على أرواحنا الى أبد الابدين وبذرتنا قضى عليها ، ويخسون بالذكر من زعمائهم «ديد Ded» و «مشكن Meshken» و «مري Mry» و «ورمر Wermer» و «تثمر Thetmer» وكل رئيس عدو قد هاجم مصر من ليبيا قد أصبح فى النار من أوله الى آخره ، وقد ردت الالهة الجواب بذبحنا لأننا قمنا بهجوم قصدا على أقاليمهم (٥٧) .

وهكذا تنتهى الاضطرابات على الحدود الغربية ، ويأمن المصريون على أنفسهم حتى أصبح «فى استطاعة المرأة أن تذهب حيث شاءت بملابسها على رأسها دون أن تعاق خطواتها الى المكان الذى ترغب فيه» (٥٨) ، ويتابع الفرعون حديثه ، ويزعم أن الممالك الاجنبية قد أنت منحنية لمشهرة جلالته ، ومعهم أطفالهم وجزييتهم على ظهورهم ، وأصبح أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء يمتدحونه (٥٩) .

ب - الحرب الليبية الثانية :

لقد خاض رمسيس الثالث حربا ضروبا فى البر والبحر ضد شعوب البحر الشماليين فى سنته الثامنة ، وكتب له فيها نصرا مؤزرا وكان يأمل أن تكتب له الراحة بعد هذا العناء الذى لاقاه فى حروبه دفاعا عن حدوده الغربية والشرقية ، وفعلا فقد مضت سنون قلائل على ذلك . استغلها فى عمل الاستحكامات اللازمة ، وتقوية جيشه وتزويده بالعدة والعتاد اتقاء لخطر قد يقع وهو فى غفلة من أمره ، من الشرق كان ذلك أو من الغرب ، وقد صدق حدس الفرعون ، اذ لم تأت سنته الحادية عشرة حتى نرى الليبيين يعيدون تنظيم أنفسهم ويهاجمون مصر ، ولكن «ويلسون» يقدم لنا تفسيرا آخر ، ذلك أنه يرى أن الحرب الشمالية قد جذبت كل انتباه المصريين عن الحدود الغربية اثناء هجوم شعوب

57) Historical Records of Ramesses III, Pls. 27-28 P. 27-23.

58) Ibid., Pls. 27-28 P. 30.

59) Ibid., Pls. 27-28 P. 30.

البحر ، ومن هنا فقد تركوا حدودهم الغربية دون حراسة ، فأعطوا الليبيين الفرصة في أن يخترقوا الدلتا بسهولة ، لدرجة أنهم استطاعوا أن يعبروا الفرع الكانوبى للنيل ، وقد بلغت المشوش السهولة التى دُخِل بها الليبيون البلاد ، ومن هنا انطلق المشوش بعائلاتهم وأمتعتهم ليدخلوا مصر (٦٠) .

كانت راية الزعامة في هذه المرة قد عقدت لقوم المشوش — وكانت زعامة الحرب الليبية الاولى لـ « ريبو » — واستطاع زعيمهم «كبر Kaper» أن يجعل القبائل الليبية تحت لوائه ، وان كانوا هم السابقون للغزو فيما يرى ويلسون (٦١) ، ويرى «دريوتون» أن «كبر» قد عمل قبل أن يهاجم مصر على أن يثبت دعائم السلام في ليبيا التى يبدو أنها كانت مضطربة دائماً من جراء ثورات أهلها الاصليين (التحنو) ، فجعل من هؤلاء رفاقا على حد تعبير النصوص المصرية ، وبعد ذلك فقط قرر «كبر» أن ينفذ الى مصر (٦٢) . ولكن «ويلسون» يرى أن المشوش أثناء تحركهم نحو مصر قد نهبوا الليبيين التحنو المحايدين — كما فعل قوم ريبو على أيام مرنبتاح — ولا يوجد تبرير للقول بأن التحنو قد انضموا الى المشوش في تحالف لمهاجمة مصر ، وأن دورهم كان دور الدولة الحاجزة المسالمة ، وأن نصيبهم كان بالتأكيد السلب بواسطة الجيوش العابرة (٦٣) . ويبدو لى أن رأى ويلسون هو الاقرب الى الصواب ، وأن المشوش قد هاجموا مصر ، وأنهم قاموا بالدور الرئيسى في هذه المرة — كما كان الليبيون في الحرب الاولى — وأن التحنو كانوا مسالمين ، وأنهم قد هوجموا من المشوش أثناء مرور الاخيرين بهم في طريقهم الى مصر ، وأن التحالف — ان كان هناك تحالف — فقد كان بين المشوش وريبو ، وليس بين المشوش والتحنو .

60) Wilson, J., Op. Cit., P. 79.

61) Ibid., P. 79.

(٦٢) تريوتون ، فاندويه مصر ص ٤٨٥ .

63) Wilson, J. Op. Cit., P. 79-80.

استطاع «مششر Meshesher» بن «كبر» أن يقود المشوش ومن تحالف معهم نحو مصر ، كما استطاع أن يقضى على قوم تحنو المسالين والذين كانوا يسكنون في غربى الدلتا على الحدود المصرية مباشرة ، ويحدثنا نقش السنة الحادية عشرة بأن «رئيس المشوش قد أتى ومعه أهله وانقضوا على بلاد تحنو التى أصبحت رمادا ، وقد خربت مدنها ، وأصبحت قفرا ولم يعد لبذرتههم وجود» (٦٤) والمقصود بالتحنو هنا — فيما يرى هولشر — هم الليبيون ، وذلك طبقا لما جاء فى السطر / ٤٦ من نفس نقش السنة الحادية عشرة ، ونصه «لقد تسبب الليبيون فى ارتباكنا واورثباكهم ، لأننا أصغينا الى نصيحتهم» (٦٥) ، وبذلك نسب المشوش الهزيمة التى حاققت بهم فى حروبهم مع مصر الى الليبيين ، وقد كان غرضهم الاول هو أن يتخذوا البلاد المصرية وطنا لهم (٦٦) . هذا وقد وافق «جون ويلسون» على هذه الفكرة (٦٧) .

وهكذا استمر المشوش وحلفائهم الليبيين فى تقدمهم داخل البلاد ، ونهبوا المدن الواقعة على الشاطئ الغربى من «منف» حتى «قروبين» (٦٨) وقد وصلوا فى زحفهم حتى النهر العظيم على كلا شاطئيه ، وبمعنى آخر من رأس الدلتا حتى قاعدتها ، أو من القاهرة حتى الاسكندرية على حد تعبير بيتري (٦٩) ، وقد جاء ذكر هذه الحملة فى جزء من بردية هاريس «كان الليبو والمشوش قد استقروا بمصر ، واستولوا على المدن فى غرب المنطقة من «حيكو بتاح» (منف) الى «قروبين» ووصلوا الى النهر الكبير من كل نواحيه ، أنهم هم الذين دمروا مدائن «اكسويس Xoïs» (٧٠)

٦٤) Historical Records of Ramesses III, P. 76.

٦٥) Historical Records of Ramesses III, P. 84.

٦٦) Holscher, W. Op. Cit., P. 65.

٦٧) Wilson J., Op. Cit., P. 79.

(٦٨) قروبين : يظن أنها قرب أبو قير .

٦٩) Petrie, F., Op. Cit., P. 148.

(٧٠) اكسويس : سخا الحالية ، وتقع فى مجاورات كفر الشيخ وعلى مسبعة ٢٤ كيلا الى الجنوب الشرقى من تل الفراعين .

مدى بضع سنوات حين كانوا بمصر»^(٧١) . وتدل الغنائم التي حصل عليها رعمسيس الثالث على أن هؤلاء لم يكونوا من الاقوام الهمج ، بل كانوا مسلحين ومجهزين بأحسن العدد ، فقد كانت سيوفهم عظيمة يبلغ طول الواحد منها أربع أذرع ، وبعضها ثلاثة أذرع . وكانوا كذلك مسلحين بالأقواس والعربات والمكنانات والخيول والحمير لحمل الاثقال .

ويتقدم جلالته لمقابلة أعدائه بشجاعة ، وساعده قوى ، وقلبه معتمد على والده سيد الالهة ، وقد كان كالثور الجبار ، مزودا بالقطعان البرية^(٧٢) وتحدث بين الفريقين معركة حامية ، وقد أبلى فيها مشائته وفرسانه والرجال الاقوياء الذين دربهم على القتال ، وأظهروا شجاعة ، في حين كان هو جدارا صلبا ، وثابتا في زمنهم شاد القوس^(٧٣) .

وتقدم لنا المناظر المصورة بمدينة هابو الجنود المصريين ، وهم يتممون هزيمة الليبيين ، وفي نفس المنظر نرى رعمسيس الثالث ينزل من عربته ليربط أسيرين من الليبيين ، ونصا أمام الملك جاء فيه «الاله الطيب ، عظيم الانتصار ، سيد القوة ، قاتل كل أرض مطوق كل بلاد المشوش بحثا عن المعتدين على حدوده ، داخلا في كل حشد ، ذابحا مئات الالوف ، لا يقف أمامه أحد ، لانه يشبه «بعل» في وقت غضبه»^(٧٤) ، كما يخبرنا النقش أن جلالته قد استولى على ٢٠٥٢ أسيرا ، وأما الذين كان نصيبهم القتل ، فقد بلغوا ٢١٧٥ قتيلا ، هذا فضلا على أنه يظهر لنا أن الالهة «نخبت» سيدة السماء تعطيه كل النصر ، وكل شجاعة ، كما تجعل كل السهول والبلاد الجبلية تحت قدميه^(٧٥) .

وتنتهى المعركة على خير ما يرجوه الفرعون العظيم ، وتتم المجزرة التي أوقعها جلالته بالاعداء من أرض المشوش الذين غزو مصر من

71) Gardiner, A. H; Op. Cit., P. 287.

72) Historical Records of Rameses III, P. 77.

73) Ibid., P. 77.

74) Ibid., P. 77-8.

75) Ibid., P. 60.

مدينة «حات شع Hat - sho » (قلعة الرمل) الى مدينة «وسر ماعت رع مى أمون» التى على جبل «وب - تو» (بداية الارض) موقعا بهم مذبحه تمتد ٨ اتر ، وهناك نقش آخر لنفس الحادث على الجدار الشمالى الداخلى من الصرح الاول ، ونرى رعمسيس الثالث فى عربته يحطم العدو ، بينما المصريون يقذفونهم بسهامهم من حضنين ، يحمل أحدهما الاسم «حات شع» (قلعة الرمل) ، وأما الرواية المصاحبة فتألفه ، وان كانت تقرأ «المجزرة التى أوقعها جلالته فى أرض المشوش الذين أتوا الى مصر من مدينة رعمسيس أمير هليوبوليس ، التى على جبل «وب - تو» الى مدينة حات شعو موقعها اياها فى ٨ اتر (٧٦) Etr ، ويرى «جاردينر» ان هذه الرواية هامة لأنها تعطى مدينة رعمسيس الثالث اسمه فيما بعد التتويج بدلا من اسمه فيما قبل التتويج ، وتظهر نفس المدينة فى النقوش الهيروغليفية كحصن يخاطب رعمسيس جنوده أمامه «لقد دمر الفرعون العدو اللبى أمام مدينة (وسر ماعت رع مى أمون ذابح التمسح) ويذكر جاردينر بعد ذلك أن «دارسى» يقدم دليلا على أن «حات شع» هنا يمكن أن يوحد بمكان انما قد كتب (حات ان شع) وله اله يدعى «مين سيد الرمل» (مين نب شع) Min Lord-of-Sand الذى وجد فى نص غريب عن طقوس المعبد ، ويعنى عدة أماكن فى الركن الشمالى الغربى للدلتا ، ولو أن هذه الحقيقة واضحة بالنسبة اليه ، كما أن هناك تخمينات هامة تؤسس عليه ، فانه يأخذه على أن «حات شع» يجب أن يبحث عنه فى واحة سيوة ، ولكن من المؤكد افتراض وقوعها فى الصحراء قرب مريوط ، وأكثر قبولا أن نفترض أنها تقع فى الصحراء قرب بحيرة مريوط . واصطلاح «وب - تو» (بداية

(٧٦) الاثر Etr ويساوى - فيما يرى - بورخادت .. حوالى ١٠ كيلو مترا .

Gardiner, Onom. II, 135.

والمسافة اذن = ٨٥ كيلا .

الارض) تمتد عادة حتى أقصى جنوب أثيوبيا ، ولكن هناك على الأقل
مثالا آخر على استعمالها مع الاقليم الشمالى الغربى (٧٧) •

وأيا كان الامر فاننا نلاحظ فى هذين النصين أن رعمسيس الثالث قد
استعمل اسمه فى اسم المدينة المسماة باسمه فى النص الاول ، وقد
استعمل لقبه فى اسم المدينة المذكورة فى النص الثانى ، غير أنه لا يوجد
ما يدعونا الى توحيد هذه المدينة المزدوجة الاسم بالمدينة المسماة
«بروسر ماعت رع مرى أمون» التى جاء ذكرها فى بردية هـ-أريس ،
ويحتمل أنه فى تغيير الاسم فى هذين النصين ما يدعونا الى الظن بأنهما
اسمان لبلدين مختلفين ، وأن الموقعة لم تقع فى أحد البلدين ، بل وقعت
فى البقعة التى بينهما ، ولم تحدثنا النصوص عن اقتفاء أثر العدو من
أحد الحصنين الى الآخر ، ومن المحتمل جدا أن المصريين قد حصروا
الغزاة بين هذين البلدين وأصلوهم بسهامهم وابلا من المقذوفات كلما
أرادوا الارتداد من حصن الى آخر ، هذا فضلا عن قتال الجيش للعدو
فى البقعة التى تقع بين هذين المكانين ، ولابد أن العدو فى نهاية الامر قد
اضطر الى التسليم ، ونرى فى المناظر التى تركها لنا رعمسيس الثالث ،
اقتياده أثر العدو فى عربته يساعده فى هجومه المشاه والخيالة ، كما
نشاهد الجنود المصريين فى الحصنين السالفي الذكر يرسلون وابلا من
السهام على المشوش (٧٨) •

لقد شارك رعمسيس الثالث بنفسه فى المعركة ، وإن كان ولى العهد
ربما كان هو قائد الجيش ، اذ نشاهده يسوق الأسرى بنفسه ، كما
نراه ينزل من عربته ويكبل لبيبين ويجرهما خلفه ، ثم يوجه خطابا
للأسرى قائلا : «تأملوا ان الفرعون — له الحياة والفلاح والصحة —
هو الذى دمر أسمكم الى الأبد ، وأن فمكم لن يتفاخر بعد بذكر
مصر» (٧٩) •

77) Gardiner, A. H. JEA, 5 P. 134-5.

(٧٨) د • سليم حسن مصر القديمة ج ٧ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ •

79) Historical Records of Ramesses III, Pl. 74 P. 63.

وتعطينا نقوش المعركة أرقاماً^(٨٠) للغنائم من الرجال والنساء والاطفال والعربات والسيوف وغيرها ، فنرى الفرعون يأسر بسيفه البتار — على حد تعبير النصوص المصرية — ما يزيد على الألفين من الأسرى ، منهم حوالي سبعمئة من النساء والاطفال ، كما يقتل ما يزيد عن الألفين كذلك ، وأما عدد الماشية التي استولى عليها المصريون فكان أكثر من أربعين ألفاً ، معظمها من الماعز والضأن ، هذا بجانب ١٢ عربة ، ١١٦ سيفاً من المشوش ، طول الواحد منها أربع أذرع ، ١٢٣ سيفاً ، طول الواحد منها ثلاثة أذرع ، ٦٠٣ قوساً ، إلا أن أثمن الغنائم على الإطلاق كان «مششر» زعيم المشوش وقائد الحملة ، وتجرى محاولات من جانب الاب «كبر» للإفراج عنه دون جدوى ، بل إنه نفسه يلقي نفس المصير . وتحدثنا القصيدة عن هذه الحرب بأن «كبر» قد أتى يطلب الصلح كالرجل المعصوب العينين ٠٠٠٠٠ وقد ألقى سلاحه هو وجيشه على الأرض ، وصاح حتى غنان السماء متضرعاً من أجل ابنه ، وهنا جمدت قدماه ويده ولم يبد حراكاً في مكانه ، ولا يعلم دخائل أفكاره أو نفسه إلا الإله ، وقد أنقض عليهم جلالته كجبل من الجرانيت حتى أنهم طحنوا وسحقوا واختلطوا بالأرض ، وكانت دماؤهم ٠٠٠٠٠ في المكان الذي كانوا فيه ٠٠٠٠ الماء ، وسحقت جثثهم في المكان الذي كانوا فيه وقبض على «كبر» وسبق إلى حيث ذبح ، وأسر رجال جيشه الذين كانت قلوبهم تعتمد عليه لحمايتهم ، هو قد ذبح وهو مكتف ومكبل كالطير على أديم العربة تحت مواطئ جلالته^(٨١) .

ويكسب رعمسيس الثالث المعركة ، ويبلغ فيها انتصاره حداً جعل المصريون يعتبرونه حدثاً يحتفلون به سنوياً ، وسمى عندهم «عيد قتل المشوش» . وخلع على رعمسيس الثالث لقب «حامي مصر» ، والمدافع عن الأقطار ، وقاتل المشوش ، ومثلف أرض التمحو» ، وقد وصف انتصاره عليهم بقوله ، «أنظروا : أننى قضيت عليهم وذبحتهم بضربة واحدة ،

80) Ibid., Pl. 75 P. 67-9.

81) Ibid., Pl. 85-6 P. 92.

أذلت المشوش والليو والاسبات والقايش والشايتب والهاسا والبقان ، وجعلتهم غارقين في دمائهم مكمين بعضهم فوق بعض ، لقد جعلتهم يرتدون عن وطء حدود مصر ، وأخذت ممن لم يقتلهم سيفى أسرى كثيرين مكتوفى الأيدى ، وربطتهم كالطيور أمام خيلى ، وكان هناك عشرات الآلاف من نسائهم وأطفالهم» (٨٢) .

ويقدم الفرعون لربه آمون كثيرا من غنائمه جزءا لما قدمه له من نصر ، «فأما ماشيتهم فجىء بها الى بيت آمون لتصبح له قطعانا أبدية»، وأما الأسرى فكانوا يوسمون على الكتف بخرطوش الفرعون ، وقد خصص فريق منهم للعمل في معابد الالهة ، وخصص فريق آخر للعمل في الممتلكات الملكية ، بينما هناك فريق ثالث قد عمل كجنود مرتزة في الجيش المصرى ، وقد استطاع قادة الفريقين الاخيرين أن يصلوا الى مراكز القوة في البلاد ، ويبدو أن الأسرى كانوا يرسلون عادة الى منطلق بعيدة عن مجال اضطراباتهم ، ومن هنا فان المشوش الذين هاجموا الحدود الغربية للدلتا قد استقروا في النصف الشرقى من الدلتا ، بينما عمل فريق آخر منهم في قطع الاحجار في جبانة طيبة . وكانت اجراءات تمصيرهم تسير على قدم وساق ، وساعد على ذلك أن الفرعون حرم عليهم أن يتحدثوا بلغتهم الاصلية وأجبروهم على التحدث باللغة المصرية، «أن ريبو ومشوش نقلوا عبر النهر ، واحضروا الى مصر ووضعوا في حصون الملك العظيم ، كى يصغوا (يتعلموا) الى الحديث ، فقلب لغتهم ، حتى يجبروا على السير في الطريق التى لم يسيروا فيها اطلاقا من قبل» (٨٣) .

ومن أسف فان رعمسيس الثالث يبدو أنه نسى عملية «ارسو» في اغتصاب السلطة ، وترسم خطأ رعمسيس الثانى وأنزل أبناء شعوب البحر على شواطئ بحر يوسف ، كما عبر المشوش فرعى النيل ، ليحتلوا شرقى الدلتا ، حيث «نسوا لغتهم الاصلية» (٨٤) .

82) Gardiner, A. H. Ep, P. 287.

83) Wilson, J. AJSL, LI, P. 81.

(٨٤) جان يويوت مصر الفرعونية ص ١٤٤ .

كان انتصار رعمسيس الثالث حاسما بعد أن قضى على الهجوم الثانى على حدوده الغربية ، ولم يعد أمام رعمسيس ما يخشاه من هذه الناحية بعد أن قلم أظفارهم ، ومن ثم فإن الليبيين لم يحاولوا بعد هزيمتهم هذه أن يفرضوا أنفسهم عنوة على مصر ، ولكن يبدو أن هذا لم يكن حلا جذريا للمشكلة الليبية ، إذ أن قوة الليبيين لم يقض عليها تماما ، وبدأوا يتخذون طريقا آخر يفرضون به أنفسهم على مصر ، لقد بدأ الليبيون يهاجرون الى مصر مسالمين — كما كانوا يفعلون من قبل في بعض الاحايين — وقد استمروا يفعلون ذلك تدريجيا ، وفى أعداد قليلة ، ولم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيرا لعلمه بضعفهم وعجزهم ، ونا كان لذلك أثره الخطير في مستقبل الايام •

الفصل الثالث

الليبيون والاسرة الثانية والعشرون

(١) نفوذ الاجانب بعد عهد رعمسيس الثالث :

ازداد عدد الاجانب في مصر في عصر رعمسيس الثالث ، وسرعان ما تسطلوا الى أكثر المناصب أهمية حتى أصبح الكثيرون منهم موضع ثقة الفرعون ومن بطانته الاقربين ، ولابد أن البلاط ظل لا يخلو منهم ، وربما يفسر ذلك ما نراه من تزايد الاعتماد على العناصر الاجنبية ، فرعمسيس الرابع يتابع سياسة أبيه نحو الاجانب حيث يستخدم ثمانمائة عبيزو ، أو «خبيرو» في عمل من أعمال استخراج الاحجار ، ولابد أنه كان هناك عشرات الالوف من الاجانب المستبعدين في الجيش ، وفي المشاريع الحكومية ، وفي مصانع المعابد ، وفي ضياع الملك ونبلائه^(١) . ولم يكن في ذلك خطر على البلاد طالما ظلت قوية يقظة ، وطالما ظلت يدها هي اليد العليا ، أو كان على رأسها فرعون من فراعينها العظام ، من أمثال تحوتمس الثالث العظيم أو ابنه امنحتب الثاني ، أو حتى أمثال رعمسيس الثاني أو الثالث ولكن امر جد مختلف ، ان حدث ذلك في عهد خلفاء رعمسيس الثالث الضعاف ، وفي فترة كانت تقاسى البلاد فيها الامرين ، فبجانب الازمة الاقتصادية التي كانت تعانيها البلاد منذ أخريات أيام رعمسيس الثالث ، كانت تعاني كذلك من نزاع داخلي بين أفراد العائلة المالكة نفسها حول العرش ، فلماذا أضفنا الى ذلك قلة الحروب في الأسرة العشرين بعد عهد رعمسيس الثالث ، وعدم توفر المال اللازم لدفع أجور هؤلاء الاجانب الذين عملوا كمرتزقة في الجيش ، لتبين لنا أن الخطر كل الخطر في اتباع تلك السياسة . ومن هنا فأننا نرى الفراعين يضطرون

1) Wilson, J; Op. Cit., P. 257.

— حين يعجزون عند دفع أجور هؤلاء المرتزقة — الى اقتطاعهم أرضين زراعية واسعة كمرتبات دائمة ، ومن ثم يبدأ نفوذ هؤلاء الأجانب يزداد قوة ، وبمرور الزمن يصبح هؤلاء الذين اتوا الى أرض المكتانة عبيدا يذيعون الرعب بين ساداتهم ، وحتى يصبح هؤلاء الذين أتوا يطلبون الرزق في مصر مثار قلق واضطراب فيها •

وهكذا بدأت عصابات هؤلاء الأجانب من الليبيين والمشوش تجوس خلال مصر العليا ، وتهدد العاملين الآمنين من جماعات العمال الذين كانوا يعملون في مقابر الملوك لسنوات عدة ، ويبدو — فيما يعتقد أرك بيت — أن هذه كانت طلائع مبكرة انتهت بالسيادة الليبية على مصر^(٢) ، بينما يرى «جون ويلسون» أن هؤلاء الأجانب لم يكونوا قبائل من البدو جاءوا من الصحراء فغزوا وادى النيل من الغرب ، فلو كان الامر كذلك ، لتمكن شرطة الجبانة من ايقاف أمثال تلك العصابات عند حدها ، ولكنهم كانوا — على الأرجح — من الجنود المرتزقة المخذن جاءوا الى مصر كأسرى حرب ، أو تطوعوا في صفوف الجيش ، ولم يصبح لهم عمل لانه لم تعد هناك حملات حربية يشتركون فيها ، ومن ثم أصبح هؤلاء الجنود محرومين من نهب أعداء مصر ، وربما لم تدفع لهم مخصصاتهم كما حدث لعمال الجبانة فأخذوا يعيشون من نهب سكان مصر نفسها^(٣) •

وهكذا كانت تلك الايام شديدة على المصريين ، حتى أنهم أنفسهم أطلقوا على احدى سنواتها «سنة الضياع» ، عندما كان الناس جياعا^(٤) وحتى أصبحت التقارير الخاصة بعمال الجبانة تذكر أياما كثيرة ، اضطر فيها العمال الى ايقاف العمل «بسبب الأجانب» وبالتحديد «بسبب ريبو»^(٥) ، وحتى أصبحنا نرى موظفى الجبانة يكتبون الى الوزير فى احدى رسائلهم يحذرونه من أن المشوش قد أتوا الى طيبة^(٦) •

2) Peet, T. E. JEA, 12, 1926, P. 258.

3) Wilson, J. Op. Cit., P. 281.

4) Peet, T. E. Op. Cit., P. 258.

5) Wilson, J. AJSL, LI P. 81.

6) Peet, T. E. Op. Cit., P. 258.

وقد جاء أول ذكر لهؤلاء الغزاة على شظايا يومية عمال مؤرخة بالسنة العاشرة من عهد ملك لم يذكر اسمه ، ونعرف منها أن سكان الصحراء قد اندفعوا في تاريخ غير مصدد ، ونزلوا في مدينة «سمن» (Smen) ^(٧) ومن ثم فإن جماعة العمال قد توقفوا عن العمل خوفا من سكان الصحراء وقد برروا خوفهم تماما ، ذلك لأن «سكان الصحراء قد نزلوا الى الغرب من طيبة» لمدة يومين ، وقد ثبت من نص آخر أن سكان الصحراء هؤلاء كانوا من الصحراء الغربية ، اذ جاء فيه أن العمال قد توقفوا عن العمل بسبب الخوف الذي أصابهم من المشوش ^(٨) .

وهناك قطعة أخرى من يومية مؤرخة بالسنة الخامسة عشرة ، ذكر فيها «البيو» على أنهم عبروا النهر جنوب مكان ما ، وهناك اشارة كذلك على أن المشوش كانوا في «تي» أى طيبة على الضفة الشرقية ، وهناك قطعة أخرى لم يذكر عليها تاريخ ، ولكنها في أغلب الظن تتعلق بواحدة من البرديتين السابقتين ، وقد جاءت بها اشارات عن الاجانب ، فقد ذكر مرة «نزل المشوش» وذكر مرة أخرى «نزل الاثيوبون» (كوش) الى طيبة ، وأما عن الدور الذي لعبه هؤلاء الكوشيون فغير واضح ، وان كان يبدو أنه جيش وصل من النوبة ، ونلاحظ أن اسم الملك الذي وقعت في عهده هذه الاحداث لم يذكر ، وان كان «شرنى» حاول أن يضع هذه الاحداث المتى بدأت منذ السنة العاشرة حتى السنة الخامسة عشرة في عهد الملك رعمسيس التاسع ، ذلك لانه لا يوجد ملك آخر — باستثناء رعمسيس الثالث والحادى عشر — حكم هذه المدة في الاسرة العشرين .

هذا ولدينا اشارات على أن العمل قد توقف في الشهر الثالث من فصل الفيضان من السنة الثالثة من عهد رعمسيس المعاصر ، كما جاء ذكر

(٧) مدينة «سمن» وتقع عند قرية الرزيقات الحالية على الجانب الايسر للنيل ، وعلى مبعده ٢٥ كيلو مترا الى الجنوب من مدينة طيبة (الأقصر) .

8) Cerny, J., CAH, II, Part, 2, 1975 P. 617.

الخوف من سكان الصحراء لأيام عدة من عهد هذا الفرعون ^(٩) .

وهكذا تسلك المشوش والليبيو الى مصر العليا ، ينشرون الخراب ويذيعون الرعب ، وبخاصة في منطقة طيبة ، كما تشعبت القبائل الليبية على نطاق واسع في مصر السفلى ومنف وهيرا قليوبوليس (اهناسية) ، وربما كان هذا التسلك مسالما — في مرحلته الاولى على الاقل — ولكنه تسبب آخر الامر في احتلال الدلتا ، حيث نرى الليبيين — تحت قيادة رؤسائهم — في عدد من المقاطعات ، ثم أصبح لهم — بمرور الزمن — مراكز هامة في كل المدن الرئيسية ، ثم ما لبثت هذه المراكز أن أخذت الصبغة الحربية وربما أصبح المصريون غير قادرين على مقاومة تسلك الليبيين ، بل أصبحوا يخشون بأسهم ، ويتقون شرهم ، بل وترتعد فرائسهم بمجرد ظهور هؤلاء الأجانب حتى أن هناك من يرى أن الليبيين قد عاودوا التوسع — سواء في اتجاه الواحات — ومنها الهجوم على طيبة وتدميرها في عهد رمسيس الحادي عشر ، أو في اتجاه فرع رشيد ، حيث كان ملوكهم هم أصحاب السيادة في عهد الاسرة الثالثة والعشرين ^(١٠) .

ولكن العلاقات لم تكن دائما عدائية مع المشوش — بصفة خاصة — فهناك اشارات عنهم مؤرخة من نهاية الاسرة العشرين ، ورغم أنها غامضة ، ونادرة ، ولكنها لا تدل على علاقات عدائية ، «ففى قضية من أيام رمسيس الحادي عشر يعلن فيها أحد صناع البيرة من طيبة الغربية أنه تسلم فضة من المشوش ، وبالتخمين فانها نتيجة تبادل تجارى ، وفى حوالى ذلك الوقت أصدر أحد قواد الجيش أمرا عاجلا يقضى بأن الناس الذين تعودوا اعطاء الخبز للمشوش ، عليهم أن يقدموه حالا ، وهذا يدل على أنهم كانوا يمدون الجيش بأحد الفرق ، ومن ناحية أخرى فاننا نجد أحد الوزراء يوجه خطابا الى شخصية غير معروفة الاسم واللقب طالبا

9) Ibid., P. 15.

(١٠) جان يويوت المرجع السابق ص ١٤٢ .

منه اجصار بوليس «المجاي» الذين كانوا في «بى - احبو» - والتي تقع الآن تحت أنقاض قرية بهيت الحجر بالدلتا - ثم أضاف ما يلى «سوف تأتون وذلك بعد الاطلاع الدقيق على كيفية اطعام المشوش» أو «تصرف هؤلاء المشوش» • وانه من غير المعروف الاسباب التي دعت الوزير الى أن يستدعى شرطة «بى - احبو» بهذه السرعة ، ولكن متسلم الخطاب كان واضحا انه في تلك المدينة ، وأن المشوش كانوا يقيمون بالقرب منها ، واذا صرح ذلك فقد كانوا اذن يقيمون في وسط الدلتا ، ويبدو أن متسلم الخطاب قد ترك مكانه الاصلى ليلحق بالوزير وذلك بعد أن كان مطمئنا الى عدم وجود ما يسيء اليه عن المشوش ، وقد قامت جماعة أخرى من المشوش أنفسهم - ربما بعد ذلك بقليل - في ناحية هيراقليوبوليس التي لا تبعد كثيرا عن مدخل الفيوم ، وكان من نسلهم ذلك الزعيم الذي اعتلى العرش الفرعونى باسم «شيشنق الاول» مؤسس الاسرة الثانية والعشرين^(١١) ، وان كان «جان يويوت» يرى أنه ذلك كان في مدينة «بويسطة» بمنطقة الحدود ، حيث أسكن الرعامسة غالبية المستوطنين الليبيين ، وأن سلالة «يويو واو» المشوش قد وصلت الى القياة العليا لفرق الجند المرتزقة من المشوش ، ولقب القائد بلقب (ما المشوش) أى (ملك ما العظيم) ثم نجحت هذه الاسرة - فيما بعد - في بسط نفوذها على الوادى كله^(١٢) .

وهكذا نجد أن شواهد الاحوال تدل على أن الليبيين قد تغلغلوا في داخل البلاد ، ولم تقتصر اقامتهم على المناطق الغربية فحسب ، كما أنها تدل على أن المسئولين كانوا يعملون على ارضائهم ، ويلزمون رؤسهم بامدادهم بالطعام ، وفي نفس الوقت يحاولون الاستعداد ليأمنوا شرهم ، فان استدعاء الشرطة على عجل لا يعنى سوى الخشية من حدوث ظروف غير عادية ، أو بالاحرى حدوث ما ينذر بخطر عدم الامن والفوضى ، وربما تظورت العلاقة بين الدولة وبين هؤلاء الاجانب المستوطنين

11) Cerny, J., Op. Cit., P. 16.

(١٢) جان يويوت المرجع السابق ص ١٦٠ .

فأصبحت لا تكتفى بحصر اقامتهم فى الاماكن القريبة من ليبيا فحسب ، بل جعلتهم يقيمون فى مناطق الحدود الحساسة حتى فى شرق الدلتا ، ومع كل ذلك يمكننا أن نستنتج على الأقل أن هؤلاء الليبيين حازوا ثقة الملوك فأسكنوهم بالقرب من عاصمتهم فى شرق الدلتا •

(٢) أسرة شيشنق الليبية :

لا ريب فى أن الأصول الاولى للملوك الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٣٠ ق م) انما ترجع الى أولئك المشوش الذين عرفناهم فى الحملة الليبية الثانية « (حوالى عام ١٧٧١ ق م) » ، وقد كتب لرعمسيس الثالث نجما بعيد المدى فى سحق هجومهم على حدوده الغربية ، وان لم يمنع ذلك النصر أولئك المشوش من أن يأتوا الى مصر مسالين ، ثم سرعان ما انضم الكثيرون منهم الى الجيش المصرى كمرتزقة •

وقد أقامت جماعة منهم فى « (اهناسيا) »^(١٣) ، وهى الجماعة التى سيكون منها « (شيشنق) » ، مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، وكان يحمل لقب « رئيس المشوش العظيم » ، وهى تسمية ربما ترجع فى أصلها الى منطقة « (شط الجريد) » ، جنوبى قرطاج فى تونس ، ومن ثم فقد حمل كثير من الامراء الصغار لقب « (أمير أو عظيم أو رئيس) » مستعملين الكلمة المصرية « (ور) » أو الكلمة الليبية « (مس) » ، وغالبا ما كانوا يكتبون كلمة المشوش مختصرة الى « (مى) » أو « (ما) » ، ثم استقر المشوش فى الواحات المصرية ، وخاصة فى الداخلة والبحرية ، فضلا عن الوادى نفسه ، ولعل أحدث إشارة عن هؤلاء المشوش ، انما كانت على « (لوحة بعنقى) » ، حيث

(١٣) اهناسيا : وتعرف الان باهناسيا المدينة ، وتقع على الجانب الغربى للوادى على بحر يوسف فى مقابل مدينة بنى سويف ، وعلى مبعدة ٥٥ ميلا الى الجنوب من منف ، وكانت عاصمة البلاد على أيام الاسرتين التاسعة والعاشرة ، وأما اسمها المصرى القديم فهو « (نن - نى - سوت) » ويرجع أصله الى عصور ما قبل التاريخ ، وان كان أقدم ذكر لها فيرجع الى عهد الدولة القديمة ، وهو « (ننو - نسوت) » بمعنى مدينة الطفل الملكى ، وكان « (حشرف) » معبودها الرئيسى ، وقد قرنه الرومان بمعبودهم البطل « (هيرقل) » ، ومن ثم فقد سميت المدينة « (هيراكليوبوليس) » (انظر : M. G. Mokhtar, Ihnasya - El Madinah, Cairo, 1957, P. 55-69)

ذكرت على الأقل ستة من أمراء «ما» ، كحكام لمدن مختلفة ، منها أبو صير ومنديس في الدلتا (١٤) .

هذا وقد ساعدت الظروف التي كانت تمر بها البلاد ، كما أشرنا آنفا ، على أن يتمتع المشوش بكثير من النفوذ في جالياتهم التي صبغت بالصبغة العسكرية ، ولعل أقواها تلك التي كانت تعيش في الواحات ، ثم نزحت الى اهناسيا بزعامه «يويو واوا» في أخريات أيام الرعامسة ، ثم سرعان ما أصبح ولده «ماواساتا» واحدا من كهان «حرشف» معبود اهناسيا ، ثم أخذت العائلة تتوارث هذا المنصب الكهنوتي ، ويزداد نفوذها بالتدريج في اهناسيا ، فضلا عن مصر الوسطى ، حتى استطاع «شيشنق» جد مؤسس الاسرة الثانية والعشرين من أن يصبح قائدا للحملة الليبية ، وأن يجمع في يديه السلطتين الدينية والعسكرية في مصر الوسطى ، وأن يحمل ولده «نمرات» (نمرود) على أيامه لقب «رئيس الجيش كله» و «الرئيس الاعظم للجانب» (١٥) .

وهكذا — وطبقا للوحة «حاربسون» (باسن حار ، فيما يرى كتشن) (١٦) ، والتي كشف عنها في «السرايوم» (مدفن المعجول المقدسة في أقصى غرب منطقة سفارة الشمالية) ، وتؤرخ بالعام السابع والثلاثين من حكم «شيشنق الخامس» ، فإن موطن الاسرة الجديدة في اهناسيا ، الامر الذي ارتضته جمهرة المؤرخين ، غير أن «جان يويوت» انما يذهب الى أن أسرة شيشنق انما كانت تققيم منذ أوائل الاسرة الحادية والعشرين

14) J. Cerny, Incursions of The Libyans and Their Settlement in Egypt, in CAH, Part, 2 B, Cambridge, 1980, P. 616-617.

J. A. Wilson, The Libyans and The End of The Egyptian Empire, in AJSL, LI, 1935, P. 81.

A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, P. 120.

15) G. Wainwright, JEA, 48, 1962, P. 89.

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 226-227.

16) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, P. 105-108.

في بوباسطة (في مجاورات الزقازيق) ، وليس في اهناسيا^(١٧) .

وعلى أية حال ، فان نسب «شيشنق الاول — طبقا للموحة حاربسون»
انما هو كالتالى : شيشنق بن نمرود بن شيشنق بن باتوت بن يننشى
بن ماواساتا بن يويو. واوا^(١٨) .

(٣) نشأة الأسرة الثانية والعشرين :

في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد — أو بعده بقليل (أى حوالى
عام ٩٤٥ ق.م) — انتقل الحكم من الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٧
٩٤٥ ق.م) ، الى أسرة ليبية متمصرة — كما تشير الى ذلك أسماء
أجدادها الابعدين — فضلا عن أسماء ملوكها — من أمثال شيشنق
وأسر كون وتكلوت وبماى — وقد ميز حكمها الاولون أنفسهم بلقب
«رؤساء المشوش» ، التى تختصر عادة الى «رؤساء ال ما» ، وان فسرت
أحيانا الى «رؤساء الاجانب» ، ومن الواضح أنهم كانوا أقرباء لاولئك
الايبيين الذين طردهم مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، ومع ذلك ، فانهم لا
يعتبرون غزاة جددا استولوا على البلاد عنوة .

ولعل أكثر النظريات تقبلا أنهم من نسل الأسرة أو المتطوعين
— شأنهم فى ذلك شأن الشردان — استقروا بالبلاد ، ومنحت لهم أرضين
مشروطة بالتزام الخدمة العسكرية ، وربما كان منهم مدنيون — رعاة
أو تجارا أو رقيقا — استقرت قبائلهم على الحواف الزراعية ، وحول
الواحات وحصون الحدود ، منذ أخريات أيام رعمسيس الثالث (١١٨٢
— ١١٥١ ق.م) ، ثم ما لبثوا أن تمصروا — راضين أو مكرهين —
واعتنقوا الديانة المصرية وعبدوا آلهتهم ، فاذا كان ذلك كذلك ، فانهم
قد تكاثروا ، وأصبح لهم من الالهية ما مكنهم من الوصول الى الحكم
بأقل احتكاك ممكن ، وقد فعلوا — ما فعله الهكسوس من قبل — من

17) J. Yoyotte, Egypte Ancienne, Histoire Universelle, I, Paris, 1965,
P. 121.

18) O. Bates, Eastern Libyans, 1914, P. 228.

ناحية انتحال الالقاب الملكية المصرية ، وان احتفظوا بالريشة التي كانت تميز مظهرهم ، ومع ذلك فان عنصرهم الاجنبي انما قد كشف عن نفسه بالاسماء البربرية التي انتحلوها ، مثل «شيشنق وأوسركون وتكلوت» (١٩)

وعلى أية حال ، فلقد استمرت عهود الحكام ذوى الاصل الليبى أكثر من قرنين ، نسوا فى هذه الفترة أصلهم الغريب تماما ، ولم يذكروا عن أنفسهم ، الا أنهم فراعين مصريون ، فحاربوا باسم مصر خارج حدودها وحاولوا أن يستعيدوا لها بعض سمعتها وهيبتها القديمة (٢٠) — كما فعل شيشنق الاول حين قام بحملته المشهورة على فلسطين ، ووصل فيها الى شرق الاردن شرقا ، والى سهل يزرعيل والجليل شمالا ، وأما فى الجنوب فلقد وصل الى عسيون جابر ، على خليج العقبة ، والى حبرون وبئر سبع وغيرهما من مدن جنوب فلسطين — والى عكا وغزة فى الغرب (٢١) —

وهكذا كانت عهود هؤلاء الحكام ذوى الاصل الليبى أقرب من بعض نواحيها الى عهود المماليك المتصرين ، لم يعتبرهم التاريخ أجنب ، بقدر

19) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 324-325, Onomastica, I, P. 120.

W. M. F. Petrie, Ancient Egypt, 1923, P. 19.

J. A. Wilson, AJSL, LI, 1935, P. 73.

JEA, 27, P. 41.

(٢٠) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٢٦٢ .

(٢١) أنظر عن السياسة الخارجية للأسرة الثانية والعشرين (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٦٠٧ — ٦٢٣) .

وأنظر عن حملة شيشنق الاول على فلسطين (محمد بيومى مهران : اسرائيل — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٩٥١ — ٩٥٦ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 329-33.

A. H. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 272-274.

K. A. Kitchen, Op. Cit., P. 294-300.

J. Bright, A History of Israel, 1959, P. 213.

G. E. Wright, BA, 1957, P. 148-149, JBL, 75, 1956, P. 216.

Y. Aharoni, The Land of The Bible, 1966, P. 288-289.

M. Noth, ZDBV, 61, 1938, P. 278-280, PEO, 104, 1972, P. 30.

ما اعتبرهم مغتصبين ، ولم يستطيعوا أن يوثروا في الروح المصرية ، بقدر
ما تأثروا بها ، ولم يمنع اغتصابهم للعرش البلاد من أن يظهر بينهم حكام
مصلحون ، ولم يمنع أصلهم الغريب من أن يخلصوا لمصر واستقلالها ،
ولم يمرض أهل البلاد من المصريين بحكمهم ، بقدر ما قبلوه على مضض
ومرارة (٢٢) .

على أن الصعيد لم يعترف — في بادئ الأمر — بالملك ذى الأصل
الليبي ، ثم سلم بالامر الواقع ، وهنا غادر بعض كهنة طيبة مصر كلها ،
أنفه من الخضوع للحكام ذوى الأصل الليبي ، واتجهوا الى أطراف
الحدود الجنوبية ، على مقربة من الشلال الرابع ، حيث أسسوا أسرة
جديدة تحكم من «نباتسا» ، كما يشير الى ذلك نقش من الكرنك ، وقد
استطاعت هذه الأسرة ، فيما بعد ، توحيد مصر والسودان ، وعرفت في
التاريخ باسم الأسرة الخامسة والعشرين (٢٣) .

وعلى أية حال ، ففي أخريات أيام الأسرة الثمانية والعشرين تفرقت
وحدة البلاد بسبب تنافر الامراء الليبيين ، وانتهى بأن ادعى الملك فيها
ثلاث بنيوت ، بيتان في شرق الدلتا ، وبيت ثالث في غربها ، فأما أول بنيوت
الدلتا فكان في «تانيس» ، وأما الثانى فكان في مدينة «ليونقوبوليس»
(ايم بحسو المصرية) ، وهى تل المقدام الحالية المتاخمة لقرية كفر
المقدام ، على مبعدة ٢٠ كيلا شرقي ميت غمر ، بمحافظة الدقهلية ، وقد
حكم منه «بدو باسفت» (الأسرة الثالثة والعشرين) ، وبيت في غرب
الدلتا ، حيث حكم «تف نخت» (مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين) من
«ساو» (سايس في الاغريقية — صا الحجر الحالية ، على مبعدة ٧ كيلا

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٦٢ .

23) A. Blackman, JEA, 27, 1941, P. 83 F.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 327.

J. Yoyotte, in Melanges Maspero, 1961, P. 60.

A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1965, P. 194.

J. Leclant, Elments pour une etude de la divination dans L'Egypte
Pharaonique, I, Paris, 1968, P. 1-23.

شمال بسيون بمحافظة الغربية) ، هذا فضلا عن الامراء الاقطاعيين في مصر الوسطى والصعيد الاعلى (٢٤) .

(٤) في العصر الصاوى :

لعل من الافضل هنا - وقبل أن نختم هذا الفصل - أن نشير الى أنه في عام ٥٧٠ قبل الميلاد ، انغمس الملك «واح ايوب رع» (حفرع في التوراة ، وابريس عند اليونان) (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) ، انغمس في مغامرة تعسة في غربى مصر ، ذلك أن الدوريين قد أنشأوا في عام ٦١٣ قبل الميلاد ، مستعمرة «قورينة» على الشاطئ الشمالى البعيد في أفريقيا ، أخذت تهدد استقلال القبائل الليبية ، فضلا عن اغتصاب مساحات واسعة من أملاك الاهالى ، الى جانب الاضرار بالمصالح المصرية ، بل وربما بتجارة اليونانيين في أفريقيا عموما .

وهكذا نشأ نزاع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية ، وبين هذه الجماعات الدورية الاغريقية التى استعمرت «برقة» وما حولها ، استعمارا تجاريا تحول الى استعمار سياسى ، أصبحوا به سادة البلد ، واتخذوا من مدينة «قرينة» (Cyrene) عاصمة ، وشيئا فشيئا ازدادت أعداد المهاجرين ، وفى نفس الوقت ازداد ضيق الليبيين بمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم ، فضلا عن تعاليهم عليهم ، ومن ثم فقد لجأ «اديكرات» - أحد رؤساء الليبيين الى الفرعون «ابريس» يلتمس حمايته .

وهكذا وجه الفرعون «واح ايوب رع» جيشا الى هذه الناحية ، غير أن هذا الجيش المصرى انما لقي هزيمة منكرة ، حين وقع فى كمين بسبب خيانة بعض ضباطه من اليونانيين ، وكاد أن يعيده يونانيو ليبيا ، ولم يعد منه غير القليل ، الامر الذى أدى الى ثورة المواطنين فى مصر ضد الفرعون وأعلن من نجوا العصيان ، واتهم الجميع - المواطنون والجنود

(٢٤) محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الثالث ص ٥٥٨ ، ٥٧٥

المصريون — الفرعون بأنه دبر هذه الحملة ليتخلص من المصريين في الجيش ، حتى يزداد تسلطاً ، وأنه قد أسرف في احتضان الاغريق على حساب المواطنين المصريين ، وكان لكل من الاتهامين نصيب من الصحة .

وانتهت الامور بقتل الفرعون ابريس عند «مومفيس» (كوم الحصن — مركز كوم حمادة — بمحافظة البحيرة) ، أو على مقربة من «الطرائة» على الفرع الكانوبى للنيل ، أو كما كانت تسمى قديماً «سخت مافكا» (٢٥) .

وانفرد «أحمس الثانى» (٥٧٠ — ٥٢٦ ق.م) بعرش الفراعين ، وقد أثبت أنه رجل سلام ، فعقد حلفاً في المغرب مع «برقة» ، وتزوج من سيدة — وربما أميرة — من هناك تدعى «الاديكه» ، كما عمل على تحصين حدوده الغربية ، فأنشأ حاميات كثيرة على الشاطئ ، وفى الواحات ، وشجع إقامة الناس فيها ، وبنى المعابد فى سيوه والبحرية والخارجة ، ليجعل من الواحات الحصون الامامية ، اذا جد خطر ، وحدث هجوم على مصر من يونانى ليبيا ، ولئن كان الفرعون قد استطاع أن يخضع بعض المدن الثائرة فى جزيرة قبرص ، فان هذه غزوته اليتيمة ، ثم عمل بعد ذلك على عقد سلسلة من المعاهدات انتقاء للخطر الفارسى المرتقب ، الذى أفلت منه بالكاد ، حيث وقعت الكارثة فى عام ٥٢٥ ق.م ، على أيام خليفته «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ — ٥٢٥ ق.م) — آخر ملوك العصر المصاوى (الاسرة السادسة والعشرين) (٦٦٤ — ٥٢٥ ق.م) (٢٦)

(٢٥) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٦٥٦ — ٦٥٨ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، وكذا

A.A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 361-362.

S. A. Cook, CAH, III, 1965, P. 401.

W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 281-284.

Herodotus, II, 169.

W. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94-95.

(٢٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٣٠ ، وكذا

Herodotus, I, 177, II, 69-70, 182, III, 39 F.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 362-363.

A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 1-24, 75.

الباب الرابع

العصر الفينيقي

الفصل الأول

الفينيقيون في بلاد الشام

(١) الفينيقيون والاصل السامي :

من المعروف أن العلماء يكادون يتفقون على أن الموطن الاصلى للساميين انما هو شبه الجزيرة العربية^(١) ، ذلك الخزان البشرى الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف — كأقليم طرد ، وكصحراء فقيرة ، ولكنها ولود — بالوجة تلو الاخرى ، الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة ، والى وادى النيل — عبر البحر الاحمر أو طريق سيناء — والواقع أن بلاد العرب كانت وما تزال ، فى معظمها ، أرضين صحراوية ، يخييط البحر بأطرافها جميعا — ما عدا القسم الشمالى — فاذا زاد سكانها ، وعجزت عن امدادهم بالغذاء الضرورى ، كان طبيعيا أن يرحل الفائض من السكان الى المناطق الخصيبة فى منطقة الهلال الخصيب ومصر^(٢) .

(١) أنظر :

- A. Sprenger, Alte Geographie Arabiens, 1878, P. 293.
H. Grimme, Mohammad, Welt Geschichte, Berlin, 1904, P. 6-8.
R. Smith, Kingship Marriage in Early Arabia, London, 1907, P. 178.
L. W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, P. 119.
J. L. Meyers, in CAH, I, 1923, P. 28.
S. A. Cook, in CAH, I, 1923, P. 192.
E. Wright, Comparative Grammar of Semitic Languages, P. 8.
D. Nielsen, Handbuch, I, 1927, P. 47 F.
A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, P. 14.
J. B. Philly, The Background of Islam, Alexandria, 1947, P. 9 F.
S. Moscati, Histoire et Civilisation des Peuples Semitiques, P. 32-33.
2) J. B. Philly, Op. Cit., P. 10.

هذا وقد اختلف العلماء في المكان الذي كان الموطن الاول للساميين من شبه الجزيرة العربية^(٣) ، وفريق رآه في وسط الجزيرة العربية ، ولا سيما نجد^(٤) ، وفريق ثان رآه في العروض ، ولا سيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها ، وفريق ثالث رآه في الاجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية^(٥) ، أى في اليمن ، التى هى «مهد العرب» ، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الانحاء ، ثم هى — في نظر بعض المستشرقين — «مصنع العرب» ، لانها أمدت الجزيرة نفسها بعدد كبير من القبائل قبل الاسلام بأمد طويل ، وكذا في الاسلام ، ومن اليمن كان «نمرود» ، فضلا عن جميع الساميين^(٦) .

وأيا كانت هذه المنطقة من بلاد العرب ، فان الجزيرة العربية ، دونما شك ، هى الموطن الاول للساميين^(٧) ، منها انطلقت هجرات ضخمة ، تدفقت في موجات متتابعة تشق طريقها الى الاراضى الخصبة ، ويذهب بعض العلماء الى أن الفترة بين الموجة والتى تليها تبلغ زهاء ألف عام^(٨) ، ولعل أشهر هذه الموجات : موجة الاراميين ، ثم الكنعانيين — الفينيقيين ، وأما ثالث الموجات فهى الموجة الارامية .

هذا وقد اختلف المؤرخون في دخول «الكنعانيين — الفينيقيين» الى بلاد الشام ، وفي المواطن التى تقدموا منها ، وأما عن تاريخ الدخول ، فان «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق م) انما يروى — على لسان علماء

3) A. Sprenger, Op. Cit., P. 214.

4) J. Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, P. 74.

W. Warrell, A Study of The Races in Ancient Near East, P. 7, 45, 94.

5) J. B. Philby, Op. Cit., P. 9.

6) J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, P. 126.

(٧) قدم الباحث دراسة مفصلة عن الموضوع : أنظر (محمد بيومى مهران : الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى — الرياض ١٩٧٤) .

8) H. Winckler, The History of Babylonia and Assyria, New York, 1907, P. 18-23.

صور — أنهم قدموا الى فلسطين في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، بل أثبتت الحفريات أن هذه الهجرة الكنعانية — الفينيقيّة ، أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ذلك لان مدن أريحا وبيسان ومجدو ، انما تحمل أسماء سامية ، وأنها كانت موجودة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م ، كما اثبتت الحفريات التي أجريت في تل السلطات على أن «أريحا» واحدة من أقدم مدن العالم ، وقد كشف فيها عن فخار من أقدم فخار العالم ، فضلا عن آثار تنتمي الى آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضاريا^(٩) ، أضف الى ذلك أن هناك مدنا أخرى قد كشف عنها — وهي مدن كنعانية ترجع الى أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد ، وان كان هناك من يرجعها الى حوالي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد^(١٠) .

وأما عن الموطن الذي قدم منه «الكنعانيون — الفينيقيون» ، فان «هيودوت» يروي — نقلا عن الفينيقيين أنفسهم — أنهم مهاجرون من «أرتيريا» ، سواء قصد بهذه العبارة الجنوب العربي وساحل الحبشة ، أم من منطقة الخليج في الشمال الشرقي للهضبة العربية^(١١) ، وأنهم قد وصلوا أولا الى بلاد العرب الصحرية في شمال الحجاز ، ومنها دخلوا اقليم «النقب» ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل الى لبنان وسورية ، وهناك حقيقة تاريخية قيمة نقف عليها من ملاحم أوجاريت (رأس الثمرا) ، اذ يفهم منها أن الكنعانيين — الفينيقيين انما قد عاشوا ردحا من الدهر في صحراء النقب جنوبى فلسطين ، وأنهم الذين قاموا بتخطيط أهم المدن في تلك المنطقة مثل بئر سبة ، وأشدود^(١٢) .

(٩) أنظر :

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 31-43.
K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, P. 62-82, 1953, P. 18-95, 1954, P. 45-63,
1955, P. 168-117, 1956, P. 67-82 and in SA, 190, 1954, P. 76-82.

(١٠) محمد السيد غلاب : الهجرات البشرية الكبرى — مجلة كلية

اللغة العربية — العدد السادس — الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٥ .

(١١) ثروت الاسيوطى — نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين —

الجماعات البدائية — القاهرة ص ١٢٥ .

(١٢) حسن ظاها : الساميون ولغاتهم — الاسكندرية ١٩٧٠ ص ٥٧

— ٥٨ ، وأنظر : محمد بيومى مهران : بلاد الشام — الاسكندرية ١٩٩٠

ص ٧٥ — ٨١ .

ويشير الجغرافي الروماني «سترابو» (٦٦ - ٢١ ق.م) في الكتاب السادس عشر من مؤلفه Geographica (١٣) الى أن مقابر البحرين في الخليج العربي ، انما تتشابه مع مقابر الفينيقيين ، وأن سكان جزر البحرين انما يذكرون أن أسماء جزائرهم انما هي أسماء فينيقية ، وأن في مدنها هياكل تشبه الهياكل الفينيقية^(١٤) ، هذا فضلا عن أن «جيمس تيودور بنت» قد أجرى في عام ١٨٨٩م تنقيبا في مقابر البحرين ، وبعث بشيء منها الى المتحف البريطاني ، فظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم الى سواحل سورية^(١٥) ، هذا فضلا عن أن «جيمس تيودور بنت» (١٨٥٣ - ١٨٩٧ ق.م) انما كان متأثرا برأى «هيرودوت» القائل بأن الفينيقيين انما كانوا يدعون - على أيامه - بأن أسلافهم من البحرين^(١٦) .

هذا وقد عثر «فلبى» على مثل هذه المقابر في الخرج والافلاج من أعمال نجد ، وهو يرى أن الفينيقيين ربما جاءوا من هاتين المنطقتين ، ثم هاجروا منها الى منطقة الخليج العربي ، كما أن هناك أسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على ساحل لبنان ، مثل «صور» على ساحل عمان ، و«جبيل» على ساحل الاحساء ، و«أرواد» ، وهو الاسم القديم لجزيرة «المحرق» ، هذا فضلا عن أن هناك من يرى أن الفينيقيين انما قد انطلقوا من البحرين الى البصرة سالكين طريق الهلال الخصيب الى الساحل الشامي (اللبناني) ، حيث بنوا مدنها هناك^(١٧) .

(١٣) أنظر :

Strabo : The Geography of Strabo, Translated by, Hamilton, London, 1912.

The Geography of Strabo, Translated by, H. L. Jones, London, 1960.

14) Strabo, 16-2.

15) A. Grohmann, Op. Cit., P. 251.

16) G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 28.

(١٧) جواد على : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - الجزء الاول - بيروت ١٩٦٨ ص ٥٢٩ ، عز الدين اسماعيل : تاريخ فلسطين القديم ص ٢٧ ، وكذا

J. B. Philby, Shaba's Daughters, London, 1939, P. 373.

ومن ثم فإن «أمين الريحاني» انما يذهب الى أن المؤرخين والاثاريين انما يجمعون على أن الفينيقيين ساميون ، كالعرب تماما ، بل انهم عرب الاصل ، نزحوا من الشواطىء العربية الشرقية الى سواحل البحر المتوسط في قديم الزمان^(١٨) ، غير أن هناك من يعترض على وجه النظر هذا ، اعتمادا على أن شواطىء الخليج العربى الباطية لا تصلح أمواها للتربية الملاحية بالنسبة الى ندرة الاخشاب هناك ، وهى الناحية التى برز فيها الفينيقيون وبزوا غيرهم ، على أننا يمكننا الرد على ذلك ، بأن الاحوال المناخية فى تلك العصور السحيقة ، ربما تختلف عنها الان ، كما أن سكان الشواطىء بطبيعتهم ، فضلا عن طبيعة البيئة نفسها ، انما هم أقدر على الملاحة من غيرهم ، هذا فضلا عن أن تفوق الفينيقيين فى الملاحة انما ظهر فى مواطنهم الجديدة على شواطىء لبنان ، وليس قبل هجرتهم الى فينيقيا •

وأيا ما كان الامر ، فإن التعبير التوراتى «أرض كنعان» انما يغطى كل فلسطين فى غرب الاردن^(١٩) ، وأن الكنعانيين ساميون ، وليسوا حاميين ، كما أرادت التوراة أن تجعلهم^(٢٠) ، وأنهم قدموا من تشبه الجزيرة العربية — سواء من شرقها أو من شمالها أو حتى من جنوبها — وسكنوا فلسطين ، وأقاموا بها حضارة راقية ، وأن جزءا من هؤلاء الكنعانيين انما قد انتقلوا الى الساحل السورى للبحر المتوسط ، حيث عرفوا هناك باسم «الفينيين» ، وهم بهذا انما يمثلون — على هذه الصورة — امتدادا كنعانيا على ساحل لبنان •

هذا وقد اختلف المؤرخون فى أصل كلمة «كنعان» فذهب فريق الى أن الكلمة سامية ، وأنهم سموها بالكنعانيين نسبة الى جددهم الأول

(١٨) أمين الريحاني : قلب لبنان — بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢٣ •

(١٩) عدد ٢/٣٤ — ١٢ ، وكذا

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 171.

(٢٠) تكوين ١٠/٦ •

كنعان ، على عادة العرب فى تسمية قبائلهم ، وأن بنى كنعان انما كانوا يقيمون فى أرضهم السهلة على ساحل الخليج العربى ، وقد نسبت اليهم وسميت «أرض كنعان» ، وعند نزوحهم حملوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذى أعطوه لوطنهم الجديد^(٢١) ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن كلمة كنعان مشتقة من أصل سامى (خنح — قنح — كنح) إشارة الى الصفة ، ومنها مجازا «الأرض الخفيضة» ، على عكس مرتفعات لبنان ، فسموا هؤلاء الساميون بالكنعانيين ، أى سكان المنخفض ، لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التى تحف بشرق البحر المتوسط .

على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن أصل كلمة «كنعان» انما هو مشتق من كلمة حورية ، هى «كناخى» ، وتعنى الصبغة القرمزية التى اشتهروا بها ، عندما اتصل الحوريون بهذه البلاد فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد ، ومنها اشتقت الكلمة الاكدية «كناخى» أو «كيناخى» ، وكلها مسميات تدل على الحمرة الارجوانية .

ثم جاء الاغريق ، واتصلوا بهذه الشعوب السامية واتجروا معها ، واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتناثرة على الساحل ، فأطلقوا عليها اسم «فينكس»^(٢٢) ، وهكذا ورد اسم «الفينيقيين» Phoivikes كشعب ، واسم «فينيقيا» Phoivikn كبلاد — أو منطقة — فى كتابات اليونان منذ أيام «هوميروس» (حوالى القرن ٩ ق.م) أو قبل ذلك ، حيث استعمل لفظ «فينكس» Phoiviex كدلالة جنسية ، وان كن فى الاصل يعنى اللون الاحمر القاتم أو الارجوان أو اللون البنى ، الذى وصف به النخيل أو الجماعات الكنعانية أصحاب البشرة ذات اللون البنى ، على أن هناك من يرجح أن اليونان انما استعملوا كلمة «فنخو»^(٢٣) المصرية — والتى استعملوها المصريون منذ عهد الدولة

(٢١) عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٢٢) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٤٧/٣ .

23) A. Erman and H. Grapow, Woerterbuch der Agyptisch Sprache, BI, P. 577.

القديمة للدلالة على سكان بلاد الشام أو بلاد سورية بمعناها الواسع — وذلك بعد تحريفها الى Phoivikes للدلالة على فينيقيا ، والى Phoivikes للدلالة على الفينيقيين — كما استعمل الرومان لفظ «بونى» Poeni للدلالة على القرطاجيين ، وهو لفظ محرف لاتينيا من اللفظ اليونانى ، وان فرقوا بينهم وبين الفينيقيين فى الشرق بأن أطلقوا على هؤلاء اسم «فوينيقى» Poenices وان اعترفوا بأنهم ينتمون جميعا الى جنس واحد (٢٤) •

وأيا ما كان الامر ، فقد اشتقت من كلمة «فينكس» كلمة «فينيقيا»، وبالتالي أصبحت ترادف كلمة «كنعان» ، وأن الكلمتين أصبحتا تعنيان ، على الاغلب ، شيئا واحدا ، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة ، والتسمية اليونانية القديمة ، فى أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الاحمر ، والمواقع أن هذه المدن الساحلية على شواطئ شرق البحر المتوسط تخصصت منذ عرفت فى صناعة نوع من الصبغة الارجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قـرب شواطئها ، ومن هنا جاءت نسبتها الى اللون الاحمر ، وهكذا كانت تسميتهم السامية بالكنعانيين ، والاعريقية بالفينيقيين ، وكلاهما علم على شعب سامى واحد ينزل بسهول فلسطين الساحلية ، فضلا عن لبنان (٢٥) •

(٢) دويلات المدن الفينيقية :

تعد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم ، وهى تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا ، كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا ، الى جبل الكرمل جنوبا ، ومن «أرواد» (وتسمى

(٢٤) محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية - بيروت ١٩٨١ ص ١٣ - ١٤ ، وكذا

D. Harden, The Phoenicians, New York, 1962, P. 22.

(٢٥) محمد بيومى مهران : اسرائيل - التاريخ - الكتاب الثانى - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٥١٤ - ٥٢٢ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٨٥ - ٨٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٨ ، وكذا M. F. Unger, Op. Cit., P. 170-171.

خرائبها اليوم طرطوس شمال حميريت) الى عكا (عكو ، بمعنى الرمال الحارة) ، ولا يزيد طوله عن مائتى ميل ، كما لا يزيد عرضه على ٣٥ ميلا ، وهو غنى بالخلجان ، وبه عدد من الثغور ، وترتفع الى جانبه من ناحية المشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من اشجار الارز والصنوبر والسرو .

وتظهر بالقرب من الشاطئ بعض الجزر التى كان لها كذلك شأن فى هذه البقعة ، ذلك لانها انما كانت عامرة بالقرى والمدائن — شأنها فى ذلك شأن الساحل نفسه — بل ان أهميتها انما تفوق الساحل فى أحيان كثيرة (٢٦) .

وعلى أية حال ، فلقد كان الفينيقيون محصورين فى شريط من الارض على شىء كثير من الضيق ، ذلك لان جبال لبنان لا تبعد عن البحر بأكثر من ٥٠ ميلا ، بل ان الجبل انما يقترب من البحر فى بعض المواضع فيصير على بعد فيما بين ١٢ ، ١٥ ميلا ، بل انه فى بعض المواضع انما يلاصق البحر ، هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الارض مقسم طولاً الى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناشئة من جبل لبنان ، وواصلة الى ساحل البحر ، وهذا الامتداد الفاصل حاجز طبيعى تنشأ عنه أقاليم مختلفة ، كما أن أكثر هذه الامتدادات الناشئة عن الجبل تنتهى عند البحر بانحناء عمودى ، لا يدع مكانا لطريق يصل بين جانبيها ، وهكذا كان الحال قديما ، وعلى أكثر تقدير ، فقد وجد طريق ضيق منحوت فى جنب النتوء ، ولعل خير الامثلة على ذلك ، رأس الكلب ، شمال بيروت ، وقد وجد قرب قمته آثار طريق ضيق ، وفى أسفله الطريق الذى سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم ، وتركوا فيه نقوشا ، تسجل مرورهم فيه (٢٧) .

(٢٦) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء الثالث — سورية — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٤٨ .
(٢٧) ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية — ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، ومراجعة طه حسين ، القاهرة — ص ٢٨ — ٢٩ .

وانطلاقاً من كل هذا ، وتخریجاً علیه ، لم یستطع الفینیقیون — بل لم تستطع ببلاد الشام جمیعاً — أن تشكل وحدة سياسية واحدة — كمصر مثلاً — وإنما وحدات صغيرة تعيش فی مدن ذات جدران محصنة وأسوار عالية ، وأبراج كثيرة ، یلجأ إليها السكان وقت الخطر ، ویحتمون بأسوارها ، ویخذونها وقت السلم أسواقاً لتجارتهم ، غیر أن قیام هذه المدن المحصنة — وإن كان یمثل أفضل وسيلة التجأ إليها الفینیقیون لصد غارات الدول المجاورة ، فضلاً عن غارات البدو المحاورین — إنما أدى إلى تقسیم البلاد إلى مدن صغيرة یحارب بعضها البعض الآخر ، ولا یسود بینها أى نوع من الاستقرار ، وبالتالي جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة ، وخاصة الكبرى منها .

هذا وكان الفینیقیون قوماً تجاراً ، یهتمون بالنواحی الاقتصادية أكثر من اهتمامهم بالنواحی السياسية ومن ثم فقد كانوا دائماً ینشدون الامان والاستقرار السياسی ، وذلك لتأمين أموالهم ، وتسويق تجارتهم ، والنجاح فی المجالات الاقتصادية بصفة عامة (٢٨) .

وقد أدت هذه الاوضاع مجتمعة إلى ظهور ما عرف فی التاريخ باسم «دویلات المدن» ، حیث كان لكل مدينة حکومتها الخاصة بها ، على رأسها حاکم بالوراثة ، وقد ینتقل الملك منه إلى أسرة أخرى ، أو تنتزع منه الامارة وتسلب ، نتیجة ثورة من عناصر تصبّح لها الغلبة ، ولم یکن سلطان الملك — أو الامیر أو الحاکم — استبدادياً مطلقاً ، ذلك لان التجارة تتطلب مغامرة ، وألواناً من النشاط ، لا یتفق وهذا اللون من الحکم ، هذا وكانت تقوم — إلى جانب الحاکم — هیئة من المشرعین ، كما كانت تعقد أحياناً مؤتمرات فی المدن الكبرى ، للتداول فی الشؤون

(٢٨) فیلب حتی : تاریخ سورية ولبنان وفلسطين — ترجمة جورج حداد وعبد الکریم رافق — بیروت ١٩٥٨ ص ٨٨ ، حسن محمود : حضارة مصر والشرق القديم ص ٣٨٩ ، محمد بیومی مهران : تاریخ مصر الفرعونیة والشرق الأدنى القديم — القاهرة ١٩٨٥ (وزارة التربية والتعليم) ص ١٨٣ .

العامة المشتركة ، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاثة الرئيسية (صيدا وصور وجبيل) •

ولا ريب في أنه كان للدين نصيب في الإدارة ، فهو يحدد سلطة الحاكم ، وللكهنة نفوذ يلي نفوذ الحاكم ، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة ، وان كنا لا ندري على وجه اليقين ، أكان بيت المال يعتمد على المكوس ، أو على الاحتكار ، أو على الأمرين معا (٢٩) •

وهكذا انتظم الفينيقيون في جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ، ويستقرون في وحول مدينة محصنة ، تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هي العواصم التي يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية ، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر •

على أن النزاع كثيرا ما كان يحدث بين هذه المدن ، وكان أكثرها تفوقا تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية ، هذا فضلا عن أن بعض تلك المدن انما كان يشغل موقعين ، الواحد : على الساحل ، والاخر : يمثل جزرا صغيرة في مواجهة ، يلجأ إليها القوم عند اشتداد الخطر ، وقد أدى هذا الوضع الى أن يهيأ لكل مدينة مرفأين ، أحدهما شمالي ، والاخر جنوبي ، فتلجأ السفن لهذا المرفأ أو ذاك بحسب الفصول ، واتجاه الرياح ، ومثال ذلك صيدا وصور ، وكانت المسافة بينهما ملاحه يوم واحد (٣٠) •

وبدهى أن المدينة المنيعة انما كانت أقدر من غيرها على البقاء والازدهار ، كما أن هذه المدائن الفينيقية المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة، لم تترك الامر هكذا ، وانما حاولت جاهدة ايجاد نوع من الترابط ، يؤلف بينها ، ويجمع كلمتها ، وخاصة في وقت الاخطار الخارجية ، ومن ثم

(٢٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ •
(٣٠) كوتنزو : المرجع السابق ص ٢٩ ، محمد أبو المحاسن عصفور :
معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ص ١٥٩ •

فقد عمدت الى انشاء تحالف قوى بين عدة مدن — بزعامة أوفرها قوة — تحالف كان دائما يميله الخطر المشترك ، وأحيانا المصالح المشتركة .

وكانت مدينة «أوجاريت» — شمال مدينة الملائكية بحوالى ١٥ كيلا — فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، و«جبيل» فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، و«صيدا» بين القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، و«صور» بعد هذا القرن الأخير ، ثم «طرابلس» فى القرن الخامس قبل الميلاد ، تتزعم هذه الاحلاف^(٣١) ، وأما أهم المدن الفينيقية ، من الناحية السياسية والدينية ، فكانت «جبيل» — على مبعدة ٤٠ كيلا شمالى بيروت — ثم «صيدا» — على مبعدة ٥٥ كيلا جنوبى بيروت — وقد لقبت بالمدينة الام فى كنعان ، ثم «صور» ، ثم «أوجاريت» وكانت مع انضمامها فى بعض الاحايين الى «بيروت» — (وهى بثرونا فى رسائل العمارنة ، بمعنى الابار) — تعيش بسبب بعدها عيشه أكثر استقلالا من مدن فينيقيا الوسطى^(٣٢) ، ولعل أهم المدن الفينيقية فى موضوعنا ، انما هى مدينة «صور» — المدينة الام لقرطاج — .

(٣) مدينة صور :

تقع «صور» (أى الصخرة) ، على مبعدة ٤٠ كيلا جنوب صيدا ، ٩٥ كيلا جنوب بيروت ، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعا ، وطبقا لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت) ، فلقد أشتت صور قبل قدوم هيرودوت اليها (حوالى عام ٤٥٠ ق.م) بألفين وثلاثمائة سنة ، يقول هيرودوت : أبحرت الى صور فى فينيقيا ، ذلك لأنى سمعت بوجود معبد مقدس لهيراكليس^(٣٣) هناك ، ولاحظت أن هذا المعبد قد زينته نصب كثيرة ، ومن بينها عمودان ، أحدهما من الذهب المصقول ، والآخر من

(٣١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٣٢) كونتنو : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣٣) هرقل هنا فى فينيقيا ، اما أنه اله الشمس عند الفينيقين ، وهو «بعل» ، أو «ملقارت» (ملكارت = ملك المدينة) (أحمد بدوى : فى هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٤٠) .

حجر الزمرد ، وحين سأل هيروودوت الكهنة عن تاريخ بناء المعبد ، قيل له «ان هذا المعبد قد بنى فى نفس الوقت الذى أسست فيه صور ، وأنه قد مر على سكناهم بالمدينة ألفان وثلاثمائة عام» (٣٤) ، ومن ثم تكون صور قد ظهرت الى الوجود فى حوالى عام ٢٧٥٠ ق م ، ويذهب الدكتور أحمد بدوى الى أن هذا رأى يؤيده فريق من المؤرخين ، ويخالف عنه آخرون : يرون أن نشأة المدينة (صور) لا يمكن أن يجاوز تاريخها أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد (٣٥) .

وأياها ما الامر ، فلقد بنيت «صور» فى الاصل على جزيرة تبعد عدة أميال من البر ، وقد كانت — فيما يرى سترابو (٣٦) — مبنية بنفس الشكل الذى بنيت به «أرواد» ، هذا وكانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل ، بناه الاسكندر المقدونى (٣٥٦ — ٣٢٣ ق م) أثناء حصاره لها فى عام ٣٣٢ ق م ، والذى دام سبعة أشهر من البر والبحر (٣٧) .

هذا وقد بدأت صور تاريخها كحصن ، غير أن ميذاءها الآمن ، وسلامتها من الغزو ، سرعان ما جعلها حاضرة فينيقيا كلها ، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا اليها من جميع بلاد البحر المتوسط (٣٨) ، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحت صور مدينة غنية على أيام ملكها «حيرام» (٩٨٠ — ٩٣٦ ق م) ، الذى عاصر سليمان عليه السلام (٩٦٠ — ٩٢٢ ق م) (٣٩) ، وكان بينهما تعاون فى المجالات

(٣٤) هيروودوت يتحدث عن مصر — ترجمة محمد صقر خفاجة ، وشرح أحمد بدوى — القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٣٥) نفس المرجع السابق ص ١٤٠ ، وكذا

Movers, Die Phoenicier, II, P. 134 F, 167 F.

36) Strabio, XVI, 2, 23.

(٣٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ، وكذا

Arrian, I, 18-24.

Diodorus, XVII, 41-46.

(٣٨) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى ص ٣١٤ .

(٣٩) أنظر عن عصر سليمان والآراء التى دارت حوله : (محمد

بيومى مهران : اسرائيل ١٨٤٥/٢) .

الاقتصادية والمعمارية وغيرها^(٤٠) ، وفي أيام «زكريا»^(٤١) (حوالى عام ٥٢٠ ق م) كانت الفضة التى تجمعت فى صور كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه وحل الطرقات^(٤٢) ، ويقول عنها «سترابو» «ان بيوتها من طبقات كثيرة ، بل انها أكثر طبقات من بيوت روما»^(٤٣) ، غير أن هذا الرخاء انما كان قائما فى ذلك العصر — وفى جميع العصور — على التجارة والغنى ، وليس على الاراضى والفتح^(٤٤) .

(٤٠) عن التعاون الاقتصادي بين سليمان عليه السلام ومالك صـ
حيرام : انظر (ملوك أول ٦/٥ - ١٢ ، ١٠/٩ - ١٤ ، ٢٧ ، ١٠/١١ - ١٢ ،
محمد بيومي مهران : اسرائيل ٧٥٢/٢ - ٧٥٨ ، ٧٨٠ - ٧٨٢ ، ٧٩١ ،
ج . كوتننو : المرجع السابق ص ٧١ - ٧٤ ، وكذا
H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P.
433.

A. Lods, *Israel From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century*, London, 1962, P. 370).

وعن التعاون المعماري : أنظر (ملوك أول ٦/٥ - ١١ ، ١/٦ - ٣٨ ، ٢/٧ ، ١٦/١٠ - ٢٠ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ٨٣٩/٢ - ٨٥٠ ، عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ٦٨ - ٧٠ ، وكذا

J. L. Myres, *King Solomon's Temple and Other Buildings and Works of Art*, PEQ, 80, 1948, P. 14 F.

O. Eissfeldt, *CAH*, II, Part, 2, Cambridge, 1975, p. 598-598.

وفي عهد «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق.م) ملك إسرائيل ، الذي تزوج من «إيزابيل» ابنة «إيثبعل» ملك صور ، نقلت هذه المرأة القوية الشخصية كل نظم الحكم الصوري الى إسرائيل ، فضلا عن إحلال آلهة الفينيقيين محل عبادة «يهوه» رب إسرائيل ، حتى ان الملك نفسه «عبد البعل وسجد له» وأقام له معبدا في السامرة (ملوك أول ١٣/٢٣ ، ١٦/٣٠ - ٤٠ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ١٩١٠/٢ - ٩١٣ ، ج٠ كونتنو : المرجع السابق ص ٧٤ ، وكذا

M. Noth, *The History of Israel*, London, 1965, P. 242

Roth, *A Short History of The Jewish People*, London, 1969, p. 25)

(٤١) المقصود بذكرنا هنا صاحب سفر زكريا في العهد القديم ، وقد عاش في أخريات القرن السادس ، وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، وليس زكريا النبي والد يحيى عليهما السلام ، والذي تحدث عنه القرآن الكريم (سورة آل عمران : آية ٣٣ - ٥٩ ، مريم : آية ٢-١٥) وللذين عصر المسيح عليه السلام (محمد بيومي مهران : النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل ص ٥٩) .

(٤٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣١٤ .

43) Strabio, XV, 2, 23.

(٤٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩٤ .

وعلى أية حال ، فلقد تعرضت «صور» كثيرا لغزو الاشوريين والمبabilيين ، وكانوا يمثلون القوة الكبرى والشرق الادنى القديم ، ومن ثم فقد اضطرت صور في عام ٨٧٦ ق.م ، الى أن تقدم — مع صيدا وجبيل — خضوعها وجزيتها للملك الاشوري «ناصر بال الثاني» (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م) (٤٥) ، وفي عام ٨٥٣ ق.م شاركت صور في حلف ضد «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ — ٨٢٤ ق.م) ، حيث حدثت بين الفريقين موقعة «قرقر» المشهورة ، ولكن الملك الاشوري استطاع في عام ٨٤٢ ق.م ، ارغام المدن الفينيقية — وخاصة صور وصيدا — على دفع الجزية (٤٦) ، ثم استمرت صور في دفع الجزية للاشوريين في عهد الملك «أيد نيراري الثالث» الذي قدم الى فينيقيا مرتين في عامي ٨٤٠ ق.م ، ٨٣٥ ق.م ، وفي عهد «تجلات بلسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م) .

وجاء «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ — ٧٧٢ ق.م) فاجتاح فينيقيا ومدنها ، وكانت صيدا وعكا وصور البرية ترغب في تحرير نفسها من السيطرة المالية لمدينة صور التي في الجزيرة ، فاعترفت بالغazy الاشوري وسيادته ، وأعطته أسطولاً يتكون من ستين سفينة ، يعمل فيها نحو ثمانمائة مجدف فينيقي ، وقد غرق أسطول «شلمنصر الخامس» في معركة مع سكان الجزيرة ، غير أن عددا كافيا من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل ، وكانت الابار داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية لحاجات السكان ، وأخيرا انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في عام ٧٢٢ ق.م ، بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها (٤٧) .

(٤٥) فيلب حتى : لبنان في التاريخ ص ١٧٤ يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام ٤٦/١ ، وكذا

D. Barmaki, Phoenicia and The Phoenicians, Beirut, 1961, P. 28.

F. C. Eishen, A Study in Oriental History, New York, 1907, P. 43.

46) A. Lods, Op. Cit., P. 377.

(٤٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٢٦ — ١٢٧ ، وكذا

Josephus, Antiquities, Lx, 14, 2.

وفي عهد «سرجون الثاني» أعلنت صور وعسقلان العصيان ، غير أنه استطاع إعادة فتح المدن الفينيقية والسورية في عام ٧٠٠ ق.م ، وفي عهد «أشور بانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) حوصرت صور ، فأقام أهلها الحصون الدفاعية على الأرض الرئيسية ، ووضعت المتاريس في كل الطرق - برا وبحرا - واضطر أهلها المحاصرون أن يشربوا من ماء البحر ، وإن اضطرت أيضا - آخر الأمر - أن تستسلم ، وأن يسلم ملكها ، في صورة تدعو إلى الشجن ، ابنته وبنات أخيه إلى الملك المختصر ، كزوجات تحمل كل منهن بائناتها الضخمة ، كما سلم ولده «ياحي ملك» ، وكان هذا أكثر مما يطمع فيه «أشور بانيبال» فردد الابن ، واكتفى بالنساء اللواتي ضمنهن إلى حريمه ، واستولى الآشوريون على خيرات صور ، وعلى أسطولها ، الذي استخدموه في إخضاع ملك أرواد (٤٨) .

وفي عهد الملك الكلداني «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) حوصرت صور ، ولكنها استطاعت أن تصمد قرابة ثلاثة عشر عاما ، تحطمت مقاومتها بعدها ، واضطر ملكها «أثيعل الثالث» إلى الاستسلام وعنئذ دخلتها قوات الكلدانيين ودمرت مبانيها وسوتها بالأرض - كما فعلت بالقدس الشريف - ومنذ ذلك الحين (عام ٥٧٤ ق.م) تخلت صور عن مكانتها ، خاصة وأن الفرعون «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) كان قد انتقص من سيادتها ، بانتزاع قبرص ، وإن ظلت أسرة سورية تجلس على عرش «سلاميس» حتى خلعت عنه على يد «إيفاجوراس» ، وعلى أية حال ، فلقد انتهت غزوة «نبوخذ نصر» بضياع استقلال صور وصيدا ، وإن استطاعت صيدا أن تحل محل صور في زعامة المدن الفينيقية (٤٩) .

(٤٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٤٩) يوسف مزر : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥٢ ، وكذا

D. Harden, Op. Cit., P. 54.

D. Barmaki, Op. Cit., P. 30.

Josephus, Antiquities, X, 11, 1.

وظلت صور تحاول — ما استطاعت الى ذلك من سبيل — على استقلالها ، حتى جاء الاسكندر الاكبر الى فينيقيا — بعد معركة ايسوس في أكتوبر ٣٣٣ ق.م ، وانتصاره على الملك الفارسي دارا الثالث (٣٣٦ — ٣٣٠ ق.م) — فاستسلمت له المدن الفينيقية ، ماعدا صور التي حملت وحدها لمواء المعارضة ، وتحذته في عناد ، فأحكم حولها الحصار قرابة سبعة أشهر عاونته فيه أهل صيدا ، فضلا عن الاشتراك مع المدن الفينيقية الشمالية في تزويده بثمانين سفينة لتطويق صور من البحر ، وهكذا خاب أمل صور في المدن الفينيقية ، كما خاب أملها كذلك في وليدتها البعيدة في الشمال الاثريقي «قرطاج» ، حيث بعثت اليها بشيوخها ونسائها وأطفالها ، مما اضطرها آخر الامر الى الاستسلام للغازي المقدوني في يولية عام ٣٣٢ ق.م ، حيث لقيت من المقدونيين الامرين فقتل منها قرابة ثمانية آلاف من المحاربين ، وبيع الكثيرون من الرجال والنساء والاطفال في أسواق النحاسية^(٥٠) .

(٥٠) أسد رستم : تاريخ اليونان — بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ، عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي — بيروت ١٩٧٠ ص ٣٧ — ٣٨ ، يوسف مزهر : المرجع السابق ص ١١١ ، وكذا

Joesphus, Antiquities, XL, 8, 3.

D. Barmaki, Op. Cit., P. 33.

F. C. Eishen, Op. Cit., P. 69.

W. W. Tarn, CAH, VI, 1927, P. 366-369.

Diodarus, XVII,

الفصل الثاني

الفينيقيون ودورهم في حوض البحر المتوسط

(١) الفينيقيون ودورهم في التجارة البحرية :

لا ريب في أن الفينيقيين قد تأثروا الى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها ، واستجابوا لها استجابة كاملة ، فشكلت تجارتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على أن أبرز النواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في الحياة الفينيقية هي النشاط البحري ، فقد كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقي تعرقل صلة السهول الساحلية بالاقاليم الداخلية ، وتجبر السكان على أن يلتمسوا لانفسهم مخرجا آخر ، وذلك بأن يتجهوا الى البحر ، هذا فضلا عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على اعالة عدد من السكان يتزايد عددهم عاما بعد عام ، ولم تكد الزراعة بقيادة على اطعام آلاف الالواء التي تعيش في المدن الساحلية .

وانطلاقا من كل هذا ، فقد كان على الفينيقيين أن يلتمسوا لهم سبلا أخرى ، أو أن ينطلقوا الى ميدان التجارة ، وأن يتصلوا بالامم الكبرى من وراء البحر ، هذا فضلا عن أن سفوح جبال لبنان انما تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن ، وهكذا فاذا اقترنت الرغبة في المخاطرة ، والبحث عن لقمة العيش ، بتوفر المواد الصالحة ، والمواد الخام اللازمة ، لم يكن شيئا غريبا أن يستجيب هؤلاء الساميون القادمون من شبه الجزيرة العربية لنداء البيئة ، ويتركوا حياة البداوة التي ألفوها ، ويقبلون على البحر فيركبون متنه .

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الاسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال ، ثم بيع هذه الاشياء وغيرها من المنتجات

المحلية الاخرى ، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد ، حينما ضغط الاراميون عليهم فى وسط سورية ، وأحاط بهم الاسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب ، ومن ثم فلم يجدوا مفرًا من أن يتجهوا الى البحر بكليتهم ، فقد كان هو المخرج الوحيد^(١) .

وقد أدى هذا الوضع الجديد الى انشاء محطات ومراكز مستقرة فى المناطق التى تتجه اليها سفنهم لتكون محطات استقرار ، أو على الاقل ، محطات يستريحون فيها أياما معدودات ، فى أول الامر ، على الاقل ، وقد أدى ذلك الى تتابع هجراتهم بالتدريج ، وعلى مرات معدودات ، تحقيق هذا النشاط التجارى فى هذه الاسواق والمناطق الجديدة فى غربى البحر المتوسط^(٢) .

هذا وكانت السفن الفينيقية بسيطة أول الامر ، لا تقوى على أن توغل فى أمواه البحر ، كما أنها لا تستطيع أن تحمل قدرا كبيرا من السلع وبمرور الايام نجح الفينيقيون فى التوصل الى صناعة السفن الكبيرة التى تستطيع أن تمخر عباب البحر المتوسط ، الامر الذى قلب فن الملاحة رأسا على عقب ، فاشتدت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر وركوبه ، وتضاعف نشاطهم ، كما تضاعفت تجارتهم ، ثم لازمهم حسن الدالاع باكتشاف أهمية النجم القطبى ، ومن ثم فقد أقبلوا على الابحار ليلا معتمدين على النجوم ، وقد تعلم الاغريق هذا الفن منهم ، حتى أن أسماء النجوم الاغريقية هى نفسها الاسماء الفينيقية ، وهكذا بدأ القوم يبحرون طبقا لخطط مرسومة ، حتى استطاعوا — بعد تجارب طويلة — أن يشقوا لانفسهم مسالك وطرق كشفوها وأستخدموها ثم احتكروها ، لعل من أهمها ذلك الطريق الذى يمر من صيدا الى صور ، ثم يمر بمصر مباشرة ، أو قد يتجه الى قبرص ، ثم يتجه غربا الى طوروس ولسيا — عن طريق رودس وكريت — ثم يتجه الى صقلية ، ثم

(١) حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٩٢ .

(٢) محمد بيومى مهران : تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم - القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٤ .

شمال أفريقيا ثم أسبانيا ، وهناك طرق أخرى فرعية تتجه الى الشمال أو الجنوب ، ومن ثم فقد حق لهم أن يسموا أول أمة بحرية في العالم ، وأول أمة جمعت بين النشاط في البر والبحر (٣) .

وهذا وكانت محطات الفينيقيين في الداخل تضم «أدبا» و «نصيبين» ، بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربي ، حيث مواطنهم الأصلية ، وحيث كانت لهم هناك مدن تحمل الأسماء نفسها ، مثل أرواد وصيدا وصور (٤) ، وان كانت صور — كما تدلنا الاخبار المتواترة في العالم القديم — هي المدينة الفينيقية المسؤولة عن حملات الفينيقيين الى الغرب ، والتي أدت الى العديد من المستوطنات ، وتنص التوراة (٥) والمصادر الاخرى صراحة على تفوق صور على المدن الفينيقية في الشرق الادنى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (٦) .

وليس هناك من ريب في أن الدوافع الاساسية وراء ارسال التجار الفينيقيين الى غربي البحر المتوسط ، هو البحث عن موارد معدنية — وخاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير ، وقد قادهم هذا البحث — في تاريخ مبكر — الى أسبانيا التي ظلت أحد المصادر الرئيسية في عالم البحر المتوسط ، حتى في العصر الروماني (٧) .

وتقدم لنا التوراة — في سفر حزقيل — وصفا مفصلا لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة ، وهسو يذكر من بين وارداتهم ، الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا ، والرقيق

(٣) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٥ ، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٨٤ ، حسن محمود : المرجع السابق ص ٢٩٣

(٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٥) ملوك أول ٢٧/٩ - ٢٨ ، ١١/١٠ - ١٢ ، اشعيا ٨/٢٣ ، ١٥ - ١٨ ، قاموس الكتاب المقدس ٥٥٩/٢ .

(٦) ب.هـ. وارمنجتون : العصر القرطاجي - تاريخ أفريقيا ص ٤٥٤ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ٤٥٤ .

وأوانى الذهب الأصفر من أيونيا ، والكتان من مصر ، والخزف والماعز من شبه الجزيرة العربية ، ويشير «هيرودوت» الى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجار الفينيقيين^(٨) ، ونقرأ في التوراة أيضا عن أسطول «حيرام» ملك صور ، الذى أبحر مع أسطول سليمان الى «أوفير»^(٩) ، وأتى من هناك بالذهب والاختشاب النادرة والأحجار النفيسة ، وكل ما هو نادر وغريب^(١٠) .

ويقول «ديودور الصقلي» (٨٠ — ٣٠ ق.م) أن الوطنيين (أى فى إسبانيا) انما كان يجهلون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون فى رحلاتهم التجارية فى مقابل كمية قليلة من السلع ، وحملوها الى بلاد الاغريق وآسيا والبلاد الاخرى ، وحصلوا على ثروات كبيرة ، كما زادت قوتهم عن طريق هذه التجارة التى مارسوها لموقت طويل ، وكانوا قادرين على ارسال أعداد من المهاجرين الى صقلية والجزر المجاورة وأفريقيا وسردينيا ، وإلى إسبانيا ذاتها^(١١) .

وعلى أية حال فلم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة و العودة من حيث أتوا ، وانما كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون منها فينيقيا جديدة ، أما اذا كانت البلاد التى ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قوية وقادرة على حماية نفسها ، فان ملاهى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية ، وانما يكتفون بوكالات تجارية وبشراء حق حرية التجارة ، كما فعلوا فى مصر ، حيث استقروا عند مصبى النيل ، وطبقا لرواية

(٨) حزقيال ١/٢٧ — ٣٦ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٧ — ١٠٨ ، وكذا Strabo, XVI, 3-4.

(٩) أنظر عن «أوفير» والآراء التى دارت حول موقعها (محمد بيومى مهران : اسرائيل — التاريخ — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٧٨٢ — ٧٩٢) .

(١٠) ملوك أول ١١/١٠ — ١٢ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٧٨١ .

(١١) ب.هـ. ورامنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٤ .

هيرودوت ، فلقد اتخذوا لانفسهم في «منف» — العاصمة المصرية القديمة — حيا خاصا بهم سمي «معسكر السوريين» ، كما أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه للمعبودة «افروديت الاجنبية» ، وهي عشتار على الأرجح (١٢) .

(٢) الفينيقيون ومستعمراتهم في البحر المتوسط :

كانت السفن الفينيقية — نظرا لظروف الملاحة في العصور القديمة — تسير ، بصفة عامة ، في محاذاة الساحل وتلقى مراسيها أو تسحب في الليل الى الشاطئ ، هذا وقد استخدم الفينيقيون في البحر المتوسط طريقين ، الواحد : شمالي بمحاذاة الشواطئ الجنوبية لصقلية وسردينيا وجزر البليار ، والاخر : جنوبي بمحاذاة ساحل أفريقيا ، وربما كانت هناك — بمحاذاة الساحل الاثريقي — مراس استخدمها الفينيقيون كل ثلاثين ميلا ، أو قريبا من ذلك ، رغم أن تطور مثل هذه المراسي الى مستوطنات دائمة انما كان يعتمد على عوامل مختلفة ، وكانت المواقع القديمة جزرا قريبة من الساحل ، أو ألسنة صخرية يمكن أن ترسو السفن عليها من كلا الجانبين .

هذا ومن المتعارف عليه أن أول مستعمرة فينيقية في الغرب انما كانت في «قادس» (كاديذ الحالية ، قرب مصب الوادي الكبير) على شاطئ أسبانيا الغربى ، وقد أخذ الاسم من الكلمة الفينيقية «جاديير» Gadier — بمعنى القلعة — وربما يوضح هذا أصلها (أى أصل كاديذا — أو كادييس) كمركز تجارى ، وكانوا يحصلون من هناك — كما أشرنا من قبل — على الفضة المتوفرة في أسبانيا (١٣) .

هذا وكانت السفن تخرج من «جاديير» لاستجلاب القصدير ، فتبلغ

(١٢) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٥ ، محمد بيومى مهران : تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم ص ١٨٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٦ .
(١٣) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ .

الشباطىء الغربى لاسبانيا ، وقد تصل الى جزائر «كاسيتيريد» (جزائر
 سيللى) ، وكانت كل هذه البلاد الاسبانية تعرف عند الفينيقيين باسم
 بلاد «ترشيش» ، وهى عند اليونان «ترتيسوس»^(١٤) ، وطبقا لما جاء فى
 التوراة^(١٥) ، فان سفن سليمان عليه السلام ، وسفن «حيرام» ملك
 صور ، كانت تأتى مرة كل ثلاث سنوات الى «ترشيش» ، ويذهب
 «ستانلى كوك» - اعتمادا على نص التوراة^(١٦) «كان للملك (سليمان)
 فى البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام» - الى أن سليمان عليه السلام ،
 وحيرام ملك صور ، قد امتلكا أسطول «ترشيش»^(١٧) ، وان اسم
 الاسطول انما يدل على أنه قد ذهب الى ترشيش فى أسبانيا^(١٨) .

وعلى أية حال ، فان اسم «ترشيش» الذى نصادفه فى أسفار
 التوراة^(١٩) وفى الكتابات الاشورية ، انما هو اسم فينيقى ، فى أكبر
 الظن ، بمعنى المنجم أو مكان الصهر أو معمل تكرير ، هذا وقد اكتسبت
 تسمية «ترشيش» بسبب بعد موقعها معنى غامضا ، وصارت تعنى المغرب
 الاقصى أو أبعد البلاد التى بلغتها التجارة الفينيقية ، وان ذهب البعض
 الى أن ترشيش انما هى «طرطوس» فى قلقيا ، حيث كانت هناك
 مستعمرة فينيقية ، هذا فضلا عن أن عبادة «البعل» فيها ، انما تشبه تلك

(١٤) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٦ .

(١٥) ألوك ثان ٢٢/١٠ ، أخبار أيام ثان ٢١/٩ .

(١٦) ملوك أول ٢٢/١٠ .

(١٧) ترشيش : يذهب بعض الباحثين الى أنها فى سردينيا ، ويذهب
 آخرون الى أنها «ترتيسوس» فى جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق ،
 ولعل ترتيسوس هى قرطاج فى شمال أفريقيا (قاموس الكتاب المقدس ١ /
 ٢١٥ - ٢١٦ ، هيرودوت (١٥٢/٤) ، وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 1978-1071.

F. Thieberger, King Solomon, London, 1957, P. 206).

18) S. A. Cook, in CAH, III, Cambridge, 1965, P. 367.

(١٩) ملوك أول ٢٨/٩ ، ٢٢/١٠ ، أخبار أيام ثان ٢١/٩ ،
 أشعيا ٣٦/٢٠ ، ١٩/٦٦ ، ارميا ٩/١٠ حزقيال ١٢/٢٧ ، مزمور
 ٧/٤٨ .

التي في صور وقرطاجة (٣٠) .

وهناك من المستعمرات الفينيقية في أسبانيا «ملقة» (ملاكة بالفينيقية) — بمعنى دكان أو معمل صغير — ويذكر «سترابو» مكانا لتمليح الاسماك في هذه المدينة ، وهو أمر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك ، هذا وكانت «قرطبة» في الاصل مدينة ايبرية استولى عليها الفينيقيون ، وأقدم نقودها تحمل حروفا فينيقية ، استبدلت فيما بعد باليونانية .

ولعل من أهم المستعمرات الفينيقية في جزر البحر المتوسط ، انما كانت «صقلية» التي اتخذوها محطة ينتفعون بها في أسفارهم الخطيرة الى «أعمدة هيرقل» (أعمدة هيراكليس) — وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق — ونزلوا خاصة في «بانورموس» (Panormus) — أى بالرمو — و«سيلينوس» (Selinunte) (سيلينونت = Selinunte) و«موتيا» (Motya = Mozia) ، وهذه المدن الصقلية الثلاثة أختيرت أماكنها في عناية بالغة مسترشدين بما يجدون فيها من المنافع ، وكانت مدينة «بانورموس» (باليرمو) في أحد الخلجان ، و«سيلينوس» عند أحد الرؤوس ، و«موتيا» في بطن الخليج الواقع شمال رأس ليليبية ، وكانت الأخيرة أهمها جميعا ، حيث كانت القاعدة الاساسية التي انطلقت منها «قرطاج» لمباشرة حروبها الصقلية ، حتى حوصرت ودمرت في عام ٣٩٨ ق م .

هذا — وطبقا لرواية ديودور الصقلي — فلقد استقر الفينيقيون كذلك في جزيرتي مالطة وجولوس (أو جوزو Gozzo) وذلك لانهما جزيرتان تقعان في عرض البحر المتوسط ، صالحتان لتكونا مرافئ

(٢٠) قاموس الكتاب المقدس ٢١٦/١ ، ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٢ ، وكذا

W. Albright, in Studies in History of Civilisation, P. 42.

A. Dertrich, Phonizische in Spanien, Leipzig, 1936, P. 32.

ارتفاع عند المرور من شرق البحر المتوسط الى غربية (٣١) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد كان للفينيقيين عدة مراكز في كورسيكا وسردينيا ، ففي سردينيا كانت أربع مدن رئيسية هي : «سولكيس» (Sulcis) و«كارالس» ونورا (Nora) — (أو نوري Nurri) و«ثاروس» (برج القديس جيوفاني Torre die S. Giovanni في سردينيا) ، وكانت «سولكيس» تقع على الشاطئ الداخلى لجزيرة «أنتيوكو» الحالية ، الى جانب ممر للجزيرة يصلها بالارض الرئيسية ، وأما الثلاثة الاخرى فهي مرتفعات جبلية .

هذا ولم يعثر في «سولكيس» الا على آثار قليلة تكشف عن طوبوغرافيتها الفينيقية ، وان عثر على فخر فينيقي يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد ، ويعد أقدم ما عثر عليه في سردينيا ، كما عثر على عدد من اللواح تشبه نظائر لها عثر عليها في خطائر المعبودة «تانيت» Tanit في قرطاج ، مما قد يشير الى وجود ، أو احتمال وجود معبد هناك ، وأما في «كارالس» (كاليارى) — حيث حُجبت أبنية من عصر متأخر — الطوبوغرافية الفينيقية ، فان المحلة الاصلية تشبه من نواحى كثيرة نظيرتها بالقرب من مرتفع «سان ايليا» الى الجنوب الشرقى ، وربما كان موقع الميناء القديم ، حيث توجد البحيرة المالحة اليوم الى شرق «كاليارى» ، ولم يعثر هناك على مقابر من عصر مبكر ، ولكننا نلتقى بالمقابر من القرن الخامس وما بعده منتشرة على طول جانب التل الى شمال غرب المدينة الحديثة .

وأما «نورا» (نوري) فتقع عند طرف شبه الجزيرة ، ولها ميناء ، ولم تشغل منذ العصر الرومانى ، الا بقلعة من العصور الوسطى في مكان قلعة فينيقية ، وقد عثر بها على مقابر من القرن السادس قبل الميلاد

(٢١) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦ ، ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ - ٤٥٦ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٦ .

وما بعده ، فضلا عن معبد للمعبودة «ثانيت» ، ومجموعة ضخمة من اللوحات واللاوانى الجنازية ، وأما «ثاروس» فتقع الى الغرب من الجزيرة (جزيرة سردينيا) ، ولا تزال فى حاجة ماسة الى اجراء حفائر تكشف عن آثارها (٢٢) .

هذا وقد سعى الفينيقيون للنزول فى بلاد اليونان ، وكثر تردد تجارهم عليها ، بل ان بلاد اليونان — فيما يبدو — لم تخل من مستعمرات فينيقية ، وآية ذلك انتشار الاسماء السامية فى بلاد اليونان ، هذا فضلا عن أن بعض المعبودات اليونانية انما كانت متأثرة الى حد ما بالديانات السامية ، ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية فى البحر المتوسط ، الا وقد أوغلوا فيها ، فانتشروا فى ساموس وكريت ، بل ان «ديودور الصقلي» انما يذهب الى القول بأن أهل مالطة من أصل فينيقى ، كما أن أهل «تراقيا» فينيقيوا الاصل كذلك ، وعلى أية حال ، فليست هناك أية آثار لمدينة فينيقية فى جزيرة مالطة ، ومع ذلك ، فهناك مقابر بونية كثيرة ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ، وهناك عدد قليل منها يرجع الى القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد ، وربما كان أشهر مواقعها يقع حيث تقع اليوم مدينة «فالتينا» (٢٣) هذا وتتصل «كورنثوس» — وهى مؤسسة فينيقية فى الغالب — بمعبود من أصل فينيقى هو «ملقارت» (ملكرث = ميلكرتس) ، فيما تروى الاساطير (٢٤) .

(٣) المستعمرات الفينيقية فى الشمال الافريقى :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا — وقبل أن نتحدث عن

(٢٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١ ، حسن

محمود : المرجع السابق ص ٣٩٥ ، وكذا

H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 523.

Diodorus, V, 12, 2-2.

Autran, Pheniciens, Ph, P. 5.

(٢٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٣ .

المستعمرات الفينيقية في الشمال الافريقي — الى عدة نقاط ، لعل من أهمها (أولا) أن تأسيس المراكز الفينيقية في المغرب ، إنما قد تم في حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، ومن ثم فإن العصر الفينيقي إنما قد أستمر فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد ، حيث بدأت الدولة القرطاجية في الوقوف على قدميها ، كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق .

ومنها (ثانيا) أن العصر الفينيقي في المغرب إنما كان عصر استكشاف اقتصادي ، أكثر منه عصرا سياسيا ، ذلك لأن المدن الفينيقية في الشمال الافريقي ، إنما كانت تابعة سياسيا لمدينة «صور» في فينيقيا ، بل يمكننا القول أن الارتباط السياسى — فضلا عن الالتزام الضريبي ، وربما الحضارى — إنما ظل قائما حتى بعد استقلال المدن الفينيقية الافريقية عن أصولها الاولى في فينيقيا .

ومنها (ثالثا) أن الانتقال من المرحلة الفينيقية الى المرحلة القرطاجية ، إنما قد تم في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، حيث أسس «ماقون» أو «ماجرو» Mago أسرة حاكمة في «قرطاج» (الاسرة الماجونية) (٢٥) .

وأما أهم المدن أو المستعمرات الفينيقية في الشمال الافريقي (المغرب) فهي :

١ - قرطاج :

لا ريب في أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة إنما هي مدينة «قرطاج» (٢٦) ، وتقع على مقربة من مدينة «تونس» الحالية ، فيما بين

(٢٥) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ١٦٧ - ١٧٣ ، ه.ب. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٦ .
(٢٦) قرطاج : جرت عادة بعض المؤرخين أن يكتبوها «قرطاجنة» ،

«(بو سعيد)» و «لاجويت» ، ويرجع تأسيسها الى عام ٨١٤ ق م ، حتى وان زعم البعض أنه يرجع الى ما قبل ذلك — الى القرن الثامن قبل الميلاد — حيث ثبت حتى الان عدم وجود أية آثار فينيقية الاصل في تلك المناطق قبل منتصف القرن الثامن (أى حوالى عام ٧٥٠ ق م) (٢٧) ، وهو لا يبعد كثيرا عن التاريخ المتعارف عليه ، أى عام ٨١٤ ق م ، وعلى أية حال ، فلا يمكن أن نستنتج شئاً ذا قيمة تاريخية من أسطورة تأسيس قرطاج التى وصلت اليها فى مختلف كتابات المؤلفين الاغريق والرومان (٢٨) ، وسوف نتحدث عنها بشئ من التفصيل فى الفصل التالى .

هذا ويذهب البعض الى أن اسم «قرطاج» (Carthago) وفى اللاتينية Carthage) انما هو صورة محرفة من الاسم الفينيقى «قرت حدشت» بمعنى «المدينة الجديدة» ، ويدل هذا ضمناً على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين فى الغرب ، وطبقاً لقصة انشائها ، أو بعبارة أصح أسطورة انشائها (٢٩) ، فقد أسسها الاميرة «اليا» (Eliasa) ابنة «مثن» ملك حور ، عندما

=
وهو خطأ شائع ، والصحيح كتابتها «قرطاجة» أو «قرطاج» ، كما يسميها أهل تونس أنفسهم ، أما «قرطاجنة» فهى مدينة فى أسبانيا (معالم تاريخ الانسانية ٥٠٥/٢) .

27) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 22.

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 54.

(٢٨) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ .

(٢٩) لعل مما تجدر الإشارة اليه أن هناك الكثير من الاساطير التى ترتبط بالشخصيات الهامة — وربما الاسطورية — بتأسيس المدن الهامة ، فضلاً عن الاحداث الرئيسية ، وذلك لان الكتاب القدامى أرادوا لفت الانتظار الى أهميتها — المدن والاحداث — فقاموا بتسجيلها بصورة شعبية وباسهاب وتفصيل ، قد يغرى فى كثير من الاحيان عواطف العامة وخيالهم ، أكثر مما يرضى عقول العلماء ، فقدموا لنا أحداثاً أقرب الى الاساطير منها الى التاريخ الحقيقى .

وهناك فى تاريخ العرب القديم — على سبيل المثال — مدينة «ياثل» — وهى مركز دينى هام فى دولة معين — وتسمى «براقش» (وكانت قديماً

هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» (Pygmalion) — الذى خلف أباه فى حكم صور ، وكانت اليا ترغب فى الزواج من خالها «أشرباس» (Echerbas) — أحد كهنة المعبود ملقارت — وقد أغضب ذلك أخوها «بيجماليون» فأمر بقتل هذا الكاهن ، مما دفع اليا الى الهجرة الى جزيرة قبرص — مع عدد من المعارضين لآخيها — وهناك انضم اليها أحد كهنة المعبودة «عشتارت» Asterte الذى اشترط أن تكون له ولعائلته أولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة ، وأن يكون ذلك وراثيا فى أسرته ، وسرعان ما انضمت اليها ثمانون عذراء كانوا أصلا للبغاء المقدس ، ثم اتجهوا جميعا الى منطقة الساحل الافريقى المغربى ، غير أن «اليا» سرعان ما انتحرت عندما أراد رئيس البربر أن يتخذها زوجة له ، هذا ويسمى الرواة الاميرة «اليا» هذه ، باسم «ديدون» بمعنى «الهاربة» ، وهو اسم غير فينيقى ، وليست لدينا أية وثائق تسوغ لنا قبول هذه الرواية أو حتى رفضها (٣٠) .

غير أن هناك مصدرا آخر يتحدث عن تأسيس «اليا» (ديدون) لمدينة «قرطاج» حيث يحدثنا المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»

تسمى يطيل) ، وهى نفسها مدينة (Athluba = Athrula) — آخر موضع وصلته حملة «اليوس جالليوس» الرومانى على اليمن فى عام ٢٤ ق.م — وعلى أية حال فإن «براقش» عند الاخباريين مدينة قديمة جدا ، كان يسكنها عند ظهور الاسلام «بنو الاوير من بلحارث بن كعب ومراد» ، وقد اختلفوا فى سبب تسميتها «براقش» ، فرواية تذهب الى أنها انما سميت كذلك نسبة الى كلبه عرفت باسم براقش ، ورواية أخرى تنسبها الى امرأة تدعى «براقش» عهد اليها أبوها بتصرف شئون الدولة أثناء غيابه فى واحدة من غزواته ، فما كان من براقش الا أن اهتبلت الفرصة ، فبنيت مدينتى براقش ومعين تخليدا لذكرها ، غير أن ذلك قد أغضب والدها الملك ، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة ، على أن رواية ثالثة تنسبها الى مراقش امرأة لقمان بن عاد (أنظر : البكرى ٢٣٨/١ ، الميدانى ١٤/٢ — ١٥ ، البيان والتبيين للجاحظ ٢٢٢/١ ، القاموس المحيط ٢٧٢/٢ ، وكذا محمد بيو مى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣٣٢) .

(٣٠) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٨ ، ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(يوسف يوس فيلافيوس = ٣٧ - ٩٨ أو ١٠٠م) (٣١) - نقلا عن آخرين - أنه في السنة السابعة من حكم «بيجماليون» أسست اليا مدينة قرطاج، ومن ثم فهناك عنصر تاريخي سليم - إذا ما صدقت رواية يوسف اليهودي - يتعلق بارتباط هذه الاميرة السورية بتأسيس مدينة قرطاج (٣٢) .

وعلى أية حال ، فان المستوطنات الفينيقية جميعا ، بما فيها قرطاج نفسها - على عكس المستوطنات التي أقامها الاغريق في صقلية وإيطاليا وغيرهما - في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد - انما ظلت (أى المستوطنات الفينيقية) محدودة المساحة ، وربما لم يسكنها ، لمدى بضعة أجيال ، غير مئات قليلة من المستوطنين على الاكثر (٣٣) .

(٢) أوتيكا :

كانت «أوتيكا» (Utica) - أو عتيقة - بمعنى القديمة ، تميزا لها عن «قرطاج» بمعنى الجديدة أو الحديثة ، وقد سماها «ابن خلدون» (١٣٣٣ - ١٤٠٦م) «وطاكة» ، وتقع الى الغرب من قرطاج ، وتلى قرطاج في الاهمية ، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا ، على الأرجح ، وقد أسستها صور حوالى عام ١١٠٠ ق م ، أو ١١٠١ ق م ، وقد عثر فيها على آثار ترجع الى حوالى هذا التاريخ .

وتقع أوتيكا على مرتفع من الارض عند مصب نهر «بجراداس» ، أهم أنهار تونس ، الذى يجرى فى أخصب بقاعها ، ومن ثم فهي - كقرطاج - ميناء ، رغم أنها تقع الآن على مبعده ٧ أميال فى الداخل ، ذلك لان معالم الموقع تغيرت اليوم عنها فى العصور القديمة ، فغطى الغرين المجرى الأدنى للنهر ، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل

(٣١) أنظر عن يوسف بن متى (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣١ - ٣٢) .
(٣٢) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٦٣ .
(٣٣) ب. هـ. وارمتجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

كان يوما ما في داخل البحر ، مع جزيرة الى شرقه ، يفصلها عنه ممر مائى ضيق •

هذا وما تزال هناك — كما هي الحال في قرطاج — خرائب رومانية كثيرة ، وان كان من العسير التعرف على آثار بونية^(٣٤) ، وقد ترجع أقدم المقابر هنا الى القرن الثامن قبل الميلاد ، ومكانها على جانبى الممر المائى ، أما المقابر من العصر المتأخر ، فبعيدة الى الغرب والشمال •

هذا وقد ظلت «أوتيكا» مستقلة — على الاقل اسميا — عن قرطاج ، حتى مرحلة متأخرة ، ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراس ، ولكن قلة منها هي التي تطورت الى نفس الدرجة التي وصلت اليها مراكز الساحل التونسى ، وليس هناك من ريب في أن هذا انما يرجع أساسا الى الصعوبة الكبرى في الوصول الى الداخل^(٣٥) •

(٣) هيبو :

هيبو — أو «هيبو أكرا» (Hippo Acra) هي «بنزرت» الحالية ، وكان لها مرفأ عظيم في بحيرة بنزرت ، وكان مقرا ملكيا ، ومن ثم فقد أعطيت «هيبو» لقب «Regius» ، وأما كلمة «هيبو» فهي كلمة ليبية ، وتذهب الاساطير أن «ليبيا» — وهو الاسم اليونانى لشمال أفريقيا — كان في الاصل اسم زوجة المعبود «بوسيدون» إله البحر ، ووالدة «أجينيور» ملك فينيقيا •

(٤) ليتس :

وهي المدينة الوحيدة التي اختيرت في موقع غير مناسب ، في مجاورات خليج «سرته» ، ولم يكن لها مرفأ ، غير مصب نهر •

(٣٤) كلمة «بونية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيونيكوس» (Punicus) — أى قرطاجية ، أعنى فينيقية (معالم تاريخ الانسانية ٥١٤/٢) •
(٣٥) ج • كونتنو : المرجع السابق ص ٩٧ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٥ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٤ •

(٥) موجادو :

كان أبعد مكان فينيقي أمكن الكشف عنه على الساحل الإفريقي غربا ، انما يقع الى الجنوب من مدينة «موجادو» مباشرة ، على الشاطئ المغربي ، فيما بين الدار البيضاء وأجاديو ، حيث يصب نهر «كسوب» في خليج صغير تذود عنه أمواه المحيط ، جزيرة صغيرة ، طولها ٣ كيلا ، وعرضها نصف كيلو مترا ، وتبعد عن الشاطئ بمسافة تتراوح فيما بين كيلو ونصف ، وثلاثة كيلو مترات ، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها (٣٦) .

(٣٦) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٠ ، ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

الباب الخامس

العصر القرطاجي

الفصل الأول

الحياة السياسية والعسكرية

(١) من مظاهر العصر القرطاجي :

يمتد العصر القرطاجي — نسبة الى مدينة قرطاج — من حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وحتى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد ، أو على وجه التحديد حتى سقوط «قرطاج» تحت الاحتلال الرومانى فى عام ١٤٦ قبل الميلاد ، وليس هناك من ريب فى أن هذه الفترة القرطاجية انما تعتبر من أهم فترات التاريخ المغربى القديم ، فضلا عن التاريخ الافريقى وحوض البحر المتوسط .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن البناء التاريخى لهذه الفترة انما هو أمر صعب ، ذلك لأن المصادر — فى معظمها — يونانية ولاينية ، وكان الفينيقيون فى الغرب بالنسبة للاغريق — وخاصة تحت قيادة قرطاج — انما هم أعداء ألداء ، ومن ثم فان الصورة فى هذه المصادر اليونانية واللاتينية مشوبة بالمتجنى والتحامل ، ومن أسف أن الزمن لم يبق لنا على أية مصادر قرطاجية .

ويذهب «سبتيانو موسكاتى» الى أن المؤلفين اليونان واللاتين انما ركزوا انتباههم أساسا على الحروب ، بين قرطاج و سرقوسة من ناحية ، وبين قرطاج وروما من ناحية أخرى ، وهنا — فقط — يكون الوصف شاملا ومفصلا ، فضلا عن كتابة الاحداث فى أعقاب حدوثها مباشرة ، وأما بالنسبة لباقى التاريخ القرطاجي ، فالمعلومات قليلة ومتفرقة ، فمثلا ملاحظات الفيلسوف اليونانى «أرسطو» (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) عن الدستور البونى ، ورواية «بوليبىوس» عن ثورة الجند المرتزقة ،

والترجمة الاغريقية لنقش «هانو» ، وقائمة ممتلكات قرطاجة في أفريقيا في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد — كما ذكرها «سكيلاكس الزائف» Pseudo - Scylax — كلها أمثلة أخذت من وثائق متفرقة غير منظمة ، ومليئة بالفجوات ، وغالبا يصعب تجميعها^(١) .

هذا بالإضافة الى أن العون الذى يقدمه علم الآثار محدود ، ففى معظم الحالات ، أقيمت فوق المستوطنات الفينيقية مدن رومانية ضخمة ، وان كان قد حدث تقدم فى هذا المجال فى العقدين الاخيرين ، هذا وهناك عدد كبير من النقوش المدونة بمختلف صور اللغة الفينيقية ، غير أنها فى معظمها ، ان لم تكن جميعها ، نقوش نذرية أو شخصية فى مقابر أصحابها .

هذا ويكتنف تطور الحضارة الليبية المحلية — قبل القرن الثالث قبل الميلاد — بعض الغموض ، وقد استمر تراث حضارة العصر الحجري الحديث القفصية فى المغرب حتى الالف الاولى قبل الميلاد ، ويوجد القليل الذى يمكن تمييزه بأنه من عصر البرونز ، وهكذا فإن الصورة الاثرية للالف سنة الاولى انما تعكس لنا تطورا بنظير مطردا ، وان يكن مصدوبا بتأثيرات فينيقية فعالة متزايدة منذ حوالى القرن الرابع قبل الميلاد ، فظهرت ، بصفة خاصة ، المقابر ذات السطح الفسيح الضخم المبني من الحجر ، والتي — فيما يبدو — لا علاقة لها بمقابر حضارات ما قبل التاريخ الضخمة فى شمال أوروبا — وترجع الى نفس الفترة موضوع الحديث — وأما المقابر الاضخم منها ، كالمقبرة الركامية فى مزورة ، ومقبرة المدرسين ، فمن المحتمل أن لها علاقة بنشأة الوحدات القبلية الكبيرة فى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد^(٢) ، وأخيرا فهناك قدر ملحوظ من التماثيل فى المغرب ترجع الى هذا العصر .

1) S. Moscati, The World of The Phoenicians, London, 1968, P. 113.

(٢) ب. هـ. وارمنجتون : تاريخ أفريقيا العام — العصر القرطاجى — تورينو — ايطاليا — ١٩٨٥ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٢) سكان المغرب في العصر القرطاجي :

يذهب «وارمنجتون» الى أن سكان المغرب في العصر القرطاجي — من غير الفينيقيين — انما ينقسم الى ثلاث مجموعات رئيسية هي :
الموريون والنوميديون والجيتوليون :

١ — الموريون (Mauri) : وكانوا يعيشون في أقصى الغرب ، فيما بين الاطلنطى ومولكا (Mulucca) (وادي الملوية) ، وقد أطلق على اقليمهم اسم «موريتانيا»^(٣) ، ومن قبل مورسيا (Maurousia) وقد امتد اسم «موريتانيا» بعد ذلك شرقا الى ما وراء «وادي شلف» .

٢ — النوميديون (Numidae) : وكانوا يعيشون بين المورين وأقصى امتداد غربى للقرطاجيين في الاقليم الداخلي — في اقليم نوميديا — هذا ورغم أن الاغريق والرومان انما قد اشتقوا — خطأ اسم النوميديين من كلمة يونانية بمعنى «الرعاة» ، ويعنون بها وصف طريقتهم في الحياة — أى حياة البدو الرحل (Nomadie) . — فالواقع أنه لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين السكان في المنطقتين — منطقة المورين ومنطقة النوميديين — وعلى أية حال ، فلا شك أنه كانت هناك مناطق للحياة المستقرة والزراعة الدائمة ، التي استمرت هناك في النمو والتطور ، هذا فضلا عن أن هناك اتصال وثيق بين موريتانيا وجنوب أسبانيا .

٣ — الجيتوليون (Gaetuli) (الجدالة) : وهو الاسم الذي أطلق على الرعاة الحقيقيين على طول حواف الصحراء الشمالية^(٤) .

(٣) موريتانيا : اسم أطلقه الرومان على مملكتين في المغرب ، الواحدة : موريتانيا القيصرية ، وتقع في المنطقة الغربية من الجزائر ، وعاصمتها «شرشال» ، والاخرى : موريتانيا الطنجية ، وعاصمتها «طنجة» (تنجيس = Tingis)

(٤) ب.هـ. ٥٠ : وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٤ .

(٣) الزعامة القرطاجية للفينيقيين الغربيين :

يبدو أن المؤرخ الرومانى «ابيان» (القرن الثانى الميلادى) انما كان موافقا الى حد كبير فى وصفه لمدينة قرطاج عندما وصفها بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية ، فهى قد بنيت فى شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية ، وبالبحيرتين من ناحية أخرى ، الامر الذى جعل وجهتها بحرية ، أكثر منها برية أفريقية ، وعلى أية حال فمدينة قرطاج انما تعتبر نموذجا للمدينة القرطاجية التى تعبر عن التفكير والحياة القرطاجية ، فضلا عن النشاط السياسى والاقتصادى فى العصر القرطاجى (٥) .

هذا وقد كان لقرطاج ميناء صناعى مزدوج أعد اعدادا جيدا ، فاما الميناء الخارجى فكان لاستخدام السفن التجارية ، وان كنا لا نعرف عدد السفن التى كان يمكنها استخدامه فى وقت واحد ، وأما الداخلى فكانت به أرصفة وأحواض تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية ، هذا فضلا عن مبنى للمراقبة يصل ارتفاعه الى درجة تكفى للرؤية — رغم المبانى المعترضة — الى مسافة بعيدة فى البحر .

وكانت أسوار المدينة — والتى ترجع الى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد — هائلة الحجم ، الامر الذى مكنها من الصمود لكل هجوم — بما فى ذلك الهجوم الرومانى الاخير فى عام ١٤٦ ق.م — وكان طول الاسوار — بما فى ذلك المسافة المطلة على البحر — حوالى ٢٢ ميلا ، وكان ارتفاع القطاع الحاسم — لمسافة ميلين ونصف الميل عبر برزخ قرطاج — أربعين قدما ، وسمكه ثلاثين قدما ، ولم تقتصر مهمة تلك الاسوار على مجرد حماية المدينة من المتسللين أو المهاجمين ، سواء بسواء ، وانما كانت جدران الاسوار الضخمة تستخدم بعد تجهيزها

(٥) رشيد الناضورى : المرجع الناضورى : المرجع السابق ص ١٧٧ — وكذا ١٧٨.

Gilbert and Colette Charles - Picard, Daily Life in Carthage, London, 1961, 26.

بالاحتياجات الاساسية — كثكنات واسطبلات ذات أسوار سفلية وعلوية ، وكان الدور السفلى يسع ٣٠٠ فيلا ، ويسع العلوى ٤٠٠٠٠ حصانا ، وقد جهزت الارضيات المنحدرة بحيث تساعد على نزول وصعود هذه الحيوانات ، وتتسع الكثكنات لحوالى عشرين ألف جندي من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان ، هذا فضلا عن حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين مترا لزيادة تحصين المدينة ، الامر الذى جعل وسائل الدفاع عن قرطاج فى غاية القوة •

ولم تقتصر وسائل التحصين على ذلك ، وانما أقيمت أيضا قلعة داخلية ، مكانها الان كنيسة لويس التاسع ، ويحيط بها سور كبير طوله حوالى ٣ كيلا ، وهو بلا شك أقدم جزء فى المدينة •

وهناك أيضا آثار المباني ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالساحات — أو كما تسمى عند المواطنين العرب فى تونس بالمرجة أو البطحاء — وتشبه الساحة اليونانية (Agora) والملاطينية (Forum) (٦) ، وتقع فى مكان متوسط بين الميناء والقلعة ، وهكذا وجد بين الميناء وتل بيرصة ساحة عامة مكشوفة ، تشبه «الاجوراء» الاغريقية، و«الفوروم» الرومانى ، وان كان يبدو أن ساحة قرطاج انما قد خططت تخطيطا منتظما ، أو اتخذت مظهر الفخامة الذى تميزت به ميادين المدن الاغريقية ، هذا فضلا عن مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء (٧) •

وعلى أية حال ، فان مدينة قرطاج — فى أكبر المظن — قد نمت دون

(٦) الاجوراء (Agora) عند اليونان ، و «الفوروم» (Forum) عند الرومان ، هو سوق المدينة ، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء ، وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت روما زاد عدد الأسواق بها ، وكانت تقوم به المنشآت والابنية العامة •

(٧) ب.هـ ٥٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ ، أحمد صقر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ — تونس ١٩٥٩ ص ٩٧ ، ١٠٢ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٧٩ — ١٨٠ •

تخطيط ، فكانت شوارعها ضيقة ملتوية ، وان كانت مرتفعة بالنسبة لعصرها ، حتى وصل ارتفاع بعضها الى ستة طوابق ، شأنها في ذلك شأن تلك المباني التي وجدت في صور — المدينة الفينيقية الام — وفي موتيا في صقلية ، وقد استمر القرطاجيون في تلك المباني ذات الادوار المتعددة ، بصورة تقليدية لما كان في مدينة صور ، رغم عدم الحاجة اليها في المغرب ، وعلى أية حال ، فلقد وضحت في تلك الدور القرطاجية بعض التأثيرات المعمارية اليونانية ، وخاصة الاعمدة الايونية^(٨) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد استكملت قرطاج جوانبها الدينية ببناى المعابد ، غير أن معابد قرطاج — رغم ما قيل عن كثرتها ، فليس هناك ما يشير الى أنها كانت ضخمة ، حتى المراحل الاخيرة من التاريخ القرطاجي ، حين وضع التأثير الثقافى الاغريقى ، وذلك لان الادلة انما تشير الى أن القرطاجيين انما كانوا قوما محافظين في المسائل العقدية ، ومن ثم فقد ظلوا طويلا مخلصين لفكرة بساطة الاماكن المقدسة الخالية من أية أبنية أو أنصاب فخمة^(٩) .

بقيت الاشارة الى أن ما يقدمه لنا المؤرخون عن عدد السكان في قرطاج ، انما هو مجرد افتراضات ، لا تقوم على احصائيات رسمية ، وعلى أية حال ، فلقد قدر «سترابو» عدد السكان بسبعمائة ألف ، وهذا يعنى ببساطة كثافة سكانية مستحيلة ، فضلا عن أن مدن العالم القديم لم تكن تعرف هذه الارقام في عدد السكان ، وان كان هناك من يذهب الى أن «سترابو» كان يعنى بهذا العدد الذى ذكره (سبعمائة ألف) كل سكان قرطاج وكل منطقة أذار ، وربما كان التقدير الأكثر قبولا هى أربعمائة ألف ، بما في ذلك العبيد ، وهو ، على أية حال مرقم يجعل عدد سكان قرطاج مساويا لعدد سكان أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد^(١٠) .

(٨) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ ، رشيد الناضورى :
المرجع السابق ص ١٨٠ .

(٩) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ .

(١٠) نفس المرجع السابق ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

وأيا ما كان الامر ، فان التاريخ الحقيقى لقرطاج لم يبدأ الا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت ضربات الامبراطور الكلدانى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ، كما أثمرنا من قبل ، ثم خضوعها له وضمها الى الامبراطورية البابلية الكلدانية ، غير أن العامل الاهم - فيما يرى وارمنجتون - انما كان ازدياد ضغط المستوطنات الاغريقية فى صقلية ، مثل «سرقوسة» التى نمت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة ، والتى تأسست أصلا - هى وغيرها من المستوطنات هناك - نتيجة للضغط السكانى فى بلاد اليونان ذاتها .

وسرعان ما ازدهرت قرطاج حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية فى أواسط البحر المتوسط ، ثم صارت قرطاج على نفس سياسة صصور وصيدا ، فأظلت المدن الفينيقية بحمايتها ، وأسست مستعمرات جديدة ، من ذلك تلك المستعمرات التجارية فى جزيرة «اليا» - بين سردينيا وأسبانيا - حوالى عام ٦٥٠ ق.م ، فضلا عن مستعمرات أخرى على شواطئ «مينوركا» فى جزر البليارد ، وغيرها من المستعمرات على شواطئ البحر المتوسط الاوربية والافريقية^(١١) - كما سنرى - .

(٤) التنظيم السياسى فى قرطاج :

كان المظهر الوحيد فى قرطاجه (قرطاج) الذى خطى باطراء ومديح أباطرة الاغريق والرومان هو دستورها السياسى الذى يبدو أنه كان يكفل لها الاستقرار ، وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن فى العصور القديمة ، وان كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة ، كما أنه ليس من المؤكد أن هؤلاء الكتاب المقدامى قد أدركوا الحقائق ، كما ينبغى أن ندرك^(١٢) ، وعلى أية حال ، فان التنظيم السياسى فى قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة :

(١١) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ ، وكذا

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 54.

(١٢) ب.ه.ه. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٤ .

١ - المرحلة الاولى : مرحلة الملكية ، والتي استمرت حتى العصر الهلينستى ، وذلك النظام استمرارا لما كان موجودا فى حكومات المدن الفينيقية فى المشرق - كما تشير الى ذلك النظام الفينيقى الوثائق المصرية والاشورية - فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية فى الغالب ، مع انقطاع أحيانا فى التسلسل الملكى - ومع ذلك ، ففى الامكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت فى عدة مدن ، وان كانت غير كاملة ، فهناك مثلا أسرة حيرام فى صور ، وكذا «لولى» (ايلى ايللى) فى صور أيضا ، وقد ظهر الاول كأهم شخصية فى منطقة الساحل فى عهد داود وسليمان عليهما السلام ، وظهر الثانى كأهم شخصية فى نفس المنطقة على أيام سرجون الثانى (٧٣٢ - ٧٠٥ ق.م) ، بل انه انما قد فرض شخصيته على قسم كبير من فينيقيا ، حتى أنه حاول اخضاع قبرص (١٣) .

غير أن الملكية القرطاجية - رغم ذلك - انما كانت الى حد ما فريدة فى نوعها ، فهى ليست كالمملكة المصرية القديمة ذات الطابع الالهى (١٤) ؛ أو الملكية السومرية (١٥) ، ذلك لان الملكية القرطاجية انما كانت فى بداية أمرها تتم عن طريق الانتخاب - وليس المورثة - فكان الملك القرطاجى

(١٣) أنظر : (محمد بيومى مهران : اسرائيل - الكتاب الثانى ص ٧٨ - ٧٨٢ ص ٨٤٣ - ٨٤٧ ، ٩٠٤ ، ٩١٠ - ٩١٢ ، ٩٦٣) .

(١٤) أنظر : سورة الشعراء : آية ٢٩ ، القصص : آية ٣٨ ، النازعات آية ٢٢ - ٢٤ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - القاهرة ١٩٨٤ ص ٩٩ - ١٣٠ .

(١٥) هناك ما يشير الى مبادئ ديمقراطية بدأت فى العراق القديم منذ الالف الثالثة قبل الميلاد ، تشير الى تواجد التفكير الديمقراطى فى بداية العصر التاريخى ، وانتخاب الحاكم الذى يرأس حكومة المدينة ، بناء على قرارات الجمعية العمومية ، والتي تتكون من جميع المواطنين ، ربما فيهم النساء (أنظر : رشيد الناضورى : جنوبى غربى آسيا وشمال أفريقيا ، محمد عبد اللطيف : تاريخ العراق القديم ص ١٧٨ - ١٨٠ ، T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES. II, 1843, P. 165, No. 35.

يختار من الطبقة الارستقراطية ، ذات المال والجاه المورثين ، ومن ثم فان النظام السياسى القرطاجى يتفق مع الهدف الفينيقي الاول ، وهو الاستحواذ على الثروة الاقتصادية ، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية إنما كانت تهدف الى تدعيم الجانب الاقتصادى ، كما أن عمليات الاستكشاف البرى والبحرى القرطاجى ، فضلا عن التدخل فى أسبانيا وغيرها ، إنما كانت لتثبيت هذا الهدف الاقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقي والقرطاجى ، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة فى المكنة الاولى فى السلطات السياسية .

وعلى أية حال ، فلقد تولى منصب الملك فى قرطاج خلال القرنين ، السادس والخامس قبل الميلاد ، أفراد من «الأسرة الماجونية» ، والتي ظهر من أفرادها المبرزين «هملكار» (حملقرت = Hamilcar) (ا) الذى قاد حملة فى عام ٤٨٠ ق م ، والمستكشف «حنون» (هنو = Hanno) والذى ربما كان ابنا للملك «هملكار» ، وذلك لأن النصوص تشير اليهما بوصفهما ملكين ، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماقون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القادة العسكريين للدولة كذلك ، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة ، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى فى تلقيبيهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا فى الاعتبار سلطتهم الدينية والقضائية ، فضلا عن سلطاتهم السياسية .

٢ - وفى أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى فى النهاية الى تناقص قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الاقتصادية ، فلقد نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى ، وهى طبقة ملاك الاراضى الزراعية ، وبذلك بدأت عوامل التنافس الاقتصادى على الثروة ، والتنافس السياسى على الحكم ، وقد نجحت طبقة ملاك الاراضى فى النهاية من الاستحواذ على تلك السلطة ، وانتزاعها من الأسرة الماجونية ، وذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هى أقرب الى النظام الجمهورى ، منها الى النظام الملكى ، رغم الاستمرار فى استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد ، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية

من التنظيم السياسى فى قرطاج من حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، الى حوالى بداية القرن الثالث قبل الميلاد •

هذا وقد صاحب هذا التطور الجديد نشأة سلطة «الشفطان» (Sufetes) ، وهو الاصطلاح السياسى القرطاجى الوحيد الذى نقله لنا الكتاب الرومان ، وكلمة «الشفطان» أو السبطان ، تعادل الرقيباء (السناسرة) عند الرومان ، كما كان لقبها باللغة السامية يعادل لقب «القضاة»^(١٦) عند بنى اسرائيل ، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان - وربما أكثر - سنويا ، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدما فى شمال أفريقيا فى مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الاقل بعد الغزو الرومانى ، ليشار به الى الحكام الرئيسيين للمدينة ، وكان تقلص سلطة الملك شبيها بالتطورات فى المدن الاغريقية وروما ، وفى نفس الوقت ازدادت قوة الارستقراطية الثرية ، حتى أصبح لهم - الى جانب عضويتهم الجماعية فى مجلس للدولة يشبه السناتو الرومانى (مجلس الشيوخ) - مجلسان آخران منتخبان - مجلس المائة والاربعة ومجلس الثلاثين - وهما يكونان فى الحقيقة «أوليجركية» ضيقة وثيقة البنيان ، مكونة من أغنى الرجال ، وأوسعهم نفوذا ، ويتحكمون فى كل ادارات الحكومة •

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأى فى انتخابات الملوك والشفطان وغيرهم من الموظفين فانه من المؤكد أن السياسات التمرطاجية كانت تحكمها الثروة دائما ، ويعتبر الفيلسوف اليونسانى «أرسطو» (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الدور الذى لعبته الثروة فى قرطاجه كان مظهرا سيئا ، فلقد كان شرف المولد وتوفر الثروة شرطين أساسيين للانتخاب ، فكل الامور يقررها الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور

(١٦) أنظر عن القضاة عند بنى اسرائيل (محمد بيومى مهران : اسرائيل - الجزء الثانى - ص ٦٢٣ - ٦٥٧) •

معا ، وفي حالة اختلافهم فقط تتم استشارة الجمعيات الشعبية
(الوطنية) •

٣ - وكانت المرحلة الثالثة على أيام القرنين الثالث والثاني قبل
الميلاد ، وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة برقة (برقا) وان اختلفت
عن المرحلة الاولى ، وانما جمعت هذه المرحلة الثالثة بين سلطة برقة
وسلطات مجلس الشيوخ والمجالس الاخرى الخاصة بالشئون المالية
والدينية كالمجلس الثلاثيني ومجلس العشرة •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنا أن قرطاج لم تخضع لانقلاب
عسكري يقوده قائد طموح أو مغامر ، مثلما تكرر هذا المصير في المدن
الاغريقية ، وخاصة في صقلية ، وربما كان السبب أن أجهزة الرقابة
والسيطرة كانت فعالة (١٧) •

(٥) الجيش القرطاجي :

اتجهت قرطاج الى تدعيم كيائها العسكري بانشاء قوة حربية برية
وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية وفي القرن الرابع أو الثالث قبل
الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلا تاما عن الوظائف الاخرى ،
وكان القواد يعينون فقط في حالة الضرورة ، ولحملات محددة الجهة
والهدف ، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائدا دائما ، وقد
انتهجت العديد من الاسر نهجا عسكريا ، مثل «آل ماقون» (ماجون) في
أوائل التاريخ القرطاجي ، و «أسرة برقا» (Barcids) فيما بعد ذلك •

وكان عبء قيادة الفينيقيين في الغرب - فيما يبدو - ثقila على
القوة البشرية المتاحة لقرطاج ، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس
قبل الميلاد ، تعتمد على مواطنيها - شأنها في ذلك شأن المدن المصرية

(١٧) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٤ ، رشيد
الناضوري : المرجع السابق ص ١٨٠ - ١٨٤ ، ه.ج. ويلز : معالم تاريخ
الانسانية - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٣١ •

الاغريقية — غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس ، وتحت قيادة «ماقون» (ماجو = Mago) — الذى أسس أسرة حاكمة فى قرطاج — انما اتبعت سياسة «استخدام القوات المرتزقة» على نطاق واسع ، وهى نفس السياسة التى تبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجى •

وهكذا استخدم القرطاجيون الليبيين الذين ساهموا بأكبر نصيب ، ثم سرعان ما ازداد عددهم عندما استولت قرطاج على الاقليم الداخلى ، واضطرت بالتالى الى تجنيد القوات اجباريا ، وقد قام الليبيون بدور هام فى الجيش القرطاجى — كمشاة خفيفة الحركة — كما شارك الفرسان النوميديون والموريثانيون — فى الاجزاء الشمالية للجزائر والمغرب — بدور بارز فى كل الجيوش القرطاجية — سواء أكانوا مرتزقة أو حلفاء طبقا لمعاهدات عقدت فى تاريخ لاحق — هذا فضلا عن مرتزقة آخرين — من أسبان وغاليين وايطاليين ، بل واغريق — عملوا فى الجيش القرطاجى فى أوقات مختلفة ، وطبقا لظروف متباعدة ، وقد نجحت هذه السياسة ربما بصورة أكبر مما تسمح به طبيعة الامور ، ولعل أهم ما دفع القرطاجيون الى استخدام الجنود المرتزقة أن قرطاج ما كانت بقادرة على أية حال — اعتمادا على سكانها المحدودى العدد — أن تتحمل الحرب الطويلة التى خاضتها •

على أنه لا ريب فى أن اعتماد الجيش القرطاجى على المرتزقة — فى معظمه — فضلا عن اعفاء المواطنين القرطاجيين من الخدمة العسكرية منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد — عدا فترات قليلة — انما قد أدى الى نتائج ليست ، على كل حال — فى مصلحة الوطن القرطاجى ، فهو (أولا) قد حال بين القرطاجيين وبين تعميق التماسك بمدى قوتهم الذاتية التى كانت عاملا فعالا فى تطور الاتجاهات الديمقراطية فى بلاد الاغريق والرومان ، فضلا عن اضعاف الروح القومية وابعاد القرطاجيين تدريجيا عن الجيش ، وهو (ثانيا) قد أضعف القوات العسكرية القرطاجية ، ذلك لأن الجنود المرتزقة ما كانوا يحسون بالولاء نحو الوطن الذين أصبحوا قوته العسكرية ، فضلا عن الولاء للنظام نفسه •

وزاد الطين بلة أن القوم حينما أرادوا علاج هذه المشكلة ، بوضع هؤلاء الجنود المرتزقة تحت القيادة القرطاجية ، انما استعانوا في الوقت نفسه ، ببعض القادة اليونانيين الذين كانت لهم تجارب حربية معروفة ، وكان هذا مكنم الخطر ، ذلك لأن استخدام هؤلاء القادة اليونانيين انما كان يشكل — في أحيان كثيرة — خطرا بالغاً على الأمن القرطاجي نفسه ، ذلك لأن احتمال خيانتهم لقرطاج ، انما كان محتمل الوقوع في أى وقت ، بسبب رغبة اليونان الجامحة في السيطرة السياسية والاقتصادية على قرطاج — كما حدث في صقلية على أيام الصراع العنيف بين الاغارقة والقرطاجيين — والتاريخ يحدثنا أن «أجاثوكليس» انما حاول اغراء «أفلاطون» — وهو ضابط اغريقي في الجيش البطلمي في مصر — ليعمل ضد قرطاج ، على أن يكون ملكاً عليها ، ان كتب له النصر على القرطاجيين — الامر الذي فعلوه مع مصر مرات عديدة ، خاصة اذا كان القتال ضد أبناء جلدتهم من اليونانيين — ، وان كان هذا لا يمنع من القول من أن هناك من المرتزقة من كان على ولاء لقرطاج^(١٨) .

ومع ذلك ، فليس هناك من سبيل الى شك ، من أن القرطاجيين انما كانت لهم قوتهم الحربية الهامة ، كما كان لهم أسطولهم القوي ، والذي كان يمثل قوة الدفاع — فضلا عن الهجوم — الرئيسية ، ذلك لأن خبرة القرطاجيين الطويلة بفنون الملاحة — التجارية والحربية — فضلا عن درايتهم العملية ببناء السفن وتجهيزها ، الى جانب ما تتميز به سفنهم على السفن اليونانية والرومانية ، من صغر في الحجم ، وسرعة في الحركة ، وقدرة على التكتيك الحربي السريع أثناء المعارك البحرية ، كل تلك الامور انما قد أتاحت لهم السيادة البحرية الى حد كبير ، وبالتالي

(١٨) أنظر : محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٤٦ - ٣٥٠ ، مصر - الجزء الثالث ص ٦٥٦ ، ٦٦٣ - ٦٦٤ ، ٦٨٨ - ٦٨٩ ، وكذا

Herodotus, III, 13-16.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 361-362.

D. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94-95.

تدعيم التنظيم السياسى القرطاجى ، الامر الذى ساعد على تثبيت الدولة القرطاجية فى المغرب وحوض البحر المتوسط ، كقوة سامية تواجه القوى اليونانية والرومانية المعاصرة فى تلك المنطقة ، خاصة وأن الدولة القرطاجية انما دخلت فى صراع مرير مع تلك القوى اليونانية فى المرحلة الاولى من العصر القرطاجى ، ثم استمر هذا الصراع فى المرحلة الثانية من العصر القرطاجى مع القوة الرومية (١٩) .

(١٩) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ١٨٦ - ١٨٧ .

الفصل الثاني

الحياة الدينية والاقتصادية

(١) الحياة الدينية

(١) فيما قبل العصر القرطاجي :

لا ريب في أنه من الصعوبة بمكان أن نقدم صورة واضحة عن المعتقدات الدينية^(١) لبربر ليبيا ، قبل وصول التأثيرات البونية الفينيقية ، ثم فيما بعد الرومية ، ذلك لأن آثار عصور ما قبل التاريخ لا تقدم لنا أكثر من الطقوس . بل إن معرفتنا عن أفريقيا الصغرى تضيق حتى تصبح مقصورة على الطقوس الجنازية^(٢) ، ومن ثم فليس أمامنا سوى الاعتماد على المؤلفين القدامى ، فضلا عن قليل من نقوش العصر المروماني ، والتي قد تتفق أو لا تتفق مع العصر — موضوع الحديث — وعلى أية حال ، فإن شعور القداسة عند الليبيين إنما يتبلور حول عدد

(١) لعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن الدين بمعناه الواسع ليس محصورا في نطاق الأديان السماوية المستندة الى الوحي السماوي ، والتي تتخذ معبودا واحدا ، هو الله الخالق المهيمن على كل شيء ، فالديانة الطبيعية المستندة الى محض العقل ، والديانات الخرافية وليدة الخيالات والاهوام ، وكل ديانة تقوم ، هي أو جانب منها ، على عبادة التماثيل أو العجول وغيرها من الحيوانات أو النباتات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة . الخ ، إنما هي دين لأن القرآن الكريم سماها دينا ، يقول تعالى في آل عمران (آية ٨٥) «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين» ، بل إن القرآن الكريم إنما يسمى معتقدات الآخرين دينا ، حتى إن كان هذا الدين هو الكفر ذاته ، يقول تعالى «لكم دينكم ولي دين» (سورة الكافرون آية ٦) ، وفي صحيح البخاري (٢٢٠/٦ - كتاب التفسير) عن قول الله تعالى «قل يا أيها الكافرون» : يقال لكم دينكم الكفر ، ولي ديني الإسلام .

2) G. Camps, Aux Origines de la Berberie, Monuments et rites Funeraires Protohistoriques, Paris, 1961, P. 461.

كثير من الاشياء المختلفة ، فقد كان القوم يعتقدون في ظهور القوى الخارقة للطبيعة في المناطق المحيطة بالريف ، حيث تعبد جنبات الجبال والانهار ، كما تشير كتابات العصر الرومانى (٣) ، فضلا عن الاعتقاد بأن القوى الالهية يمكن أن تحل في الاشياء الشائعة العامة .

وهناك ما يشير الى عبادة الصخور المستديرة أو المدببة مثل الحصى الجرانيتى الذى يرمز للوجه الانسانى أو للأعضاء التناسلية (٤) ، ويشير «بومبونىوس ميلا» (Pomponius Mela) ، و«بلينى الاكبر» (٣٢ - ٧٩ ق م) الى صخرة فى «برقة» كان محرما لمسها خوفا من هبوب الرياح الجنوبية ، هذا فضلا عن عبادة مصادر المياه العذبة ، وخاصة العيون والابار ، ويشير القديس «أوغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠ ق م) الى أنه فى يوم ٢٤ أغسطس من كل عام ، كان النوميديون يمارسون طقوسا تقضى بالغطس فى البحر ، ولم تكن عبادة الاشجار مجهولة ، ومن ثم فقد طالب مجمع دينى أفريقى فى القرن الرابع الامبراطور أن يبطل عبادة الاوثان «حتى الاشجار والغابات» .

هذا ، وطبقا لرواية «نقولا الدمشقى» ، فلقد كانت طقوس الاستحمام فى البحر فى الانقلاب الصيفى ، وعبادة الماء والاشجار ، انما هى مظاهر لتقديس الخصب الذى عبر عنه بطريقة مباشرة «الدابسوليون» (Dapsolibes) وبمجرد أفول كوكب الثريا ، وبحلول الليل تنسحب النسوة ، ويطفئن أنوارهن ، ثم يلحق الرجال بهن ، ليتزوج كل واحد منهم صاحبتة التى جمعتها الصدفة بها ، وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن هؤلاء «الدابسولين» (Dapsolibes) هم حقيقة

(٣) أنظر :

M. Leglay, Saturne ofuain, Histoire, Bibliotheque de L'Ecole française d'archeologie de Rome, Fasc. 205, Paris, 1966, P. 420, Note 7, 421, Note, I.

W. Vycichl, Die Mythologie der Berber, 197٦, P. 623-624.

4) E. Gobert, Essai sur la Litholatrie, BA, 89, 1948, P. 24-110.

W. Vycichl, Op. Cit., P. 695-697.

«الدابسو - ليبين» أو «الليبين الاغنياء» ، وهذا ما يفسر بوضوح ولعهم بطقوس الخصب في «ليلة الاخطاء»^(٥) .

وهناك ما يدل على أن الليبين قد قدسوا الحيوانات التي ترمز الى قوة التوالد - وخاصة الثور والاسد والكبش - ويشير «كوريبس» (Corippus) الى أن «الملجوانتين» (Laguantan) في «سرتة» (Syrtis) انما كانوا يطلقون الثور - وكان يمثل معبودهم جـوزيل بن أمون - على أعدائهم ، هذا وقد زينت كل من المقبرة الملكية في مقابر «روميا» ، على مقربة من «شرشال» ، والضريح الفخم في «دجة» بتمثيل أسود ، ولكن «الكباش» انما كانت الهدف الرئيسي للعبادة^(٦) ، والتي يحتمل أنها كانت قد انتشرت في شمال أفريقيا ، قبل أن تصبح الصحراء جرداء ، وطبقا لرواية «أثناسيوس» (Athanasius) فان الليبين انما اعتبروا «الكبش» لها مقدسا تحت اسم «مأون»^(٧) .

وقد اعتبرت الاسماك في منطقة تونس الحالية مقدسة ، ومن ثم فقد تميزت المنطقة بشعائر عبادة الاسماك ، الامر الذي يفسر لنا الى حد ما وفرة الصور الخاصة بالاسماك التي عثر عليها على الفسيفساء التونسية، والمسمك - وهو رمز للذكورة - يقى من العين الشريرة ، ويظهر عضو تناسلي ذكر على شكل سمكة قاذفة بلقاحه بين عضو تناسل أنثيين على فسيفساء من سوسة ، والى جانب السمك ، فلقد انتشر الحار انتشارا واسعا ، كرمز للجنس المؤنث في كل أفريقيا الصغرى ، وهي تخدم

(٥) جيهان ديزانج : البربر الاصليون - تاريخ افريقيا - تورينو ١٩٨٥ ص ٤٤٦ ، وكذا

C. Muller, Fragmenta Hist. Graec. III, P. 462.

(٦) أنظر :

W. Vycichl, Op. Cit., P. 695-697.

(٧) أنظر :

Ahmed Ghazal, The Historical Background of Amun and his Cult in The Western Oases and in The Libyan Greek Colonies Before Alexander The Great, in BFA, Alexandria University, 1978, P. 103-126.

الاحياء بما فيها من جمال ، وتريح الموتى في قبورهم^(٨)

هذا وقد أعتبر القوم بعض أجزاء الجسم الانسانى — وخاصة الشعر — وعاء للقوى الخارقة للطبيعة — وقد وجه «بيكار» النظر الى عادة انتشرت بين الليبيين ، وهى تجميع الشعر فى صغيرة واحدة تتجمع فى خصلة (كالعرف أو الذؤابة) أعلى الرأس ، وطبقا لرواية «سترابو» فان «الموروسيين» (Maurusitans) كانوا يتجنبون الاقتراب من بعضهم البعض أثناء المشى حتى لا يفسدوا أناقة تصفيف شعورهم وهذا لم يكن امارة دلالة ، أو حفاظا على أناقة ، بقدر ما كان فى أكبر الظن — خوفا عقديا على رجولتهم ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فلقد كان يصحب قلى الشعر شعيرة معينة للانتقام عند نساء «الاديرماخييين» (Adyrmachidae) ^(٩) .

وكان القوم يحيطون الجسد بعناية بعد الموت ، ويذهب «كامبس» الى أن الميت انما كان يدفن على جنبه ثم تتم امالته أو ضمه ، وقبل ذلك فانه غالبا ما كان ينزع اللحم من العظم ، وعادة تغطى العظام واللحم بتراب أحمر ، يعتقد أنه يعيد الحياة الى الجثة ، ويتم تزويده بالطعام ، كما توضع التماثيل لحمايته فى الحياة الاخرى ، وأما عادة تقديم الاضاحى على قبر الميت ، فكانت تتم فى منطقة لذلك تواجه الشمس المشرقة ، وأحيانا كان يرمز للقوة الحيوية للميت بنصب ضخم على هيئة مسلة أو لوحة تذكارية .

ويذهب «هيرودوت» الى أن النسامونيين انما كانوا يستشيرون أجدادهم حول المستقبل بالنوم فوق القبر ، ومن ثم فقد ذهب «كامبس» الى أن هذه الشعيرة انما كانت سببا فى وجود ركام ترابى فى شكل

(٨) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٤٦ .

(٩) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٥٠ ، وكذا

Herodotus, IV, 168.

المنصة العالية فوق القبر ، ومن المحتمل أنها انتشرت انتشارا واسعا بين الصحراويين ، فقد عبروا عن دهشتهم من أن «الاطلنطين» (Atlantes) لم يروا قط أية رؤيا في نومهم ، كما يذهب «هيرودوت» الى أن «السامونيين» انما اعتادوا — عندما يقسمون على شيء — أن يضعوا يدا على قبر أحد المشهود لهم بالعدل والخير ، ويبدو أن هذا رمزا لعبادة الموتى الناشئة^(١٠) .

وعلى أية حال ، فإن هناك ما يدل — منذ عصور ما قبل التاريخ — على نشأة جبهات كاملة حول قبور معينة ، كان أصحابها — دونما ريب — من ذوى المكانة والاعتبار أثناء حياتهم^(١١) ، الامر الذى أدى الى أن يتساعل «كامبس»^(١٢) عما اذا كانت عبادة مشاهير الموتى قد أدت الى قيام أو تغيير بنيه التجمعات السكانية فى العصور المبوية الرومانية ، وكان من الطبيعي عند قام أية مملكة أن تنشأ فيها على الفور عبادة للوكها الراحلين^(١٣) .

وعلى أية حال ، فإن الليبيين لم يتعبدوا لمعبودات كبرى ممثلة فى صورة بشرية ، أو حتى شبه بشرية ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فقد كانت قرابينهم مقصورة على الشمس والقمر — وقد سادت عبادتها كل منطقة الشرق الأدنى القديم فى معظم الاحايين — ومع ذلك ، فإن سكان منطقة الجريد انما كانوا أكثر ميلا لتقديم القرابين الى «أثينا» (Atlantes)

(١٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٥٠ ، وكذا

Herodotus, IV, 172, 184.

G. Camps, Op. Cit., P. 461-466.

(١١) أنظر عن هذه العادة فى مصر (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ١٤٠) .

(١٢) G. Camps, Op. Cit., P. 564.

(١٣) أنظر عن هذه العادة فى مصر (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، الحضارة المصرية القديمة ص ١٢٨ ، وكذا

A. R. Schulman, A Cult Ramesses, III, at Memphis, JNES, 22, 1963, P. 1771184).

و «بوسيدون» (Triton) و «تريتون» (Poseidon) وفي نفس الوقت لعن «الأترانتيون» (الاطرانطيون = Atarantes) وهم الجيران الغربيون للجرمانيين — الشمس ، بينما قدم «ماسينيسا» (Massinissa) — طبقا لرواية ثيشيرون ١٠٦ — ٤٣ ق م — الشكر للشمس وغيرها من آلهة السماء ، وعلى أية حال ، فلقد استمرت عبادة الشمس في عدة مدن في أفريقيا الرومانية مثل «مكثر» و «سبيطلة» (في تونس) ، و «دجة» (على الساحل الجزائري ، غربي بلدة جيجل مباشرة ، شرق خليج بجاية) ، وان هذا لا يمنع من القول بأن المصادر المنقوشة والادبية انما تكشف عن عدد وغير من المعبودات ، لا ترد أسماؤها غالبا ، الا مرة واحدة ، وأحيانا يشار اليها اشارة جماعية ، مثل المعبودة «المورية» Dii Mauri ، كما عثر على نحت يشبه هيكلا مكرسا لسبعة من المعبودات ، على مقربة من البجة (١٤) .

وأما وجهة النظر القائلة بأن هناك الها واحدا كبيرا للبربر الليبيين ، فان هناك من يرى أن «أمون» — اله العاصمة المصرية طيبة (الاقصر) — انما كان في طريقه لكي يصبح الاله السائد في أفريقيا الصحراوية ، وأفريقيا الصغرى ، عندما ظهر الفينيقيون في القارة ، ورغم أن هذه النظرية قد تكون مقبولة ، غير أننا لا نملك الادلة الكاملة لتأييدها (١٥) .

على أن هناك ما يشير الى أن عبادة آمون قد انتشرت في الصحراء الغربية ، وأن آمون قد أصبح في عهد الدولة الحديثة (١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق م) في مصر ، هو الاله الرئيسي للمعابد في الواحات ، ورغم أن عبادة آمون بدأت تتقهقر في مصر في العصر المتأخر ، غير أن الليبيين في الواحات انما قد تمسكوا بها في اخلاص ، حتى أن عبادة آمون في الواحات قد ازدهرت في القرن الخامس قبل الميلاد ، بل أن شهرة

14) G. Camps, L'Inscription de Beja et le Probleme des Dii Mauri in RA, 98, 1954, P. 33-39.

وكذا. جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١ .

وحى أمون في سيوه ، انما قد ذاعت — منذ القرن السادس قبل الميلاد — بين الاغريق النازلين في برقة ، وكان له جمهور عارف يفضله ، فنشر شهرته في عالم البحر المتوسط ، فكان الناس يقصدونه من آسيا الصغرى ومن بلاد الاغريق وقرطاج لاستشارته^(١٦) .

ولعل هذه الشهرة في التنبؤ هي التي دفعت الملك الفارسي «قمبيز» (٥٢٥ — ٥٢٢ ق م) الى القيام بحملته المشهورة الى سيوه لتحطيم معبد أمون هناك ، والذي تنبأ كهنته بسوء المصير لقمبيز وفتوحاته ، وقد صدقت نبوءتهم^(١٧) ، كما أن الاسكندر المقدوني قد أسرع عندما فتح مصر في عام ٣٣٢ ق م ، الى واحة سيوه — مقر وحى أمون — حيث رحب به كهنة أمون كابن للاله أمون ، الامر الذي اعتبره الاسكندر قرارا من الاله أمون يمنحه به السيادة على العالم ، ومنذ ذلك الحين أصبح مهبط وحى أمون في سيوه (جوبيتر — أمون) ، احدى العجائب العظيمة في العالم القديم ، وغدا معبده ومصدر الشمس فيه من الاشياء الشهيرة التي تستحق المشاهدة^(١٨) .

(٢) في العصر القرطاجي :

لا ريب في أن العبادات في «قرطاج» انما تشبه الى حد كبير تلك التي في فينيقيا — حيث نشأت أصلا — وأما أهم المعبودات القرطاجية فهي :

١ - بعل حمون :

يعد «بعل حمون» هو الاله الاعلى في العالم الفينيقي الغربي ، حيث

(١٦) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة — ترجمة وراجعته : عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى القاهرة ١٩٥٢ ص ٣٩٠ — ٣٩١ .
(١٧) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٦٦٦ — ٦٦٧ ، وكذا

Herodotus, III, 17-19.

(١٨) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣٩١
A. Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, P. 84-98.

عرف بهذا الاسم ، وأما في فينيقيا فهو «بعل» (١٩) ، وأما معنى اللقب «حمون» لبعل القرطاجي فهي «الناري» ، ويعبر عنه بشكل الشمس .

(١٩) بعل : هو أبرز الالهة «التنعانية - الفينيقية» ، ومركز مجموعة أخرى من الالهة ، وكلمة «بعل» معناه في الاصل «سيد» ، ولهذا أمكن إطلاقه على آلهة أخرى ، ولكن «بعل الأكبر» كان اله العاصفة والبرق والمطر والاعصار كالاله «حدد» (حدد) عند البابليين والاراميين ، وتشير بعض الاساطير الى انه ابن «ايل» و «عشيرة البحر» بينما تشير اساطير أخرى الى أن زوج عشيرة هو «أدد» المعروف باسم «بعل» أو «السيد» أو «أدون» رب الرعد والعاصفة والبرق ، ومن ثم فهو اله خصب واخصاب . ويوصف «بعل» في بعض النصوص بأنه أقوى الابطال ، وهو الامير (زبل ، بعل ، بول اله عقرون في التوراة) وهو أحيانا الشمس التي تضيء وأما اسمه «أدد» (حدد = هدد) فيشير من الناحية اللفظية الى الرعد وأمطار الشتاء ، تعبيرا عن مظهر القوة ، ولكنه لم يظهر الا بصورة ثانوية كاله للزراعة الناتجة عن المطر ، وهو يوصف كأنه مدارب دغير يبدو في دائرة القصير مسلحا ببلطة الحرب وحربة البرق ، وعلى غطاء رأسه قرنا ثور ، اشارة الى قوة اخصابه .

وهناك اشارة تتعلق بصفات «بعل» فيما يختص بالخصب والزراعة ، وهو ما تزال موضع خلاف ، في تفسيرها وترجمة جزئيات منها ، فضلا عن الخلاف حول أسماء الالهة ، بل ان هناك من يرفض وجود ابن الاله بعل يسمى «عليان» ، ويفسرون اصطلاح «عليان بعل» (عليان بعل) بأنه صفة للاله بمعنى الرفيع أو العالي ، وليس أسما لابن بعل ، وأما الاسطورة ذاتها فتدور حول صراع بعل وابنه عليان ضد المعبود «موت» (وهو عند فيلون بمعنى الموت، وعند ديسو بمعنى البطل المحارب) الذي يسمى حرارة الصيف ، ويبدأ الصراع ببعل قويا قبل وصول موت ، فيرسل الصواعق والمطر مدرارا ، فضلا عن الرياح والاعاصير ، كما يحدث في شهر شباط ، غير أن سلطان بعل سرعان ما ينهار أمام قوة «موت» الذي يأمر بأن تسود الحرارة والدفع ، وهكذا يموت بعل أولا ، وينزل الى باطن الارض ويبقى ابنه عليان (عليان) بمفرده بعض الوقت ، متمثلا في الشجر على الشجر ، تحت وطأة حرارة الشمس القوية ، وأخيرا يضطر غاليان الى السقوط واللحاق بوالده داخل الارض ، ولكنه قبل وفاته يلتقي بأخته وزوجته «عينات» (عين أو نبع الماء) واجتماعهما يمثل الربيع ، وتحدث عينات عن أخيها حتى تجده تحت الارض فتخرج جسمه وتذهب به الى قمة جبل «سافون» ، حيث تدفنه وتضحي من أجله ، ثم تفتش عن موت وتسأله أن يرد أخاها الى الحياة ، فيرفض فتقتله ، وتصف النصوص مشهد مقتله متمثلا في سنابل القمح التي تنضجها حرارة الصيف ، ثم تعيد أخاها الى الحياة ، وتستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد (انظر : نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٦٨ - ٧١ ، محمد بيومي مهران - المدن الفينيقية - بيروت ١٩٨٩ ص ٢١٥ - ٢١٨ ، ج . كونتنو : المرجع السابق

وقد شبه في العصور الرومانية بالمعبود «ساتورن» (Saturnus) (٢٠) وقد أورد «هنو» (Hanno) وغيره ذكر معبده في «قرطاج» ، وربما اقتصرن قبل ذلك بالمعبود «زيوس» (أب هرقل / ملقارت) ، ذلك لان المعبود الرئيسى الذى كان يذكر ، فيما يتصل بقسم «هاينبال» عن العداوة المستعمرة الاوار ضد روما ، كان هو «زيوس» الذى تم القسم أمام محرابه • هذا وكرست لوحات تذكارية فينيقية غربية للمعبود «بعل حمون» و «تانيت بينى بعل» معا ، وهو يبدو فيها أقل الاثنين شأنًا ، ومع ذلك فهو يظهر وحده في لوحات أخرى ، ومن الطبيعى أن يوجد له (أى بعل حمون) معابده ومحرابيه على جبل «بوقرين» (الذى يشرف على قرطاج عبر الخليج) (٢١) •

وربما كان «بعل حمون» انما يمثل اندماج بعل أفريقي شرقي باله أفريقي (ليبي) قريب الصلة بالمعبود «زيوس أمون» ، ومن هنا اتجه البعض الى اعتبار «بعل حمون» (Baal Hammon) (ويُدعى أحيانا «بعل عمون») ذى صلة بالمعبود المصرى «أمون» ، وربما أمكن تأييد هذا الاتجاه على أساس أن الاله أمون قد انتشرت عبادته في شمال أفريقيا ، وقد عثر الباحثون على رسوم لأكباش مقدسة على رأسها قرص الشمس في ليبيا والجزائر ، ويمكن اعتبارها تماثل الكباش المصرى المقدس الذى يرمز للاله أمون في العاصمة المصرية طيبة (الاقصر) ، مع اختلاف في نوع الكباش وشكله ، ومن ثم فربما تأثرت قرطاج بهذا المعتقد المصرى وظهوره مع الالهة الأخرى الفينيقية والليبية ، وربما يرجع هذا الاندماج الى العصر الفينيقي نفسه باتخاذ المعبود بعل الفينيقي مع المعبود أمون

ص ١٠٤ - ١٠٩ ، محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ص ١٤٠ - ١٤٢ ، وكذا

R. Dussaud, les Decouvertes de Ras-Shamra, (Ugarit) et L'Ancient Testament, 1914, P. 104.

J. Gray, Near Eastern Mythology, London, 1968, P. 80-90.

(٢٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص

(٢١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٧٣ - ٧٤ •

المصرى ، الامر الذى أدى الى ظهور «بعل حمون» الذى يحمل المصفتين الفينيقية والمصرية ، والذى صور فى عدة أشكال ، منها ذلك الشكل الذى يصوره على هيئة انسان جالس على عرشه ، وبجواره تمثال لأبى المهل المجنح ، وأحيانا يحمل قرنى كبش ، هذا فضلا عن أن قرص الشمس المجنح ، والمصرى الاصل ، انما كان من الرموز المتصلة بهذا الاله .

وعلى أية حال ، فان المعبودات الفينيقية — بصفة عامة — انما تترادف أو تماثل قوى الهية أخرى تناظرها فى العقائد المختلفة ، فالاله «بعل» الفينيقى ، يرادف فى العقائد العراقية القديمة المعبود «أداد» ، و«ملقارت» اله مدينة صور ، يماثل الاله اليونانى «هيراكليس» ، و«داجون» الفينيقى يقترب من «أوناس» البابلى و«أشمون» يرادف «اسكليبيوس» اليونانى (٢٢) .

(٢) ثانيت :

برزت «ثانيت» (Tanit) فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كمعبودة شعبية ، وقد اختلف المؤرخون فى أصل هذه المعبودة ، غير أن عدم الاشارة اليها فى نصوص رأس الشمر وصور وغيرها ، انما يؤكد أنها غير فينيقية كما أن أسماها الملبى ، فضلا عن عبادة البربر لها ، انما يدل على أنها بربرية الاصل ، وعلى أية حال ، فهى الهة الانتاج والخصوبة عند القرطاجيين ، وقد رمز لها بأمرأة ترضع طفلها ، كما مثلت على هيئة مثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس ، كما مثلت فى أشكال أنثوية تحمل أسلحة ، مع ارتفاع ذراعيها ، تمثيلا بسيطا على مئات من اللوحات Stelae فى قرطاج وغيرها ، ولعل اهتمام البربر بالهة أنثى — بدلا من اله ذكر — انما يرجع الى أن المجتمعات القبلية ربما

(٢٢) رشيد الناصورى : المرجع السابق ص ٢٥٧ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ج. كونتنو : المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٥ ، وكذا

E. Drioton, G. Contenau and J. Duchesne - Guillemin, The Religions of The Ancient East, London, 1959, P. 76-78.

كانت تعطى أولوية خاصة للمرأة ، الامر الذى يجعلها تمثل رمزا للقوى
المكامنة في ظاهرة الاخصاب .

وأيا ما كان الامر ، فلقد توافق انتشار عبادة «تانيت» مع التوسع
الرومانى في أفريقيا ، وقد طبق الرومان هويتها على هوية جينون
كويليستيس = Junon Coelestis) ، لأنها تبرز مظاهر الاخصاب ، فهي
تدين بالكثير للمعبودتين الاغريقيتين «هيرا» و «ديمتر» ، وقد عثر لها
على معبد في «نورا» ومجموعة ضخمة من اللوحات والوانى
المجنازية (٢٣) .

(٣) عشتارت :

عشتارت أو عشتار (وجمعها عشتاروت) هي الصفة المؤنثة من
البعل ، أى بعلة ، أو السيدة ، وأصح نطق لها ، فيما يرى البعض
«عشترة» (بالتاء المربوطة للمؤنث) — كما جاء في رسائل العمارنة —
وتنطق في النصوص اليونانية «أشتاريتة» ، وقد أطلق العبرانيون عليها
— كما في سفر الملوك الاول من التوراة — (٢٤) «عشتورت» ، وليس هناك
من شك في أن عبادة عشتا هذه انما انتقلت الى قرطاج عن طريق
الفينيقيين .

(٤) أشمون :

أشمون هو في الاصل بعل مدينة صيدا وسيدها ، ولم يكن يحمل
لقب بعل ، وقد قرنه اليونان بمعبودهم «اسكليبيوس» ، الذى يشرف
على الشفاء ، هذا فضلا عن خصائص الخصوبة التى عرفت عنه ، ومن
ثم فهو — في نظرهم — اله الطب ، وعلى أية حال ، فان اشتقاق اسم
«أشمون» غير معروف على وجه اليقين ، ويذهب «ليدز بارسكى» الى

(٢٣) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، وكذا
B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 129-130.

(٢٤) ملوك أول ٥/١١ ، ٣٣ ، كما أطلقت عليها التوراة ملكة
السماء (ارميا ١٨/٧ ، ١٧/٤٤ — ١٩ ، ٢٥) .

أنه صيغة مشتقة من «شيم» بمعنى الاسم الاعظم ، و«شيم» من اللقاب المقدسة التي بطلت عندما ظهر لقب «أشمون» ، ومن ثم فلفظة أشمون انما هي مجرد صفة كمعظم الاوصاف التي تطلق على البعول الأخرى (٢٥) .

هذا وقد كشف عن معبد أشمون في صيدا عام ١٩٠١م ، على الضفة الجنوبية من نهر «أوالى» على مقربة من مصبه في بستان الشيخ (٢٦) .

وهناك ما يشير الى أن أشمون انما قد أصبح معبودا أكثر قوة في قرطاج ، ولعله قد فاق المعبود «ملقارت» نفسه ، فلقد وقف القرطاجيون في دفاعهم الأخير عن مدينتهم في عام ١٤٦ ق.م ، عند معبد أشمون الذي كان في قلعة المدينة ، أو في منطقة بيرصة (Byrsa) — أقدم جزء في قرطاج (٢٧) .

(٥) ملقارت :

ملقارت هو «ملكرث» معبود صور ، وكلمة «ملقارت» تتكون من كلمتين فينيقيتين ، هما «ملك» بمعنى «ملك» ، و«قارت» بمعنى «مدينة» أى «ملك المدينة أو اله المدينة» ، وهذا يعنى أن «ملقارت» انما هو ملك المدينة وبعليها ، أى سيدها ، وقد شجبه الاغارقة ملقارت بهرقل ، هذا ، وطبقا لنقش من مالطة ، فلقد لقب «ملقارت» بلقب «بعل صور» ، وقد انتشرت عبادته من صور الى قبرص ومصر وقرطاج وغيرها (٢٨) .

هذا وكان ملقارت في الاصل معبودا شمسيا ، ثم سرعان ما اكتسب خصائص بحرية بعد أن انتقل عبر البحر غربا ، وقد ظهرت عبادته في أكثر من مكان في الغرب ، فظهرت في «جادييس» (كاديذ — قادس) ،

25) Lidbarski, in Encyclopaedia of Religion and Ethics, IX, 892.

26) D. Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 109.

(٢٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨٥ .

28) R. Dussaud, les religions des Hittites et des Hourites, des Phoeniciens et des Syriens, Paris, 1949, P. 365.

G. A. Cooke, A Text-Book Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, P. 74.

حيث كان له معبد أسسه فينيقيو صور منذ القرن الثاني عشر ، وقد قدم لنا وصفا له في القرن الاول الميلادي الكاتب «سليوس ايتاليكوس» ، ويشير الى قيام العبادة فيه عن طريق كئنة على النمط الفينيقي ، حفاة الاقدام ، يرتدون الكتان ، وأن النار به انما كانت شعلة دائمة ، وان لم يكن به تمثال عبادة ، كما كان للمقارن معبد آخر على مقربة من «لكسوس» على شاطئ المحيط الاطلسي •

ويرجح الباحثون أن «ملقارت» هو المعبود الذي كان يضحي له بالاطفال تحت اسم «مولوخ» أو «مولك» (الملك = الاله الرهيب) ، وكان القوم حين يحجز بهم الامر ، يضحون بأطفالهم ، فيحرقونهم أحياء ، تقريبا له ، كما حدث أثناء حصار قرطاج في عام ٣٠٧ ق.م (وربما في عام ٣١٠ ق.م) ، حيث أحرق على مذبح الاله الغاضب مائتا غلام من أرقى الاسرات ، وكانت دقائق الطبول وأصوات الزامير تغطي على صراخ الاطفال وهم يحترقون في حجر المعبود ، وقد عثر في قرطاج على جبانة واسعة تضم جثثا لأطفال معظمهم دون الثانية ، وان كانت هناك قلة ضئيلة تصل الى عمر الثانية عشرة •

هذا وقد عثر في بعض مزارات ملقارت على البقايا المحترقة لهؤلاء الاطفال مدفونة في جرار ، ومن المعروف أن تمثاله كان صنما من النحاس المجوف تشعل فيه نار حامية ، ثم تقدم له الذبيحة البشرية ، كما عثر على نظائر لهذا المكان في «نورا» أو «نوري» (Nora - Nurri) ، وفي «موتيا» (Motya - Mozia) وفي جهات أخرى في الشمال الافريقي ، مثل «سوسة» (حضر موتوم = Hadrumatum) ، حيث وجد أحد هذه الاماكن ، ويضم طبقات متعددة ، ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد (٢٩) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك معبودات من الدرجة

(٢٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨٠ - ٨٢ •

الثانية عند القرطاجيين ، لعل من أهمها : أدونيس : وقد شبهه الرومان بمعبودهم مركور ، واسم أدونيس مشتق من كلمة سامية معناها «سيد» ، وهى كلمة «أدون» التى نجدها فى العبرية والفينيقية والاولجارييتية ، والاصل فى أدونيس هو «أدونى» (سيدي) فحرف فى اليونانية واللاتينية الى أدونيس Adonis (٣٠) .

وهناك «بس» ، وهو قزم مشوه الخليفة شنيع ، نجد له أمثالا فى أسيا الصغرى ومصر (٣١) .

وهناك «جوبيتر أمون» — كما أشرنا من قبل — وهو معبود أفريقى ، وقت اختلط الاسمان فيما بعد ، حتى اتخذ «جوبيتر أمون» الافريقى شخصية «زيوس كويليستيس» عن طريق بعل حمون ، ثم اختلطت الخصائص ، مع أن الاسمين فى الواقع لمعبودين مختلفين ، كما يدل على ذلك هجاء اسمهما الاصلى ، غير أن حروف «بعل حمون» لم تلبث أن نسيت ، وشاع رسم الاسم خطأ باسم «بعل أمون» (٣٢) .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن الغالبية العظمى من الاسماء القرطاجية انما يدخل فى تركيبها أسماء الالهة (Theophoric) ، وليس من شك أن ذلك انما كان بقصد ترضية الالهة والتبرك بها ، وعلى سبيل المثال ، فان «حملقرت» انما يعنى «حبيب ملقارت» ، و «حنبعل» يعنى «حبيب بعل» (٣٣) .

(٣٠) أنظر :

W. R. Smith, Lectures on The Religion of The Semites, London, 1827, P. 68, 411.

E. Dharmé, Les religions des Babyloine et d'Assyrie, Paris, 1949, P. 115, 134.

(٣١) أنظر عن «بس» فى مصر (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٣٣١ - ٣٣٣ ، وكذا

A. E. Budge, The Gods of The Egyptians, II, London, 1969, P. 285.

S. A. Mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1959, P. 189).

(٣٢) ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ١٢٧ .

(٣٣) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ .

ولعل من الامة بمان أن نتوقف هنا قليلا ، لتحدث بايجاز عن عادة «التضحية البشرية» والتي تعرضت من أجلها الحياة الدينية القرطاجية لنقد شديد من جميع الكتاب القدامى ، ومن البدهى أن الحياة الدينية فى معظم منطقة الشرق الأدنى القديم قد تعرضت لنفس النقد امارستها نفس تلك العادة السيئة ، عادة التضحية البشرية •

هذا وقد أثبتت الحفريات التى تمت فى قرطاج وسوسة وقرطنة (قسنطينة) ، فضلا عن عدد آخر من المستوطنات الفينيقية فى خارج أفريقيا ، أن القرطاجيين انما كانوا يمارسون تلك العادة السيئة — عادة التضحية البشرية — ومن هذه المكتشفات أفنية دفن مقدسة تضم الجرار والعظام المتكلسة للأطفال ، وتتميز بلوحات تذكارية اشارة الى تقديم 'اقرابين عموما الى «بعل حمون» ، ولكن غالبا ما كانت تقدم أيضا الى «تانيث» •

وطبقا للمصادر المتاحة — وهى على أية حال ليست فوق مستوى الشبهات — فان الضحايا انما كانت فى أغلب الاحياء من الرجال ، وكانت سنوية واجبارية على العائلات البارزة ، ومن المؤكد أن هذه العادة السيئة اندثرت فى فترة ما ، غير أن حادثا — كحصار قرطاج عام ٣١٠ ق.م — انما يدل على أنه كان من الممكن احيائها فى أوقات الازمات ، عندما كان يعتبر تجاهلها سببا فى غضب الالهة ، وليس هناك من ريب فى أن العقائد الدينية القرطاجية انما كانت تؤكد على ضرورة تهدئة القوى الالهية المتقبلة واسترضائها ، فضلا عن الحصول على النصر فى الحروب، والرفاهية فى المجتمع الدنيوى (٣٤) •

وفى الواقع ، رغم أن القرطاجيين انما نقلوا هذه العادة عن الفينيقيين ، فالامر الذى لا شك فيه أن كثيرا من مجتمعات الشرق الأدنى القديم انما قد عرفت عادة «التضحية البشرية» التى كانت تقدم على

(٣٤) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ •

مذابح الالهة الوثنية ، وتدلنا حفائر «أور» (تل المقبر الحالية ، على
مبعدة ١٢٠ ميلا الى الشمال من البصرة في جنوب العراق) على قدم تلك
العادة ، فقد كان السومريون يدفنون ملوكهم ، ومعهم بعض حاشيتهم
وخدمهم ، ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم قد ماتوا على الرغم منهم ،
فليس منهم من وجدت جثته ، وفيها أثر الذبح أو الخنق أو الضرب
العنيف .

ويذهب «سير ليونارد ووللي» الى أنهم انما كانوا يتجرعون
باختيارهم عقارا ساما يخدرهم ويميتهم ، لايمانهم بالانتقال مع الملوك
الارباب الى حالة في السماء ، كحالتهم في الحياة الارضية ، وقد وجدت
على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان ،
والمظنون أن هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزي ، واجراء الشعائر
مجري التمثيل في الاحتفالات العامة ، ولا سيما الاحتفال بعيد رأس
السنة (٣٥) .

هذا وتشير التوراة الى أن «السفروايمين»^(٣٦) (أبو حبة الحالية
فيما يرى رسام) ، انما كانوا يحرقون بنبيهم بالنار ، كتقدمات الآلهتهم
الوثنية^(٣٧) ، وربما كانوا قد أخذوا هذه العادة عن السومريين الذين
سبقوهم في سكنى هذه المنطقة من قبل^(٣٨) .

وتدلنا مقبرة «حعبي زفاي» ، الحاكم المصري في كرما ، جنوب
الشلال الثالث في السودان ، على أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ –
١٧٨٦ ق م) على اتباع نفس عادة التضحية البشرية ، ومن ثم فان

(٣٥) . أنظر : عباس العقاد : ابراهيم أبو الانبياء ص ١٧٢ وكذا

Sir L. Woolley, Ur of The Chaldees, London, 1950.

Sir L. Woolled, Excovations at ur, London, 1963.

(٣٦) أنظر عن «السفروايمين» (محمد بيومي مهران : اسرائيل
– الكتاب الاول – الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٦٣) .

(٣٧) ملوك ثان ٣١/١٧ .

(٣٨) حبيب سعيد : خليل الله في اليهودية والمسيحية والاسلام ص ١٠

(جورج رايزنر) الذى كشف عن مقبرة «حصبى زفاى» فى كرما فى عام ١٩١٤ / ١٩١٥م^(٣٩) ، يقول «أقيمت مأدبة جنازية فخمة ذبحوا فيها أكثر من ألف ثور ، دقوا رؤوسها حول النصف الجنوبى للدائرة من الخارج ، ثم وضعوا جسد الامير فى الحجرة المقبية ، والى جانب القرابين ، ثم اقفلوا الباب الخشبى ، وأما الضحايا فكانوا جميعا من النوبيين ، وكانوا اما أن يخدروهم أثناء الحفل منوما ، أو كانوا يخنقونهم ، ثم يحملونهم ليضعوهم فوق أرضية الدهليز ، وكان عددهم يتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة ، من الرجال والنساء والاطفال ، ثم وضعوا معهم بعض أوان وقدر ، أحيانا نجد سيفاً الى جانب صاحبه ، فضلا عن حليهم الشخصية.....»^(٤٠) .

ولم تكن مصر بمنأى عن هذه العادة السيئة ، فهناك ما يشير الى معرفة القوم لعادة التضحية البشرية منذ عصور ما قبل الاسرات ، وأثناء عصر التأسيس ، وربما يرجع ذلك الى رغبة الملوك ، وربما رغبة الاشخاص المضحى بهم أنفسهم فى مصاحبة الملك سيدهم فى العالم الآخر ، حتى يقوموا على خدمته هناك ، كما كانوا يفعلون فى هذه الحياة الدنيا^(٤١) ، والامر هنا — كما هو فى العراق أو السودان أو حتى قريب منه — فان هؤلاء الاشخاص المضحى بهم لم يدفنوا أحياء ، كما أنه لا يوجد أثر للعنف فى جثثهم ، وأكبر الظن أنهم قد أعطوا شرابا مخدرا ، أو كميات من السم ، قبل دفنهم^(٤٢) ، غير أن المصريين سرعان ما أقلعوا

39) G. A. Reisner, in Bullentin of The Museum of Fine Arts, Baston, 13, 1915, P. 72.

(٤٠) أنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعنة ص ٢٠٩ - ٢١١ ، مصر - الجزء الثانى ص ٤٠١ - ٤٠٢ J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, P. 140.

(٤١) أحمد أمين سليم : دراسة تاريخية للحضارة المصرية أثناء عصر الاسرتين الاولى والثانية ص ٢٢٥ - ٢٢٧ وأنظر : W. B. Emery, Great Tombs of The First Dynasty, II, London, 1954, P. 142-158.

42) Ibid., P. 142.

عن هذه العادة القبيحة - كما تشير الى ذلك مقابر عصر التأسيس^(٤٣) -
والتي هي في أصلها (أى عادة التضحية البشرية) انما هي عادة أفريقية
تسربت الى الحضارة المصرية في عصور ما قبل التاريخ^(٤٤) .

هذا وقد عرف الفينيقيون والكنعانيون كذلك عادة التضحية البشرية،
ومن ثم فقد كانت التضحية بالطفل البكر عرفا جاريا لدى الكنعانيين في
النصر العتيق ، وفي حفريات «جازر» (على مبعده ١٨ ميلا شمال غرب
القدس ، ١٧ ميلا جنوب شرق حيفا)^(٤٥) ، دليل قاطع في هذا الصدد ،
فلقد وجدت بها عظام أطفال في حالة بلاء بين بين ، مودعة في أسس
المنازل ، وقد احتفظ الفينيقيون بهذه العادة السيئة الى العصور القريبة،
حتى روى «فيلون» الجبيلي النحوى (٦١ - ١٤١م) أنه كان من عاداتهم
في حالة الاخطار العامة أن يضحوا بأعز آبائهم لابعاد الكوارث عن
أنفسهم^(٤٦) .

وكان المؤابيون يمارسون عادة التضحية البشرية كذلك ، وطبقا لما
جاء على الحجر المؤابى^(٤٧) ، وفي التوراة^(٤٨) ، فإن «ميشع» ملك مؤاب

43) G. A. Reisner, The Development of The Egyptian Tomb, London, 1936, P. 128.

W. M. F. Petrie, Tombs of The Courties and Oxyshylabas, London, 1925, P. 3.

44) R. El-Nadowry, Human Sacrifice in The Ancient Near East, in Publications of The Archaeological Society of Alexandria, 1968, P. 5.

45) M. F. Unger, Op. Cit., P. 401.

(٤٦) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٤٧) أنظر عن نص الحجر المؤابى وترجمته :

J. B. Pritchard, ANET, 1958, P. 209 F.

W. F. Albright, ANET, 1966, P. 32٦-321.

G. A. Cooke, Op. Cit., P. 1-14.

S. A. Cook, Op. Cit., P. 372-373.

M. F. Unger, Op. Cit., P. 756.

R. Dussaud, Le Monuments Palestiniens et Judaiques (Musée du Louvre), Paris, 1921, P. 4-22.

J. Finegan, Op. Cit., P. 188-188.

(٤٨) ملوك ثان ٤/٣ - ٥ .

قد قام بحملة مظففة ، نجح فيها في توسيع ملكه على مدى خط العرض من الطرف الشمالى للبحر الميت ، واخضاع المستعمرات الاسرائيلية والمدن الخاضعة لاسرائيل في الهضبة الخصبة شمال عرنون^(٤٩) ، ثم نهب المعبد الاسرائيلى في «نيسو» (خربة المخطط جنوب شرقى حسان بخمسة أميال) ووهب سبعة آلاف من سكانها الى المعبودة «عشتار - كيמוש» ، مما اضطر الملك الاسرائيلى «يهورام» (٨٤٩ - ٨٤٢ ق م) الى طاب العون من دولتى يهوذا وأدوم ، ثم القيام بهجوم على مؤاب^(٥٠) الامر الذى دفع الملك المؤابى «ميشع» الى أن يضحي بولده البكر لاله «كيמוש» حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة^(٥١) .

وأما في بلاد العرب ، فلقد تبين من مخلفات المدافن في «أم النار» في «أبو ظبى» أنها تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة في المدفن المشترك ، هذا ويدل وجود الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التى تواكب مراسم الدفن ، حيث توضع جثث الاطفال الذين يضحي بهم مع بعض في خارج البنى الذى يضم جثة المتوفى^(٥٢) .

هذا وقد عرف بنو اسرائيل أيضا التضحية البشرية ، وقد استمرت الى ما بعد عهد موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)^(٥٣) ونزول التوراة ، ومن هنا رأينا التوراة تحرم على بنى اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا الى الالهة ، بل ان التوراة انما تجعل الرجم عقوبة لمن يقدم ولده قربانا لاله العمونيين «ملوك» ، حيث كان بنو اسرائيل يقدمون له ذبائح بشرية ، ولا سيما من الاطفال^(٥٤) . ومع ذلك ، فقد

49) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 244-246.

50) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 372.

(٥١) ملوك ثان ٢٧/٣ .

52) K. Thorvildson, Kuml, 1962, P. 217-218.

G. Bibby, Looking for Dilmun. London, 1970, P. 212.

(٥٣) انظر عن عصر موسى عليه السلام (اسرائيل - الجزء الاول -

ص ٣٥٧ - ٤٣٩) .

(٥٤) خروج ٩/٢٢ ، لاويون ٢١/١٨ ، ٢٠/٢٠ .

ظل بنو اسرائيل يقدمون أبناءهم لتحرق على المذابح ، كما فعل يفتاح الجلعادى — على أيام القضاة — فقد نذر للرب «ان يدفع بنى عمون ليدى ، فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون ، يكون للرب ، وأصعده محرقة»^(٥٥) ، وهكذا ما أن يعود «يفتاح» من معركته ضد العمونيين منتصرا ، حتى تكون ابنته الوحيدة ، هى أول من يهب للقائه ، ومن ثم فقد اضطر — وفاء لنذره — أن يذبح ابنته قربانا للرب اسرائيل — يهو — بعد شهرين من نصره على بنى عمون ، فصارت عادة فى بنى اسرائيل أن بنات اسرائيل يذهبن من سنة الى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادى ، أربعة أيام فى السنة^(٥٦) .

وهكذا بقى بنو اسرائيل — وحتى عصر القضاة — يمارسون هذه العادة الشنيعة ، ربما أيماننا بها ، وربما تقليدا لجيرانهم الكنعانيين والفينيقيين والمؤابيين وغيرهم ، رغم أنها ليست — ولن تكون أبدا — من شريعة موسى عليه السلام ، ورغم أن التوراة طالما نهتهم عنها ، بل وجعلت الرجم عقوبة لمن يرتكب تلك المفعلة الشنيعة ، مع ذلك كله لم يرعو بنو اسرائيل ، بل ظلوا يمارسون عادة التضحية البشرية حتى على أيام الملكية ، وحتى عصر النبو ارميا (٦٢٦ — ٥٨٠ ق.م) الذى نعى عليهم أنهم «بنوا مرتفعات ليحرقوا بينهم وبناتهم بالنار» ، وحتى عصر «اشعيا الثانى» الذى يقول لقومه من بنى اسرائيل : «يا بنى الساحرة ، يانسل الفاسق والزانية ... أولاد المعصية ، نسل الكذب ، المتوقدون الى الاتهام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الاولاد فى الأودية تحت شقوق المعازل»^(٥٧) .

(٥٥) قضاة ٣٠/١١ — ٣١ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل : الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٦٤٢ — ٦٤٥ ، وكذا

O. Eissfeldt, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 557.

M. Noth, Op. Cit., P. 157-158.

(٥٦) قضاة ٣٤/١١ — ٤٠ .

(٥٧) أشعيا ٣/٥٧ — ٥ ، قاموس الكتاب المقدس ٧٢١/٢ — ٧٢٤ .

وأما أشهر الأماكن التي كان يمارس فيها بنو اسرائيل عادة التضحية البشرية فهي «وادي هنوم» ، تقول التوراة «وبنو المرتفعات للبعث التي في وادي بن هنوم ، ليجيزوا بنيهم وبناتهم في النار لمولك ، الامر الذي لم أوصهم به ولا صعد على قلبي ، ليعلموا هذا الرجس ، ليجعلوا يهوذا يخطيء»^(٥٨) ، ويقع وادي هنوم هذا في جنوب اورشليم (القدس) وغربها (وادي ربابة الان) ، ويعرف القطاع الجنوبي الشرقي منه باسم «وادي توفه» أو «وادي القتل» ، ولكي يتوقف الناس عن القتل وممارسة هذه الوحشية ، فلقد خصص المكان لالقاء القاذرات وحرقتها ، ومن هنا عرف باسم «جى - هنوم» (ومنها جهنم أو مكان العقاب)^(٥٩) .

ولم يكن سكان المغرب - قبل الغينيقيين - بمنأى عن هذه العادة الوحشية ، فقد كان البربر يفعلون ذلك أحيانا ، وطبقا لأبحاث كامبس ، فقد كان يقدم للميت ذبائح حيوانية كجواد مثلا ، وأحيانا كانت ترتكب جريمة قتل طقوسى ، حتى يتسنى للميت أن يحتفظ بخادم مخلص^(٦٠) .

بقيت الإشارة الى أن القرطاجيين انما قد عرفوا - بجانب التضحية البشرية - نظام مفصل يشمل مختلف الاضاحى ، وكان نظام الكهانة يضم كهنة متفرغين ، وآخرين ممن ليسوا في جماعة منفصلة ، هذا ورغم اتصال القرطاجيين بمصر ، فأكبر الظن ، أنهم لم يهتموا الا قليلا بفكرة الحياة بعد الموت - شأنهم في ذلك شأن العبرانيين الاوائل^(٦١) - وكان

(٥٨) ارميا ٣٥/٣٢ .

(٥٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨١ .

(٦٠) انظر G. Camps, Op. Cit., P. 461 F.

(٦١) كانت الديانة الاسرائيلية - كما تقدمها تورا اليهود المتداولة

اليوم - تجهل الآخرة والحياة بعد الموت تماما ، اذ لم يرد في أى موضع من التوراة ذكر لامكان حياة بعد الموت ، مع أن الايمان بالآخرة يتفق تماما مع عقيدة التوحيد ، ذلك لان القوم انما كانوا يعتقدون أن الفرد يخدم الرب ويتلقى بركاته في الدنيا ، وعندما يموت بعد عمر طويل مديح خصب ، فانما هى النهاية ، وهذه النظرية الاسرائيلية تتعارض تماما مع

دفن الجثث — كما هي العادة المتبعة — وكانت محتويات القبور متواضعة،
وتنضم العديد من المقابر ، أقمعة صغيرة غريبة من الفخار ، والتي يبدو
أن لها مغزا سحريا — كالتماثيل والمرقى — لدرء الأذى ، وطرد الأرواح

=
الأصرار الدائم على الحياة الآخرة في كل الديانات السماوية والبشرية إنما
يفسرهما تحريف اليهود للتوراة ، فضلا عن نظرية العبراني إلى نفسه
«كجسد حي» وليس «كروح متجسدة» ، ومن ثم فإنه يعبر عن كل قيمة
في حدود الحياة التي يعرفها عن طريق جسده في هذه الأرض ، فلم يكن
التمييز الحيوي عنده «بين الروحي والمادي» ، وإنما «الحيوية والضعف»
فالرجل الروحي هو « الرجل ذو الروح العالية) الملىء بالحياة التي
تملؤها قوة الرب بالحيوية ، وليس الرجل الروحي الذي يحتقر عالم
الحواس ، وكان من نتائج ذلك أن يفترض الفرد العبراني أنه بالإمكان
خلاص «روح» انسان ما مع اهمال اخصاب حياته وازدهارها على
الأرض ، وهكذا فقد العبراني التوافق بين المسادة والروح ، والاخلاق
والدين ، وكانت النتائج دائما وأبدا مدمرة .

وشارك كتبة أسفار الانبياء — بقية كتبة أسفار العهد القديم في عدم
الايمان بالحياة بعد الموت ، وان كان هناك نصان — الاول ملحق بسفر
أشعيا ، والثاني في سفر دانيال — ويرجعان ربما الى القرنين الثالث
والثاني ق.م ، وليس لواحد منهما تأثير على العقيدة في العهد القديم ،
ومع ذلك فهما يفكران في البعث بعد الموت ، بعد أن كان القوم يعتقدون
أن الانسان يتلقى البركات وحكم الرب في هذه الأرض فقط ، وبجسده
وأن العودة إلى الأرض هي البعث ، لأن الروح تنزل عند الموت إلى عالم
سفلى هو «شيول» Sheol ، وهو نقيض ما نعنى به الضوء والحياة ،
وشيول منطقة تكاد تقترب من العدم والنسيان ، وتتنظر إلى البشر كوحوش
وتخلق عليهم أبوابها ، فسكانها من الأموات مجرد ظلال ، يتميزون
بالضعف الشديد ، وهم منقطعون عن تبعية الرب .

والرأى القائل أن الانسان عند الموت كالماء المنسكب على الأرض ،
كان السبب في أن تنصح التوراة في سفر الجامعة ، قراءها أن ينتهزوا كل
فرصة ليتمتعوا إلى أقصى الحدود ، وهذا يعنى أنها تقدم لنا الحياة على
أنها سابق مع الزمن ، على عكس أسفار الانبياء التي لم تهتم بقصر
الحياة ، رغم اتفاقها مع بقية أسفار التوراة في عدم الاعتقاد بحياة أخرى
(انظر : تكوين ٣٨/٤١ — ٤٥ ، قضاة ٢/٢ — ٢٢ ، أشعيا ٩/١٤ — ١١ ،
١٤/٢٦ ، ١٩ ، أيوب ٩/٧ ، ٥/٢٦ ، مزمور ١٠/٨٨ ، ١٠٧/١٨ ، أمثال
١٨/٢ ، جامعة ١٠/٩ ، موسكاتى : المرجع السابق ص ٢٣٤ ، محمد
بيومى مهران : النبوة والانبياء عند بنى إسرائيل ص ١٠٢ — ١٠٤ ، وكذا

S. Freud, Moses and Monotheism, N. Y., 1939, P. 18-29.

E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, P. 134-137.

R. B. Scott, The Relevance of Praphets, 1944, P. 132-134.

G. Anderson, The History and Religion of Israel, 1966.

الشريرة^(٦٢) ، وأكبر الظن أن القرطاجيين قد عرفوا هذه التقاليد من اتصالهم التجارى والحضارى — برا وبحرا — مع أفريقيا الزنجية والاطلاع على نماذجها الحضارية والتأثر بها ، تمشيا مع طريقتهم فى الاستزادة من الحضارات الاجنبية لاستكمال كيانهم الحضارى^(٦٣) .

وأما تأثر الفينيقيين بالديانة الاغريقية ، فلقد كان القرطاجيون — حتى تاريخ متأخر — أقل تأثرا ، الى حد كبير ، بتلك الديانة ، رغم أنهم لم يكونوا على الاطلاق بمنأى عن تأثيرها ، فلقد أقرت عبادة «ديميتر» (Demeter) و «كورى» (Kores) رسميا فى قرطاج ، ولكن العبادات المحلية لم تتأثر بالديانة الاغريقية على نطاق واسع^(٦٤) .

(٢) - الحياة الاقتصادية

لا ريب فى أن قرطاج انما قد اعتمدت على التجارة أكثر من أية مدينة أخرى ، وأن الرجل القرطاجى الاصيل ، انما كان فى أذهان الناس وقت ذاك — وخاصة عند اليونان والرومان — تاجر بطبعه ، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة فى عالم البحر المتوسط ، ومع ذلك فان الثروة التجارية لم تترك آثارا تتفق ، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاه ، فضلا عن أنها — (أى الاثار) — أقل بكثير من آثار المدن الكبرى — الاغريقية والاثروية — التى ترجع الى نفس الفترة ، وليس هناك من ريب فى أن أحد الاسباب الرئيسية فى حالة قرطاج ، أن أغلب تجارتها انما كانت فى سلع لا تترك أثرا ، فأغلبها معادن غير مصنعة — وهى المهدف الرئيسى من حركة الاستكشاف ، الفينيقيية — ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التى تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة ، وكانت تجنى الارباح من التجارة مع القبائل الداخلية التى جلبت منها

-
- (٦٢) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ .
(٦٣) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢١٨ — ٢٢٠ .
(٦٤) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ .

الذهب والفضة والقصدير ، وربما الحديد أيضا ، ذلك لان قرطاج — كما هو معروف — انما كانت تصنع أسلحتها بنفسها — *

وليس من شك في أن قرطاج انما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة ، ومن ثم فقد جنت أرباحا طائلة ، وليس أدل على وفرة الارباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتقة في القرنين — الرابع والثالث قبل الميلاد — هذا فضلا عن سك العملة من الذهب ، على نحو تجاوز ما فعلته المدن المتقدمة الاخرى وقت ذاك (٦٥) *

هذا وتحدثنا المصادر كثيرا عن الدور القيادي النشط في المشروعات التجارية الكبرى ، وطبقا لرواية هيودوت ، فان الفرعون المصرى «نخاو الثانى» (٦١٠ — ٥٩٥ ق.م) قد كلف الملاحين الفينيقيين بالطواف حول أفريقيا ، ويكاد يكون من المؤكد الان أن السفن التي أرسلها الفرعون لتقوم بدورة ملاحية حول أفريقيا قد نجحت في هذه المهمة ، حيث قضت في رحلتها ثلاث سنوات دارت فيها حول شواطئ أفريقيا ، ثم عادت من مضيق جبل طارق (أعمدة هيراكليس) محملة بجميع خيرات أفريقيا المتى حصلت عليها من الموانئ التي مرت بها السفن *

ولعل من أهم الأدلة على نجاح الرحلة ما ذكره الملاحون من أنهم كانوا دائما يسبحون على مقربة من الشاطئ ، وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ، ولكنهم وصلوا الى نقطة فاذا بهم يرون أن الشمس تشرق عن يمينهم ، وقد رفض هيودوت تصديق ذلك ، بينما أن هذه النقطة بالذات انما تدل على صدق أنباء الرحلة ، لأن ذلك انما قد حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح ، وكانت المرة الاولى التي تمر فيها مثل هذه السفن ، لغرض الكشف والمعرفة واطهار المهارة وفتح أسواق للتجارة في آن واحد ، ولا بد أن مهدت لها معارف وارهاسات

(٦٥) ب. ٥. وارمنجتون : المراجع السابق ص ٤٥٩ — ٤٦٠ .

سابقة ، وقد روى هيرودوت من مراحل الاعداد لهذه الرحلة ، بناء سفن كورنثية أو أيونية (فينيقية) ذات ثلاث طبقات من المجاديف ، كانت تمخر عباب البحر المتوسط وخليج السويس ، فضلا عن الاستعانة بخبرة الملاحين الفينيقيين ، الى جانب المصريين (٦٦) .

ويحدثنا هيرودوت أيضا عن التجارة القرطاجية على الساحل المراكشي ، فكتب حوالى عام ٤٣٠ ق.م ، يقول : «أخبرنا القرطاجيون أيضا عن جزء من أفريقيا وسكانها وراء مضيق جبل طارق ، وعندما وصلوا هذا البلد أفرغوا بضائعهم ورتبوها على الشاطئ ، ثم عادوا الى سفنهم ، وأرسلوا اشارة بالدخان ، عندما رأى الوطنيون الدخان جاءوا الى البحر ووضعوا كمية من الذهب مقابل البضائع ثم قفلوا راجعين ، وعنفذ عاد القرطاجيون الى الساحل مرة أخرى وفحصوا الذهب الذى تركه الوطنيون ، فاذا رأوا أنه يعادل قيمة البضائع أخذوه وأبحروا بعيدا ، والا عادوا الى سفنهم وانتظروا أن يضيف الوطنيون المذهب الكافى لارضائهم ، لا يخدع جانب جانبا آخر ، فلم يكن القرطاجيون يقيرون الذهب حتى يساوى فى قيمته البضائع التى أحضروها كما أن الوطنيين ما كانوا يقربون البضائع حتى يتم نقل الذهب من مكانه» (٦٧) .

هذا وهناك تقرير عن طريقة المقايضة الصامتة القديمة هذه ، وتجارة الذهب ، يرتبط برحلة قام بها «حنون» (هنو — Hanno) زعيم أسرة «ماقون» فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد (٦٨) ، تقول مقدمته :

(٦٦) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٦٤٢ - ٦٤٣ .

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 357.

Herodotus, II, 159.

E. Drioton et J. Vandier, L'Egypt, Paris, 1962, P. 584.

H. De Meulenaere, Op. Cit., P. 50-52.

(٦٧) ب. ه. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٠ .

(٦٨) انظر عن ترجمة تقرير حنون (هنو) : رشيد الناضورى :

المغرب الكبير ص ٢٢٨ - ٢٣٧ ، وكذا

B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 62-64.

«تقرير عن رحلة هنو ملك القرطاجيين الى أجزاء من أفريقيا فيما وراء مضيق جبل طارق ، والذي قدمه لمعبد الاله «بعل» ، ثم تقول فقرته الاولى :

«قرر القرطاجيون أنه يجب على هنو الابحار بعد مضيق جبل طارق ، وتأسيس مراكز ليبية - فينيقية ، وقد أبحر معه خمس وستون سفينة ، مجهزة بالمجاديف ، وكذا ثلاثون ألف رجل وامرأة ، فضلا عن الطعام والمضروبيات اللازمة» .

هذا ويفهم من التقرير أن أبعد مكان وصلت اليه الرحلة جنوبا انما كان مستوطنة «قرنة» (Cerne) وقد حددت بصفة عامة بجزيرة «هرنة» (Herne) عند مصب نهر «ريودي أور» (Rio de Oro) (وادي الذهب) ، وقد ذكر هذا الاسم في مصدر جغرافي اغريقي يعرف باسم «سليلاكس» (الزائف) (Pseudo - Scylax) ، حوالي عام ٣٣٨ ق م ، جاء فيه :

«في قرنة يرسى الفينيقيون (أي القرطاجيون) سفنهم التجارية المروفة باسم «جاولوى» (Gauloi) وينصبون خيامهم في الجزيرة ، وبعد أن يفرغوا بضائعهم ينقلونها الى البر في قوارب صغيرة ، حيث يعيش الاتيويون الذين يتاجرون معهم ، وفي مقابل بضائعهم يحصلون على جلود الغزلان والاسود والتمور وأسنان وجلود الفيلة ، ويحضر الفينيقيون العطور والاحجار الكريمة المصرية (الخزف المزخرف أو القاشاني) والفخار والجرار الاثينية» ، هذا وتظهر «قرنة» هنا كمرسى ، أكثر منها مستوطنة ، ويبدو أن البضائع التي أحضرت من قرطاج صحيحة ، غير أن الحصول على جلود الحيوانات المفترسة ، أمر تحيط به هواتف الريبة والشك ، على أساس أنه كان يمكن الحصول عليها على مقربة من قرطاج .

وينتهي تقرير حنون بالحديث عن رحلتين توغلنا جنوبا بعد «قرنة» ، مع تصوير حي لوحشية السكان ، ففي الليل : دقات الطبول واضرام نيران هائلة ، ربما كانت بهدف بث الذعر في قلوب الطامعين أو المخيفين ، هذا وقد امتد الحد الجنوبي للرحلة الى مسافة بعيدة ، حتى جبل

كميرون ، وان كان يبدو أن هذا بعيدا جدا ، ذلك لان أبعد المواقع الجنوبية التى تمدنا بأدلة أثرية على الزيارات القرطاجية انما هو «موجادور» (Mogador) (الصويرة) ، ولكنها — مع ذلك — أدلة على الزيارات الموسمية التى ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد فحسب ، ولا يمكن ربطها بأى مكان ذكر فى التقرير .

وعلى أية حال، فلقد أبحر المؤرخ الاغريقى «بوليبىوس» (٢٠٣-١٢٠ ق.م) الى ما وراء قرنة بعد عام ١٤٦ قبل الميلاد (أى بعد سقوط قرطاج فى أيدي الرومان) ، ولم يجد شيئا ذا قيمة ، وفى القرن الاول الميلاد كتب «بلينى الاكبر» (٢٣ - ٧٩م) عن تقرير «حنون» بأن عددا من الاغريق والرومان يخبروننا على أساسه بأشياء خرافية كثيرة ، وبقيام عدد من المدن لا يوجد عنها فى الحقيقة أى ذكر أو أثر» ، ومن الغريب أن عددا من فلاحي دولة موريتانيا (المتابعة للنفوذ الرومانى) بدأوا يترددون على «موجادور» (مغдор = الصويرة) ، غير أن هدفهم انما كان صيد السمك ، وليس الحصول على الذهب^(٦٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى عدم ذكر الذهب ، رغم أن هيرودوت انما يخبرنا فى الكتاب الرابع ، أن الفينيقيين قد تاجروا فى الذهب مع السودان الغربى ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الذهب محورا لتجارة السودان العابرة للصحراء ، غير أن السودان لم يمثل مصدرا هاما من مصادر امداد حوض البحر المتوسط بالذهب حتى سقوط الامبراطورية الرومانية ، فقد كان الرومان يحصلون على الذهب من أوربا ، كما كانوا يحصلون على القليل منه عن طريق شمال أفريقيا^(٧٠) ، وعلى أية حال ، فلقد أصبح الذهب — بعد سقوط الامبراطورية الرومانية — فى السودان الغربى عنصرا أساسيا فى اقتصاد العصور

(٦٩) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٠ - ٤٦١ .
(٧٠) E. W. Bovill, The Golden Trade of The Moors, Oxford, 1952, P. 24.

الوسطى لدى شمال أفريقيا (المغرب) وغرب أوروبا ، قبل اكتشاف
أمريكا (٧١) .

وكان الحاج من السلع التي دخلت تجارة الصحراء منذ عصر
«الجرمانتين» والفينيقيين (٧٢) ، وكان — فيما يرى البعض — متوفرا
بكميات كبيرة جعلت المواطنين يصنعون منه أوانى للشراب ، ويزينون به
الخيول ، وكان من الكماليات المرغوب فيها في شمال الصحراء ، وهناك
أيضا من السودان الغربى «العنبر» ، وكان يستخرج من سواحل المحيط
الاطلسى على مقربة من جزيرة «أوليل» والتي عرفت باسم «جزيرة
العنبر» (٧٣) .

هذا وكانت منطقة «فزان» من عصور مبكرة ، مصدرا لتصدير
الاحجار الكريمة ، وقد تاجر فيها الجرمانتيون مع الفينيقيين
والرومان (٧٤) .

وعلى أية حال ، فان أستاذنا الدكتور الناضورى انما يقدم لنا عدة
ملاحظات عن رحلة حنون (هنو) ، منها (أولا) أن التقرير قد تضمن
الكثير من الحقائق التي تدل على نجاح القرطاجيين في رحلتهم
الاستكشافية والاقتصادية المهمة على ساحل أفريقيا الغربى ، ووصولهم
حتى منطقة الكونغو. في أفريقيا الاستوائية المغربية ، ومنها (ثانيا) أن
الغرض من الرحلة انما كان أساسا تأسيس مراكز «ليبية — فينيقية»
(أى بربرية قرطاجية) على الساحل الغربى لافريقيا الامر الذى يؤكد

71) J. D. Fage, An Ontroduction to The African History, Cambridge,
1955, P. 21.

B. Davidson, The Africans, An entry to Cultural History, London,
1969, P. 215.

72) R. C. Law, in JAH, 8, 1867, P. 196.

(٧٣) أحمد الياس حسين : سلع التجارة الصحراوية — كتاب
الصحراء الكبرى — ليبيا ١٩٧٩ ص ٢٠٦ .

(٧٤) نفس المرجع السابق ص ٢٠٤ — ٢١٠ .

تداخل العنصرين البربري والفينيقي في العصر القرطاجي ، واعتبارهما عنصرين اندمجا معا ، وحملتا المصفة القرطاجية ، لأول مرة في تاريخ المغرب ، وبالتالي فقد أصبحت العلاقات البربرية الفينيقية سليمة للغاية في هذه المرحلة ، ومنها (ثالثا) أن عدد السفن وأفراد الرحلة كان كبيرا للغاية ، فالنص يشير الى أن اعداد أفراد الرحلة قد بلغ ثلاثين ألف رجل وامرأة ، وهو رقم جد مبالغ فيه ، بالنسبة لعدد سكان قرطاج (حوالي ٢٠٠ ألف نسمة) ، فضلا عما يتطلبه من مؤونة وايواء ، وعلى أية حال فربما كانت الاغراض السياسية والاقتصادية من وراء تلك المبالغة .

ومنها (رابعا) أن المكان الذي ذكر تحت اسم «ثايمياريون» (Thymiaterion) قد حدده البعض «بالمهدية» شمال الرباط ، ولكن من الافضل أن يكون قرب «طنجة» (تنجيس — Tingis) ، اعتمادا على أن النص انما يشير في الفقرة السادسة الى نهر «لوكوس» الذي يوجد عنده موقع «ليكسوس» مما يجعل الرحلة ما تزال في الجزء الشمالي الساحلي من المغرب ، ولم تصل بعد الى منطقة المهدية ، ومنها (خامسا) أن محاولة القرطاجيين تشييد مبان في مراكزهم الجديدة ، وبالتالي تبعيتها للدولة القرطاجية ، الامر الذي يجعل تحقيق أهدافهم الاقتصادية أيسر مما لو ظلت على طبيعتها الاولى البربرية ، وقد نجح القرطاجيون — كما جاء في الفقرة السادسة — في توطيد علاقاتهم مع أهل ليكسوس ، (وهو نهر كبير ينبع من ليبيا ، وعلى ضفافه يرعى أهل ليكسوس الرحل مواشيهم) .

ومنها (سادسا) أن النص يشير — في فقرتيه السابعة والحادية عشرة — الى عناصر بشرية تحمل اسم «الاثيوبيين» ، وهنا يجب أن نفرق بين الاثيوبيين الشماليين ، وهم من البربر الذين ما يزالون حتى هذه المرحلة في العصر الحجري الحديث ، والاثيوبيون الجنوبيون الذين تغلب عليهم الصفة الزنجية ، ولم يتمكن التراجمة من أهل ليكسوس من التفاهم معهم ، وذلك لاختلافهم الكلي عن اخوانهم في الشمال ، ومنها (سابعا) أن النص يشير — في فقرته الثالثة عشرة — الى ظاهرة النيران المشتعلة في

فترات غير منتظمة ، والمصحوبة ، في بعض الاحايين ، بأصوات المزامير والطبول وصيحات المجموعات البشرية من حولها ، تعبيرا عن الاحتفالات القبلية الزنوجية ، وأما النيران المشتعلة فربما كانت للاضاءة ، وربما لابعاد القوى الشريرة ، وربما لأغراض الدفء أو العبادة ، وان اشارت الفقرة السادسة عشرة الى أن لهيب النار انما كان يلامس النجوم ، الامر الذي قد يشير الى بركان الكمرون ، ومنها (ثامنا) أن الفقرة السابعة عشرة انما قد أشارت الى «الغوريالات» التي اعترضت الرحلة ، وقذفت أفرادها بالاحجار ، الامر الذي يشير — مع غيره — الى أن الرحلة قد وصلت الى المنطقة الاستوائية •

ومنها (تاسعا) أن هذه الرحلة الكشفية انما هي جهد مبكر في حركات الاستكشاف الانساني للعالم ، وتسبق الجهود الاسبانية والبرتغالية وغيرها في محاولة كشف القارة الافريقية والدوران حولها ، ومن ثم فهذه الخطوة القرطاجية انما هي احدى مآثرهم الهامة في تاريخ الانسانية (٧٥) •

وعلى أية حال ، فهناك رحلة أخرى — غير رحلة هنو (حنون) هذه والتي وصلت الى منطقة الكونغو — قام بها «هملكو» (Himilco) الى ساحل أسبانيا وفرنسا الغربي ، فلقد كشفت رحلة «هملكو» (هملكون) ساحل الاطلنطي لكل من أسبانيا وفرنسا ، ووصلت بالتأكيد الى «بريتاني» (Bretagne) في شمال غرب فرنسا ، وربما كان الهدف منها زيادة السيطرة على تجارة القصدير ، الذي كان يمكن الحصول عليه من مصادر مختلفة قريبة من سواحل الاطلنطي ، وكان القرطاجيون حريصين في تجارة القصدير ، حتى أنهم لم يسمحوا بتسرب معلومات عنها ، الا في النادر المقليل ، الامر الذي أثار انتباه وفضول الكتاب القدامى •

وفي الواقع ، فان العصر القرطاجي انما كان آخر مرحلة في تجارة

(٧٥) رشيد الناضوري : المغرب القديم ص ٢٣٣ - ٢٣٨ •

المقصدير على طول الساحل ، وهى تجارة ترجع الى عصور ما قبل التاريخ مع جنوب غرب بريطانيا - الذى كان واحدا من أهم مصادرها - ومع ذلك فليس هناك من دليل على أن هناك فينيقيا واحدا وصل الى بريطانيا ، كما لم يعثر هناك - أو حتى في بريتانى - على أى أثر فينيقى ، وعلى أية حال ، ان كان الفينيقيون قد حصلوا على قصدير من بريطانيا ، فأكبر الظن ، أن ذلك انما تم عن طريق القبائل في بريطانيا، ومع ذلك ، فهناك احتمال بأن أغلب قصدير بريطانيا المصدر ، انما كان ينقل عبر «غالة» (Gallia) الى وادى الرون والبصر المتوسط ، وأن القرطاجيين انما قد حصلوا على احتياجاتهم منه من شمال أسبانيا •

وأيا ما كان الامر ، فالذى لا ريب فيه ، أن أكبر انتاج معدنى ذى قيمة في أسبانيا انما كان الفضة ، وقد وصل انتاجها الى مستويات كبيرة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد تزايدت أهمية «جادييس» (كاديذ - قادس) بسرعة ، وكانت المدينة القرطاجية الوحيدة فى الغرب التابعة لقرطاج ، بصرف النظر عن «ابيزا» Ibiza - التى أصدرت عملة خاصة بها - وطبقا لرواية «سترابو» فان بناء السفن فيها قد تفوقوا على زملائهم فى صناعة السفن ، سواء أكانت للملاحة فى البحر المتوسط أو فى المحيط الاطلسى •

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخل امبراطوريتها - سواء باغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار ، او بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الاثروية رورما - وكان طبيعيا أن لا يسمح للتجار الاجانب بالتجارة فى غربى قرطاج ، وهذا يعنى ببساطة أن السلع التى كانوا يحضرونها الى هذه المدينة كانت تنقل الى السفن التجارية القرطاجية ، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أثرويا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الاغريقية انما تصل الى عدد كبير من الاماكن فى شمال أفريقيا •

وبدهى أن ذلك كله انما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج ، خاصة

بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربى البحر المتوسط بسبب فتوحات الاسكندر الاكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) ، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقا كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويجها ، فضلا عن الارباح منها (٧٦) .

هذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية ، عبر الصحراء ، الى منطقة نهر النيجر والسنغال ، وربما كانت عن طريق «لبدة» و«صبراتة» ، وهما المدينتان الواقعتان في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة ، وعلى أية حال ، فان اهتمام قرطاج بابعاد الاغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل ، حيث أن الارض الزراعية المناسبة للاستيطان نادرة ، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يحدثنا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما : الجرمانتيون والناسامونيون في أقاليم جنوب سرت ، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانتيين - المركز السكاني لجرمة - تستغرق ثلاثين يوما ، وان الرومان قد حصلوا - عن طريق الجرمانتيين - على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية .

وهناك ما يشير الى أن «العقيق الاحمر» انما كان احدى السلع التجارية الصحراوية ، وربما كانت هناك تجارة في الرقيق ، حيث يذهب البعض الى أن الجرمانتيين انما كانوا يتعقبون الاثيوبيين (الزنوج) بعربات تجرها أربعة جياد ، هذا الى ما سبق أن ذكرناه من قبل عن تجارة العاج والجلود ، وليس هناك من ريب في أن عدم وجود «الجمال» (٧٧) في شمال أفريقيا وقت ذاك ، انما يجعل السفر في الصحراء

(٧٦) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦١ - ٤٦٢ .
(٧٧) لم يظهر «الجمال» - وأصله من الشرق الادنى - في الصحراء الافريقية الا بعد فترة متأخرة ، بل انه لم يظهر في مصر حتى العصرين ،

جد صعب ، الامر الذى يحول دون تجارة واسعة عن طريق الصحراء .

وعلى أية حال، فهناك من «جرمة» دليل أثري حديث يشير الى أن النمو السكانى المبكر فى الدولة القرطاجية ، انما يرجع الى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ، وأنه بتتابع القرون ازداد عدد السكان المستقرين ، والمعتمدين على الزراعة ، زيادة مطردة ، ولعل هذا يرجع الى التأثير الثقافى الذى أمتد من المراكز القرطاجية على الساحل ، وبعد تدمير قرطاج توغل الرومان الى كل من جرمة وغدامس ، وأحيانا الى أبعد من ذلك جنوبا (٧٨) .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن التجارة انما كانت تتم عن طريق المقايضة ، وأن اليونان قد بدأوا فى استخدام العملة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وأكبر المزن أن «كرويسوس» (٦٥٠ - ٥٤٦ ق.م) ملك ليديا ، هو الذى استخدم صب السبائك الذهبية ، ذات الوزن الواحد ، وطبع الصور عليها ، وعلى أية حال ، فلقد أصبح استعمال العملة عاديا فى القرن السادس قبل الميلاد .

الفارسي والهلينستي (فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد) ، وقد نوقشت هذه المسألة كثيرا ، دون أن تحسم ، والواقع أن الجمل دخل الصحراء من وادى النيل ، وان كان تأريخ دخوله صعب ، وكل ما نهتدى به فى هذا الصدد هو الرسوم الصخرية الليبية البربرية فى الصحراء ، وهى قليلة الفائدة فى التأريخ الدقيق ، ثم النقوش والتماثيل الرومانية فى شمال افريقيا ، وكلها ترجع الى القرن الثانى الميلادى ، وهنا كما يشير الى أن قيصر قد غنم عام ٤٦ ق.م عدد ٢٢ جملا من الملك النوميدي «يوبا الاول» الذى امتدت دولته الى حدود الصحراء ، وكانت الجمال ماتزال حيوانات نادرة ، ثم كثرت بعد ذلك ، ثم أصبحت وسيلة المواصلات فى الصحراء ، كما تشير الى ذلك كثرة صور الابل فى «رسوم الجمل الصخرية» (Caballine) فى كل مناطق الصحراء الكبرى ، ورغم أنها صعبة التأريخ ، الا أنها بالتأكيد أحدث زمنا بكثير من صور الجياد البدية (Gallia) وقد كثرت الجمال فى القرن الرابع الميلادى فى شمالى طرابلس، حتى أن الرومان فرضوا على «لبدة» (لبتس ماجنا) أن تجمع على نفقتها بانتظام أربعة آلاف جمل ، وفى الوقت نفسه عززت وفرة الجمال قدرة البدو على شن الهجمات على الرومان (تاريخ افريقيا العام ص ٥٤٠ - ٥٤٦) .

(٧٨) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ .

هذا وقد بدأ الفرس في استخدام العملة على أيام «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس ، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذاك خاضعة للفرس ، غير أن دارا لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم ، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت في صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم تبعتها صيدا وأرواد ، وجبيل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد^(٧٩) .

ولعل أقدم العملات — من النصف الثاني للقرن الخامس قبل الميلاد — تلك القطعة المحفوظة بالمتحف البريطاني ، وهي من صور ، وعلى أحد وجهيها «درفيل» (حيوان بحري) ، وعلى الوجه الآخر «بومة» داخل مربع^(٨٠) .

هذا وقد قامت المدن الفينيقية الغربية بضرب عملتها متأخرة عن المدن الشرقية ، فهناك في المتحف البريطاني قطعة عليها رأس المعبودة «تانيت» ، وعليها غطاء رأس بوني ، وعلى الوجه الآخر ، أسد وشجرة نخيل ، ونقش مكتوب بالبنونية (الفينيقية) «رجال المعسكر» ، وتؤرخ هذه القطعة بمنتصف القرن الرابع قبل الميلاد^(٨١) ، وأما صقلية فقد ضربت عملتها منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وفي أسبانيا ضربت العملة في القرن الثالث قبل الميلاد ، كما أن هناك نقودا ضربت من الفضة ، كما في قرطاج الجديدة^(٨٢) ، كما عثر في «جادييس» على قطعة نقود ، على أحد وجهيها رأس المعبود «ملقارت» وعلى الآخر ، فيل وحرف أبجدي Aleph ، وتؤرخ هذه القطعة بحوالى عام ٢٠٩ قبل الميلاد^(٨٣) .

وعلى أية حال ، فإن «قرطاج» انما بدأت في اصدار عملتها في القرن

(٧٩) عبد الحميد : الشرق الخالدة ص ٣٣٠ - ٣٣١ ، سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ١٣٦ .

80) G. F. Hill, B. M. Cat. Phoenicia, London, 1910, Pl. 28, No. 9.

81) G. F. Hill, Guide and Greek Coins, London, 1932, Pl. 62, No. 41.

82) F. S. G. Robinson, Punic in Spain, 1965, Pl. 49, No. 4.

83) Ibid., Pl. 52, No. 8.

الرابع قبل الميلاد ، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة ، وحيث أصبح من الضروري — نتيجة للتغيير في الوضع الاقتصادي — أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقداً (٨٤) .

(٨٤) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٢ .

الفصل الثالث

قرطاج والصراع العسكرى ضد الاغريق والرومان

١ - الصراع العسكرى ضد الاغريق

(١) العلاقات بين قرطاج والاعريق فيما قبل القرن السادس ق م :
يذهب بعض الباحثين الى أن اليونانيين انما قد سبقوا الفينيقيين فى انشاء المراكز التجارية فى غربى البحر المتوسط ، غير أن عملية الانشاء هذه انما تمت — فى أكبر الظن — فى وقت متقارب ، وان كان الفينيقيون كثيرا ما نجحوا فى السيطرة الاقتصادية على مناطق سبق لليونانيين الاقامة فيها ، فضلا عن السيطرة عليها ، الامر الذى أدى الى المنافسة الشديدة بين الفريقين فى المجال الاقتصادى •

على أن تلك المنافسات الاقتصادية بين الفينيقيين واليونانيين لم تتقف دون قيام علاقات سلمية بين الفريقين ، نجح الفينيقيون من خلالها فى ادخال الابجدية الفينيقية — والتي نقلوها عن المصريين — الى بلاد اليونان بدورهم فى القرن السادس قبل الميلاد بنقل هذه الابجدية — بعد أن أدخلوا عليها بعض التحسينات — الى الرومان ، ومن هذه الابجدية تولدت معظم الابجديات الاوربية^(١) ، وكان اليونان قد قلبوا اتجاه بعض الحروف ، لأنهم كانوا يكتبون من اليسار الى اليمين ، ولكن حروفهم فى جوهرها هى الحروف التى علمهم اياها الفينيقيون ، والتي علموها بدورهم أوربا^(٢) •

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ١١٦ - ١١٧ ، وكذا :
Hedodouts, II, 49, V, 58, VIII, 57.

Diodorus, III, 67, V, 57, 5.

(٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣١٥ - ٣١٦ •

غير أن العلاقات المسلمية بين اليونان والفينيقيين سرعان ما تحولت الى علاقات عدائية بسبب المنافسات التجارية والسياسية ، وقد ظهرت بوادر ذلك العداء في القرن السادس قبل الميلاد في جزيرة صقلية ، التي جمعت بين الفينيقيين واليونان ، ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفاع عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب الضغط الاثوري والبابلي الكداني — كما رأينا من قبل في حديثنا عن مدينة صور — وفي نفس الوقت كانت «قرطاج» بدأت تحتل مكان الزعامة للفينيقيين الغربيين ، وتعمل على تحقيق حمايتهم من أخطار اليونانيين ، وخاصة من المستوطنات الاغريقية في صقلية مثل «سرقوسة» التي نمت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة ، والتي تأسست أصلا — هي وغيرها من المستوطنات هناك — نتيجة للضغط السكاني في بلاد اليونان ذاتها^(٣) ، وفي نفس الوقت بدأت الدولة القرطاجية في التواجد — كقوة سامية جديدة — في غربى البحر المتوسط ، حتى انتهى الامر بأن امتد نفوذها من خليج سدره في ليبيا ، وحتى منطقة جزيرة الصويرة على المحيط الاطلسي في غربى المغرب الاقصى^(٤) .

وعلى أية حال ، فلم يكن هناك — في القرن السابع قبل الميلاد — صراع كبير بين الاغارقة والفينيقيين ، وكانت الواردات الاغريقية معروفة في أماكن عديدة في المغرب ، ولكن في عام ٥٨٠ قبل الميلاد ، حاولت مدينة «سيلينوس» (Selinus) وغيرها من المدن الفينيقية في صقلية ، طرد الفينيقيين من مستوطناتهم في «موتيا» و «بانورموس» (باليرمو) ، واضطرت قرطاج للتصدي للهجوم الاغريقي حتى لا يؤدي ذلك الى تهديد الاغريق للمستوطنات الفينيقية في سردينيا ، وفتح التجارة مع أسبانيا التي حرموها منها طويلا ، وتبع هذا النجاح توحيد المستوطنات الفينيقية في سردينيا ، فضلا عن التحالف بين قرطاج والمدن الاثورية

(٣) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٦ .

(٤) رشيد الناصورى : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ١٩٠ .

على الساحل الغربى لاييطاليا ، الامر الذى أدى الى نصر مشترك للحلفاء
في عام ٥٣٥ ق.م ، ومنع الاغريق من استيطان كورسيكا^(٥) .

(٢) الصراع القرطاجى ضد جيلون :

غير أن ميدان المعركة سرعان ما انتقل الى افريقيا ذاتها ، وذلك حين
حاول «دوريوس» (Dorieus) الاسبرطى تأسيس مستعمرة عذد مصب
نهر «كنبس» (Kinyps) (وادی وكيرى) في ليبيا ، واعتبرت قرطاج
هذا العمل اعتداء عليها ، وقد تمكنت — بمساعدة الوطنيين الليبيين — من
طرود الاغريق في خلال أعوام ثلاثة ، غير أن «جيلون» (Gelon) حاكم
جيلا ثم سرقوسة ، انما بدأ في عام ٤٨٥ قبل الميلاد ، يعد حملة للثأر من
قرطاج ، واحتلال المستوطنة الفينيقية حول خليج قابس ، ومن ثم فقد
بدأت قرطاج في البحث عن أصدقاء في صقلية من بين أعداء جيلون للعمل
ضده .

وهكذا ، وفي عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، وجهت قرطاج لصقلية جيشا كبيرا
من المرتزقة ، بلغ — فيما يرى البعض — ٣٠٠ ألف ، بقيادة «هملكار» ،
وهو رقم مبالغ فيه كثيرا ، وكانت قوة صقلية ، بقيادة جيلون ، تتكون
من ٢٤ ألف جندي ، وألفين من الفرسان^(٦) ، ويذهب البعض الى أن
قرطاج انما استغلت كذلك فرصة الغزو الفارسي لبلاد اليونان في تلك
السنة ، على أيام «أكزركسيس الاول» (٤٨٥ — ٤٦٤ ق.م) ، انتقاما
لهزيمة «ماراثون» في عام ٤٩٠ ق.م ، في «اتيكا» على أيام «دارا الاول»
(٥٢٢ — ٤٨٦ ق.م) أمام الاثينيين^(٧) ، الامر الذى قد يدل على اتصال
قرطاج بالفرس ، والافادة من ذلك في ايقاع الهزيمة بالاغريق في شرق
البحر المتوسط وغربيه ، على أساس أن الاغارقة انما كانوا العدو المشترك

(٥) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٦ .

(٦) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 46-47.

(٧) انظر عن موقعة ماراثون : عبد الحميد زايد : الشرق الخالد
ص ٦١٩ — ٦٢١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ٣٨٨/٥ — ٣٨٩ ، وكذا
J. B. Bury, History of The Greece, London, 1963, fig. 78.

للفرس والقرطاجيين سواء بسواء ، ومن ثم فمعاصرة الاحداث بعضها البعض الآخر ، ليس مجرد مصادفة ، فقد عاصر انتصار « جيلون » انتصار الاسطول الاثيني على الفرس في سلاميس في عام ٤٨٠ ق م^(٨) . وقد قدر الباحثون الاسطول القرطاجي في هذا التاريخ بمائتي سفينة ، وهو ما يجعله على قدم المساواة مع أسطول سرقوسة ، كما أنه لا يقل عن أسطول أثينا ، ومع هذا فلقد انتهى الامر بكارثة تحطيم الجيش والاسطول القرطاجي في معركة كبيرة في عام ٤٨٠ ق م ، في « هيميرا » (Himera) ، غير أن جيلون لم يكن قادرا ، وربما لم يكن راغبا في متابعة هذا النصر بعمل آخر ، ومن ثم فقد عقد صلحا أو هدنة حربية بشروط معتدلة ، مع « حنون » (هنو - Hanno) بن « هملكار » (هملقرت - Hamilcar) الذي هزم في هيميرا ، والذي يصفه الكاتب الاغريقي « ديو فم الذهب » Dio Chrysostom وصفا غير دقيق ، حيث يقول بأنه حول القرطاجيين من صوريين الى أفارقة .

واتجهت قرطاج بعد هزيمتها في هيميرا الى كسب أرضين جديدة في أفريقيا ذاتها ، وقد حدث هذا التغيير في الوقت الذي كانت تزداد فيه عزلة قرطاج بسبب الانتصارات الاغريقية في كل مكان — ضد الفرس أولا ، وضد الاثوريين في ايطاليا ثانيا — وربما اقتصر نشاط القرطاجيين وقت ذاك على تجارتهم مع العالم الاغريقي ، وعلى أية حال ، فإن قبور القرن الخامس قبل الميلاد ، انما تشير بوضوح الى مظاهر الفقر وقلة المواد المستوردة ، وان كان هذا لا يعنى أن المجتمع القرطاجي برمته قد صار أفقر من ذي قبل ، ما دامت محتويات المقابر لا تعتبر في حد ذاتها دليل ثروة أو فقر^(٩) .

وعلى أية حال ، فرغم أننا لسنا على يقين من مساحة الارضين التي

(٨) انظر : عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٦٣٦ — ٦٣٨ ،

J. B. Bury, Op. Cit., fig. 82.

Ch-Andre' Julien, Histoire de L'Afrique du Nord, Paris 1961, P. 66:

(٩) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٧ .

غزتها قرطاج في القرن الخامس قبل الميلاد ، فضلا عن عدد المستوطنات التي تحولت وقت ذاك الى مدن — وإن تكن صغيرة — فقد بدأت الفتوحات — التي قد ر لقرطاج أن تسيطر عليها في أى وقت — تقترب من أقصى اتساعها ، وكان من أكثرها أهمية غزو شبه جزيرة رأس بون ، فضلا عن مساحة كبيرة من الارضين جنوب قرطاج ، وحتى «دجة» (دقة) على أقل تقدير ، وقد ضمت قرطاج بذلك جزءا من أخصب الاراضى في تونس ، وهى المنطقة التي صارت فيما بعد مزدحمة بالمستوطنات الرومانية ، وقد وفرت هذه المنطقة المـؤن الضرورية من الطعام ، وادكانية استيعاب عدد أكبر من السكان في المدينة ، وقد أقام العديد من القرطاجيين في رأس بون في تاريخ لاحق ، واعتبرت الارض في رأس بون كأرض المدينة ، وربما وضع السكان في منزلة العبيد أو أشباههم ، وأرغم أغلب سكان الاراضى المفتوحة على دفع الضرائب والانضمام للجيش (١٠) .

هذا ورغم أن خليج سرت انمسا كان يمثل الحد الفاصل بين الامبراطورية القرطاجية ومنطقة الاستعمار الاغريقي ، وأن المستعمرات القرطاجية على ساحل ليبيا كانت قليلة ، فان هناك مستعمرة «صبرات» التي استوطنت منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وهناك «لبدة الكبرى» ، وقد أصبحت مستوطنة دائمة عندما كانت حملة «دوريوس» على مقربة منها ، وقد صارت «لبدة» المركز الادارى للمستوطنات حول خليج قابس ، وعرفت كمكان غنى في أخريات العهد القرطاجى ، وظلت ثقافتها القرطاجية سائدة طوال قرن تحت الحكم الرومانى ، ويرجع مصدر ثروتها الى تحكمها — بصفة عامة — في تجارة الصحراء ، حيث كانت المنطقة تقع عند نهاية أقصر الطرق الى النيجر ، وهو طريق «غدامس» (كيداموس = Crimisos) (١٠) .

وأما أهم المراكز الأخرى — غير لبدة — على خليج قابس ، فهى :

(١٠) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٧ .

«زوخيس» ، وقد اشتهرت بسمكها المالح وصبغتها الارجوانية ، ثم «جيجيتيس» (بوغرارة) و «قابس» (تاكاباي) ثم «تايناي» (هنشير - تينا ، على مقربة من صفاقس) ، وهناك من يذهب الى أن لبدة الصغرى (لمطة) وسوسة (هادرو ميتوم) أسسها الفينيقيون ، وليس القرطاجيون ، وعلى أية حال ، فلقد أصبحت سوسة أكبر مدينة على الساحل الشرقى لتونس (١١) .

وفي عام ٤١٠ قبل الميلاد ، انتهت فترة التوسع القرطاجي في أفريقيا ، وانتهت معها فترة السلام التي بدأت منذ كارثة هيميرا في عام ٤٨٠ ق.م ، ذلك أن المدن الاغريقية في صقلية انما تورطت في الصراع الكبير على السيادة في بلاد اليونان بين أثينا واسبرطة ، ورغم أن حملة أثينية على صقلية لقيت فشلا ذريعا ، فان نتيجتها النهائية أدت الى توريط قرطاجة ، وكانت مدينة «سيجسته» (Sugeste) — المدينة الصقلية الاصل ، وحليفة قرطاجة — مسئولة الى حد ما عن استقدام الاثينيين الى صقلية ، وأصبحت الان هدفا لهجوم تأديبي من مدينة «سيلينوس» Selinus الاغريقية وذلك حين اشتد الخلاف بين المدينتين (سيجسته وسيلينوس) على الحدود بينهما ، ورغم أن الخلاف قد سوى بصفة مبدئية في «مؤتمر جيلا» في جزيرة صقلية عام ٤٢٤ ق.م ، الا أنه تكرر مرتين بعد ذلك ، وفي المرة الاخيرة طلبت «سيجسته» العون من قرطاج ، بل والانضمام الى السيادة القرطاجية كذلك في عام ٤١٠ ق.م (١٢) .

وأجابت قرطاج سيجسته الى سؤالها ، فلما من القرطاجيين أن «سيجسته» لو هزمت ، فان السيطرة الاغريقية سوف تحول المستعمرات الفينيقية الى مجرد موطىء قدم في غرب الجزيرة ، هذا فضلا عن أن القائد القرطاجي «هانيبال» (حنبل) سرعان ما حول الحملة الى حرب انتقاما من هزيمة هيميرا ، التي هلك فيها جده «هملكار» .

(١١) نفس المرجع السابق ص ٤٥٨ .

(١٢) B. H. Warmington, Op. Cit., P. 74-75.

وفي نفس الوقت فان «سيلينوس» انما طلبت من «سيجسته» العمل على ضبط النفس ، ومحاولة حل الأزمة ، غير أن قرطاج سرعان ما أتمت استعداداتها العسكرية ، وهكذا تقدم «هانيبال» في عام ٤٠٩ ق.م ، على رأس الجيش من المرتقة ، يقدر بحوالي خمسين ألف رجل ، وحاصر «سيلينوس» ثم اقتحمها عنوة بعد تسعة أيام من بدء الحصار ، وقام القرطاجيون بقتل آلاف من جنود عدوهم ، وأسر عدد كبير منهم ، ثم اتجه «هانيبال» الى «هيميرا» لاعادة السيادة القرطاجية عليها ، فضلا عن أخذ الثأر منها لجدّه «هملكار» (Hamilcar) ، و استخدم في هجومه عليها القوات البرية والبحرية معا ، وهنا تقدمت قوات «سرقوسة» (سيراكيوز) بقيادة «ديوكليس» لمساعدة هيميرا .

غير أن «هانيبال» سرعان ما لجأ الى خدعة عسكرية ، تظهر فيها بترك هيميرا ، والاتجاه الى «سيراكيوز» ، الامر الذي أثار الفزع في نفوس السرقوسيين ، واضطربهم للتراجع فورا للدفاع عن مدينتهم «سرقوسة» ، وهنا اتجه هانيبال الى هيميرا ، ونجح في الاستيلاء عليها ، وما أن تم له ذلك حتى سوى بالمدينة الارض ، وحتى ذبح السكان الذين لم يهربوا منها ، بل لقد وصل به الامر في التنسفى من أعدائه أن جمع عددا كبيرا من الاسرى ، وقدمهم — كتضحية بشرية لروح جده هملكار — ثم عاد وسرح الجيش ، الامر الذي يدل على أن قرطاج لم تكن تفكر في توسيع أراضيها ، وان كان من الواضح ، أنه منذ هذا التاريخ ، فان الفينيقيين هنا — وفي المناطق الاخرى من صقلية التي سيطروا عليها — انما قد أنشأوا في الواقع ولاية قرطاجية (١٣) .

(٣) الصراع القرطاجى ضد ديونيسيوس :

وفي عام ٤٠٦ قبل الميلاد ، حاولت قرطاج — للمرة الاولى والاخيرة — غزو كل جزيرة صقلية ، بعد أن هاجم أراضيها بعض السرقوسيين ، ومن ثم فقد أرسلت في عام ٤٠٦ ق.م قوة أكبر الى «أكراجاس» — ثانية

13) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 75-78.

أكبر المدن الاغريقية - واستولت عليها ، وفي عام ٤٠٥ ق.م ، ثم الاستيلاء على «جيبلا» ولكن هانيبال لم يستطع أن يتوج انتصاره بالاستيلاء على «سرقوسة» نفسها ، ويبدو أن وباء دمر نصف جيشه .

وكان حاكم سرقوسة الجديد «ديونييسيوس» (Dionysius) - وهو شخصية قوية ، وموضع ثقة الشعب السرقوسي - قد اتبع في سياسته - في بادئ الامر - كل ما يكفل له تدعيم مركزه الداخلي في سرقوسة ، حتى وان كان ذلك على حساب السيادة السرقوسية في صقلية ، كما تشير الى ذلك المعاهدة التي عقدها مع القرطاجيين - بسبب وباء انتشر بين جيوشهم ، وبسبب انتهاء الحرب البلونونيزية وانتصار اسبرطة صديقة سرقوسة - والتي أكدت الحكم القرطاجي على غرب صقلية ، بما فيه عدد من المجتمعات الصقلية الوطنية ، والمتبقية من سيلينوس وأكراجاس وهيميرا ، ومن ثم فقد صارت قرطاج تحكم رقعة من الارض أكبر مما كان لها من قبل ، وتجبى جزية أضخم ، فضلا عن كسر نطاق العزلة التي عاشت فيها معظم القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد قيل «ديونييسيوس» ذلك كله في مقابل الاعتراف به زعيما على سرقوسة .

غير أن «ديونييسيوس» سرعان ما بدأ استعداداته الحربية ، البرية والبحرية ، والتي نجح فيها الى حد اختراعه آلات حربية جديدة مثل المنجنيق لقذف العدو بالاحجار ، كما ضاعف عدد المجدفين في الاسطول ، تعظيما للبحرية السرقوسية ، وتقوية لسرعة تحركاتها في المعارك ، فضلا عن استخدام الحرب النفسية ، وذلك بشن حملة دعائية قوية ضد أعدائه القرطاجيين ، ووصفهم بأنهم أعداء اليونان والصقليين (١٤) .

على أن دعاية «ديونييسيوس» لم تغن شيئا ، ولم تنجح في جمع الاغارقة على كلمة سواء ، ذلك لأن الاغريق وقت ذاك انما كانوا شيعا

(١٤) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ١٩٧ - ١٩٨ ، ب . هـ .
وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٦ .

وأحزاباً ، ومفرقين بين عدة مدن ، مستقلة عن بعضها البعض الآخر تماماً ، ومن ثم فقد فشلت كل النداءات التي وجهت اليهم في صقلية للاتحاد ولطرد القرطاجيين من الجزيرة ، ربما لأن هذه النداءات انما كانت تحركات انتهازية لتحقيق مصالح خاصة لدولة بذاتها ، أو لشخصيات بعينها ، كما فعل «ديونييسيوس» في مرات ثلاث ، الاولى في الفترة (٣٩٨ - ٣٩٢ ق م) ، والثانية في الفترة (٣٨٢ - ٣٧٥ ق م) ، والثالثة في عام ٣٦٨ ق م ، وكان نصيبه الفشل في الواحدة تلو الاخرى ، ففي عام ٣٩٨ ق م ، على سبيل المثال ، نجح «ديونييسيوس» في الاستيلاء على مدينة «موتيا» الفينيقية وتدميرها^(١٥) ، ولكن في العام التالي (٣٩٧ ق م) تعرضت سرقوسة للتهديد ونجح الاسطول القرطاجي — بقيادة ماجو — في الانتصار على أسطول سرقوسة ، وكبده خسائر فادحة ، بلغت — فيما يرى البعض عشرين سفينة ، وعشرين ألف رجل — ولم ينفذه — للمرة الثانية — سوى انتشار وباء الطاعون بين المرتزقة من جنود قرطاج ، الامر الذي دفع «ديونييسيوس» الى معاودة الهجوم ، والانتصار على القرطاجيين^(١٦) .

وفي عام ٣٩٣ ق م ، حاول القرطاجيون استعادة سيادتهم ، ولكن دون جدوى ، مما اضطرهم الى عقد معاهدة سلام جديدة مع «ديونييسيوس» ، غير أن «ماجو» سرعان ما عاود هجومه على صقلية في عام ٣٨٢ ق م ، ولكن النصر كان فيها من نصيب «ديونييسيوس» ، بل ان المعركة انتهت أيضا بقتل «ماجو» ، وتنازل قرطاج عن المواقع القرطاجية في صقلية ، ودفع تكاليف ترميم ما خرب منها ، غير أن ميزان القوى سرعان ما تغير بتولى «هيملكو» بن «ماجو» القيادة القرطاجية ، فتمكن من الانتصار على «ديونييسيوس» في هيميرا ، مما اضطر هذا الاخير الى التنازل عن بعض مكاسبه السابقة لصالح القرطاجيين ، ثم عاود «ديونييسيوس» الاشتباك مع سرقوسة مرة أخرى في عام ٣٦٧

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

16) B. H. Warmington, Op. Cit., P. 109-110.

ق.م ، حيث انتهى الامر بين الفريقين باتفاقية هدنة مع ابن «ديونيسيوس» ، والذي حمل اسم أبيه (ديونيسيوس) (١٧) .

وعلى أية حال ، فلقد أثبتت هذه الاحداث جمعها أن قرطاج انما كانت قادرة — في أغلب الاحايين — على الاحتفاظ بحدودها الشرقية عند نهر «هاليكوس» (بلاتاني Platani) كما اثبتت جيوش القرطاجيين من المرتقة — والتي كان يتم تكوينها على عجل من اجناس مختلفة — أنها تضارع فيالق المشاة الاغريقية كاملة العتاد ، وكان أسطولهم متفوقا بصفة عامة ، كما أثبتت أيضا ، أن قرطاج لم يعد في وسعها — رضيت أم أبت — أن تنعزل عن العالم الاغريقي مرة أخرى ، ولم يكن هناك اغريق يقيمون في قرطاج ، وأصبح الطريق مفتوحا أمام قرطاج للتدخل بدعوة من المساسة الاغريق أنفسهم ، حتى تكون — بصفة عامة جزءا معترفا به من العالم الهليني (١٨) .

(٤) الصراع القرطاجي ضد تيموليون :

وفي العقد الذي بدأ بعام ٣٥٠ قبل الميلاد ، كانت قرطاج في طريقها للسيادة على كل جزيرة صقلية بالطرق السلمية ، حيث كان النزاع السياسى الداخلى الذى أضعف المدن الاغريقية ما يزال محتدا ، ولم ينقذ الموقف الاغريقى ، سوى حملة «تيموليون» (Timoleon) الكورنى ، تلك الحملة التى أرسلتها كورنثا لمساعدة سرقوسة ضد القرطاجيين ، الذين حاولوا عن طريق أسطولهم — منع «تيموليون» من دخول صقلية ، غير أن تيموليون قد نجح في الاقلاط من القوة البحرية القرطاجية ، فضلا عن الانتصار على القوة البرية القرطاجية والصقلية المعارضة لدخوله سرقوسة .

ومن البدهى أن قرطاج لم تستسلم للفائد الكورنى (تيموليون) ،

(١٧) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٩٨ — ١٩٩ .
B. H. Warmington, Op. Cit., P. 101-103.

(١٨) ب. ٠ هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٧ .

— أو كما يسمى «صدر بعل أو ستر بعل — ومعه «هملكار» — أو كما وانما أرسلت في عام ٣٤١ ق.م ، قوة حربية ، بقيادة «هزدروبال» يسمى عماقارت أو عبد ملقارت — غير أن «تيموليون» سرعان ما تدارك الموقف ، واستخدم أسلوب المباغته في التحركات الحربية ، حتى استطاع أن يوقع بالقرطاجيين هزيمة منكرة ، عند نهر «كريمسوس» ، وقتل «هزدروبال» ، وتلاه في القيادة «جزجو بن هانو» الذي عقد اتفاقية سلام مع «تيموليون» الذي اضطر أخيرا الى ترك العمل السياسي ، عندما فقد بصره في عام ٣٣٨ ق.م (١٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن معركة «كريمسوس» Crimisos في عام ٣٤١ ق.م ، انما دمرت قوة قرطاجية مختارة ، قوامها ثلاثة آلاف مواطن قرطاجي ، ومن ثم فقد كانت ، فيما يرى البعض — أفدح خسارة منيت بها قرطاج ، التي كانت تعتمد على المرتزقة الى حد كبير .

وعلى أية حال ، فلقد خلف «تيموليون» في حكم سرقوسة «أجاثوكليس» Agathocles غير أن الموقف كان مختلفا تماما ، فيما بين عامي ٣١٠ ، ٣٠٧ ق.م ، حيث خاضت قرطاج حربا ضد سرقوسة — بقيادة أجاثوكليس — استطاعت فيها قرطاج أن تجعل سرقوسة تحت الحصار التام ، ولكن «أجاثوكليس» استطاع أن يفلت من الاسطول القرطاجي ، وأن ينزل في صيف عام ٣١٠ ق.م أربعة عشر ألف رجل في صميم الاراضي المغربية ، وأن يشعل النار في سفنه بعد انزال جنوده على الشاطئ المغربي في منطقة سيدى داود ، غربى رأس عنابه ، مما كان له أكبر الاثر السيئ في نفسية القرطاجيين ، حتى أن الذعر وصل بهم الى

(١٩) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، وكذا B. H. Warrington, Op. Cit., P. 110-113.
رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ، وكذا

الالتجاء الى معبوداتهم ، والتقرب اليها بالقرابين الكثيرة — وخاصة التضحيات البشرية من أبناء النبلاء — •

وفي نفس الوقت ، فإن القرطاجيين سرعان ما ضاعفوا من استعداداتهم العسكرية لحماية الدولة من هذا الضغط المباشر ، الذى جعل من بلادهم نفسها ميدانا للمعركة ، وهكذا تكون جيش من أربعين ألفا من المشاة ، فضلا عن عدد كبير من الفرسان والمركبات الحربية ، بقيادة «هانو» و «بوملكار» ، وتمكن «أجاثوكليس» من الانتصار فى أولى معاركه ضد القرطاجيين ، واضطر «بوملكار» الى التراجع ، فى نفس الوقت الذى لم يحقق فيه «هملكار» أى نصر حاسم فى صقلية ، بل على العكس من ذلك ، فلقد نجح السرقليون فى قتل «هملكار» وارسال رأسه الى «أجاثوكليس» فى المغرب ، كتأييد ماذى لانتصارهم ، الامر الذى زاد فى دعم «أجاثوكليس» المعنوى ، ومن ثم فقد تقدم بقواته الى سوسة ثم أوتيكا وبنزرت ، بغية حصار قرطاج نفسها ، وفى نفس الوقت عمل على تدعيم قواته بقوات أخرى خارجية ، ومن ثم فقد اتفق مع «أفلانس» — وهو أحد حراس الاسكندر المقدونى — على أن يتقدم بقواته من برقه ، لتلحق بقوات «أجاثوكليس» حول قرطاج ، غير أن «أفلانس» الذى كان شديد الاعتزاز ببيونانيته ، لم يستطع التعاون مع «أجاثوكليس» الصقلى اليونانى ، ومن ثم فقد دبر «أجاثوكليس» خطة تخاص بها من «أفلانس» ، وضم قواته اليه •

غير أن القرطاجيين سرعان ما انتهزوا فرصة سفر «أجاثوكليس» الى سرقوسة ، واستناد قيادة قواته فى المغرب الى ولده «أركاجثوس» (Archagethus) ، فقامت بتجهيز ثلاثة جيوش لتأمين الدولة من الحصار المضروب حولها ، فضلا عن تأمين البربر على أنفسهم وأموالهم ، حتى يمانأوا جانبهم ، وقد نجحت الجيوش القرطاجية فى مهمتها ، الامر الذى أضطر «أجاثوكليس» الى العودة الى المغرب ، غير أن القرطاجيين

انما كانوا قد نجحوا في لتخلص من الحصار ، وانتهى الامر بعقد اتفاقية هدنة بين الفريقيين ، ونجت الدولة القرطاجية من خطر داهم ، وان خربت مساحات واسعة في الاراضى القرطاجية في الاعوام الثلاثة (٣١٠ - ٣٠٧ ق م) التى قضتها قوات «أجاثوكليس» في أفريقيا ، قبل ارغامها على الرحيل منها (٢٠) .

٢ - الصراع العسكرى ضد الرومان

(١) ظهور روما :

يكاد المؤرخون يجمعون على أن روما عندما ظهرت في ضوء التاريخ ، لم تكن سوى بلدة تجارية صغيرة ، تقع في مجاورات مخاضة على نهر «التيبير» ، ومكانها قوم ناطقون بالاربية ، يحكمهم ملوك من الاترسك ، هذا ويرجع المؤرخون تأسيس روما الى عام ٧٥٣ قبل الميلاد - أى بعد تأسيس قرطاج في عام ٨١٤ ق م ، بحوالى ستين عاما - وبعد اقامة أول حفل للالعاب الاولمبية (في عام ٧٧٦ ق م) - بما يقرب من ربع قرن من الزمان ، غير أن الحفريات في السوق (الفوروم الروماني) (٢١) ، كشفت عن «أترسكيه» ترجع الى عهد أبعد كثيرا من عام ٧٥٣ ق م (٢٢) ، ربما الى ألف سنة قبل الميلاد ، ومع ذلك ، فلا يزال أكثر التواريخ تداولاً لتأمين روما ، هو الحادى والعشرون من أبريل عام ٧٥٣ قبل الميلاد ، وأما أسطورة تأسيسها على يد «رمولوس» ، فلا تفيد نفعا ، ولا تقدم علما .

وعلى أية حال ، فلقد حتم موقع روما الجغرافى الممتاز تقلدها للزعامة

(٢٠) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، وكذا

(٢١) الفورم (Forum) : هو سوق المدينة في روما ، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء ، وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت المدينة زاد عدد الاسواق بها ، وكانت تقوم به المنشآت العامة والابنية العامة ويسمى ذلك السوق عند اليونان «الاجوراء» (Agora) (معالم تاريخ الانسانية ٣٨٣/٢ ، ٥٢٧) .

22) H. G. Wells, A Short History of The World, 1865, P. 112.

السياسية ، ومع ذلك ، فلم تكن روما — وموقعها على الحدود بين اللاتين والأترويين — في موقع شديد المنعة ، يساعد على الدفاع عنها ، هذا فضلا عن أنها كانت محاطة بالعناصر الأتروية (الأتروسك) التي كانت تقطن في الشمال ، والعنصر الإيطالية — الأومبرية والسابلية — شرقي نهر التيبر ، واللاتينية في جنوبه ، وغيرها من العناصر الأخرى ، وخاصة العناصر اليونانية ، التي كانت تستحوذ على بعض المستعمرات التجارية الهامة في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية (٢٣) .

وربما كان هناك — في بادئ الأمر ، ملوك لاتينيون في روما ، ثم سقطت بعد ذلك في أيدي عواهل الأترويين ، الذي أدى طغيانهم ، آخر الأمر ، إلى طردهم في عام ٥٠٩ ق.م (وربما في عام ٥١٠ ق.م) ثم أصبحت روما جمهورية أرستقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فيمن عداها من عامة الشعب (البليبيان) ، ولولا ما كانت تنطق به من لسان لاتيني ، ما شعر أحد بفارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية (٢٤) .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد بدأ الرومان يسيطون سلطانهم على غيرهم ، وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دائمة مع الأتروسك ، كانت تنتهي بالأخفاق على وجه العموم ، فلقد كان الأترويون أحسن تسليحا ، وأكثر تمدنا ، وأوفر عددا ، وكان هناك على مدى بضعة أميال من روما ، قلعة أترسكية ، هي قلعة فياي ، التي لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها ، كما كان من الراجح أن تدور الدوائر على الرومان ، لو أنهم اضطروا إلى مقاتلتهم منفردين .

على أن الأترويين (الأتروسك) سرعان ما أصيبوا بكارثتين ، أو هنتا قواهم إلى حد أن الرومان استطاعوا آخر الأمر أن يغلبوهم على أمرهم

(٢٣) عبد اللطيف أحمد على : روما — الجزء الأول — تاريخ الجمهورية والامبراطورية الرومانية — القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٧ .
(٢٤) H. G. Wells, Op. Cit., P. 112.

غلبة تامة ، وكانت أولى هاتين الكارثتين حربا مع اغريق سرقوسة في صقلية ، انتهت بتدمير الاسطول الاتروى في عام ٤٧٤ ق م ، والثانية غارة الغال على ايطاليا ، وذلك حين احتشد هؤلاء القوم ، وانتشروا في شمال ايطاليا ، واحتلوا وادى نهر «بو» في أخريات القرن الخامس ق م ، كما احتشد ذو قرباهم بعد ذلك بقرنين ، وهبطوا على بلاد الاغريق وآسيا الصغرى ، واستقروا في غلاتيا ، وبذلك وقع الاترويون بين المطرقة والسندان ، وبعد حروب طويلة في فترات متقطعة استطاع الرومان أن يستولوا على قلعة «فياي» (Veii) ، وكانت حتى ذلك الحين مصدر تهديد ومضايقة لهم .

على أن غزو الغال (Gaul) النورديين انما كان احدى تلك الاعاصير التى تعصف بالشعوب عصفا فلا تذر شيئا على حاله ، فانهم واصلوا غاراتهم قدما في شبه الجزيرة الايطالية ، وهم يخربون كل شيء في «أتروريا» — موطن الاترويين (الأتروسك) في غربى وسط ايطاليا — حتى استولوا آخر الامر على روما نفسها ونهبوها في عام ٣٩٠ ق م ، وان لم يكتب لهم نجحا قريبا المدى أو بعيدا في فتح «الكابيتول» (Capitol) ، وطبقا لأسطورة رومانية ، فان صياح الاوز كشف عن محاولة الغال القيام بهجوم ليلي مباغت ، وانتهى الامر بأن اثبتى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغال الى شمال ايطاليا (٢٥) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن غزو الغال لروما ، انما استنهض همتها ، بدلا من أن يخمد نشاطها ، ويقعدها عن العمل ، ومهما يكن مقدار ما لقيت من الآلام ، فأكبر الظن أن جيرانها عاثوا من الويلات ، ربما أكثر مما عانت ، ولم يأت عام ٢٩٠ ق م ، حتى كانت روما سيده كل ايطاليا الوسطى من نهر الآرنو (Arno) الى جنوب «نابلى» ، فانها

(٢٥) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الانسانية — ترجمة عبد العزيز

توفيق حاويد — القاهرة ١٩٦٩ ص ٥١٠ — ٥١١ .

H. G. Wells, A Short History of The World, 1965, P. 113.

قهزت الاترويين قهرا تاما ، وأخذت حدودها تنتقل شمالا تبعا لتقهقر حدود الغال ، وتمتد جنوبا بارتداد تخوم أصقاع ايطاليا الواقعة تحت السيادة الاغريقية ، وبثت الحاميات ومدن المستعمرات ، على امتداد الحدود بينها وبين الغال ، ولاشك أن هذا الخط الدفاعي هو السبب في انحراف غارات الغال وجهودهم نحو الشرق الى بلاد البلقان (٢٦) .

هذا وقد عاصرت فتوحات الرومان في ايطاليا ، فتوحات الاسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) في الشرق الادنى القديم ، غير أن امبراطورية الاسكندر ، سرعان ما تمزقت في أعقاب وفاته في الثالث عشر من يونية عام ٣٢٣ ق.م ، وتقسيمها بين قواده ، وكان هناك أمير من ذوى قرابة الاسكندر يدعى «بيروس» (Pyrrhus) ، وطد ملكه في «ابيروس» (Epirus) - وهى من وراء البحر الادرياتي قبالة كعب ايطاليا - وكان يطمح في أن يقوم في «الماجنا جرايكا» (Magna Graecia) (بمعنى بلاد الاغريق العظمى) بدور «فيلب المقدوني» معها ، وأن يصبح حاميا وسيدا عاما لمدينة (Tarentum) و «سرقوسة» (سيراكوز = Syracuse) وباقي ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد في زمانه ، جيشا عصريا عظيم الكفاءة ، فقد كان لديه فيلق من المشاة ، وكتيبة فرسان من تساليا ، تضارع في كفاءتها الخيالة المقدونية الاصلية ، فضلا عن خمسة وعشرين فيلا ، فغزا ايطاليا ، وبدد شمل الرومان في موقعتين ، الواحدة في عام ٢٨٠ ق.م ، في «هراقليا» (Heraclea) ، والاخرى في عام ٢٧٩ ق.م ، في «أوسكولم» (Ausculum) ، ولما تم له دفعهم نحو الشمال ، وجه اهتمامه الى اخضاع صقلية (٢٧) .

بيد أن هذا جلب عليه عدوا كان وقت ذاك أرهب جانبا من الرومان ، وهو قرطاج الفينيقية ، وكانت آنذاك أعظم مدن العالم ، أو لعلها كذلك ،

(٢٦) هـ . ج . ويلز : المرجع السابق ص ٥١٢ .

27) H. G. Wells, Op. Cit, P. 113-114.

وكانت صقلية قريبة من القرطاجيين قريبا لا يستطيعون معه أن يرحبوا بمقدم «اسكندر جديد» اليها ، كما أن قرطاج لم تكن قد نسيت بعد المصير الذى حل بأمها «صور» قبل ذلك بنصف قرن ، ومن ثم فقد أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات «بيروس» ، فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويحطمون بعنف ساحق هجوما قام به على معسكرهم فى «بنيفنتم» (Beneventum) — بين نابلى وروما — فى عام ٢٧٥ ق م (٢٨) ، الامر الذى أدى الى أن انتقلت صقلية بأكملها الى قرطاج ، وتقدمت حدود روما جنوبا حتى أصابع ايطاليا وعقبها ثم سرعان ما أصبحت السيادة فى شبه الجزيرة الايطالية لروما ثم ظهور روما كدولة قوية وجديدة وخطيرة فى المنطقة .

(٢) علاقة قرطاج بروما فيما قبل الحرب البونية :

لم تكن العلاقات بين روما وقرطاج يشوبها — فى أول الامر — شئ من العداء ، فروما دولة برية ، أساس اقتصادها الزراعة ، وكان كل نشاطها الخارجى فى الميدان الزراعى ، وقرطاج دولة بحرية ، يقوم نشاطها الاقتصادى على التجارة ، وكان امتداد نفوذها يسلك سبيل البحر ، ومن ثم فلا تعارض بين مصالح الدولتين ، وبالتالى فليست هناك أسباب للصدام بينهما ، وانطلاقا من كل هذا ، ففى العام التالى لقيام الجمهورية الارستقراطية فى روما ، عقدت معاهدة بين روما وقرطاج فى عام ٥٠٨ ق م ، ثم تجددت هذه المعاهدة بين الدولتين مرتين ، الاولى فى عام ٣٧٨ ق م ، والثانية فى عام ٣٤٨ ق م ، لتنظيم التجارة بينهما ، ورغم أن قرطاج قد تعهدت بمقتضى المعاهدة الاخيرة ، ألا تتدخل فى شئون المدن اللاتينية ، فضلا عن مساعدة روما على التحكم فى هذه المدن ابان عصيانها ، ورغم أن روما أصبحت الآن أقوى كثيرا مما كانت عليه من قبل ، رغم ذلك كله ، فالذى لا ريب فيه ، أن المعاهدة انما كانت فى صالح قرطاج الى حد كبير ، وذلك لان مصالح روما التجارية لم تكن

28) Ibid., P. 114.

شيئا ذا أهمية بالنسبة لتلك التي كانت لقرطاج ، و على الاقل لم تكن في درجتها من الالهية •

وفي العصور التالية اندفعت روما بسرعة مذهلة لكي تصبح القوة المسيطرة في ايطاليا ، وتقلصت تدريجيا تلك الثغرة الفاصلة بين المناطق التي تهتم بها كل من القوتين ، عندما بدأ عدو قرطاج القديم «أجاثوكليس» في عام ٢٩٣ ق.م ، يقوم بنشاط عسكري في جنوب ايطاليا ، وبعد سنوات قليلة دعى الملك «بيروس» (Pyrrhus) ملك «ابيروس» (Epirus) الى ايطاليا ، ليعمل على تحرير المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا والتي تزعمتها «تارنتوم» (Tarentum) من السيادة الرومانية (٢٩) ، وكما أشرنا من قبل ، فلقد وقفت قرطاج الى جانب روما ، ومكنتها من الانتصار على «بيروس» في «بينفنتم» (Beneventum) عام ٢٧٥ قبل الميلاد (٣٠) •

وهكذا لم يكن هناك — حتى هذا التاريخ — تضارب في المصالح بين قرطاج وروما ، غير أنه لم يمض غير عقد من الزمان ، حتى دخلت الدولتان في صراع أنزل بكل منهما خسائر فادحة ، لم تعرفها حرب حتى ذلك الحين ، ورغم أن النتيجة كانت ذات أهمية في مجال توظيف العوامل الجغرافية لصالح السياسة ، فليس هناك سوى شك ضئيل في أن سبب الحرب انما كان تافها ، وأن كلا الجانبين لم تكن له أهداف محددة ثابتة •

وفي عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، قبلت روما استسلام «مسينا» (Messina) — والتي كانت من قبل حليفا لقرطاج ضد سرقوسة — وكان المساسة الرومان وقتئذ على درجة كبيرة من الثقة بالنفس ، ويبدو أنهم توقعوا أن قرطاج ان تقاوم ، وأن هناك غنائم عظيمة سهلة يمكن الحصول عليها من المدن الاغريقية في صقلية ، كما أخذت المخاوف مأخذها من الرومان ، من أن قرطاج اذا ما سيطرت على مسينا يمكنها أن تسيطر على ايطاليا ،

(٢٩) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٧ - ٤٦٨ •
(٣٠) ج. هـ. ويلز : المرجع السابق ص ٥١٣ •

والتي لم يكن لها فيها مصالح حقيقة البتة ، وفي نفس الوقت صممت قرطاج على مقاومة التدخل الروماني ، لأنه سيعنى تغييرا كاملا في ميزان القوى الذي كان قائما في الجزيرة لمدة قرن ونصف القرن ، كما أنها شعرت ، دونما ريب ، أن السياسة الرومانية إنما هي مغامرة خطيرة ، على أن روما إنما كانت في ذات الوقت ، على تمام الالهة لما يسمى في لغة السياسة العصرية ، وأسلوبها العقيم ، باسم «الحرب الهجـومـية الدفاعية» (٣١) .

وهكذا قامت الحرب البونية (٣٢) المشهورة في التاريخ الروماني القرطاجي بأدوارها الثلاثة ، كانت الحرب الاولى في الفترة (٢٦٤ - ٢٤١) ، وكانت الثانية في الفترة (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) ، وكانت الثالثة في الفترة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) وذلك من أجل السيادة على غربى حوض البحر المتوسط .

(٣) الحرب البونية الاولى (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م) :

بدأت الحرب البونية (الفينيقية) الاولى في عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، بسبب حادث مسينا ، في شمال جزيرة صقلية ، وذلك حين قام جماعة من الجنود المرتزقة الايطاليين من اقليم «كمبانيا» (Campania) في جنوب ايطاليا ، كانوا يعملون في خدمة الملك «هيرو» (Hero) حاكم مدينة «سرقوسة» (Seracuse) ، وبعد انتهاء خدمتهم ، وأثناء عودتهم الى كمبانيا ، مروا بمدينة «مسينا» (Messina) فحاولوا الاستيلاء عليها ، وكانت «مسينا» (مسانا) تابعة سياسيا لملك سرقوسة ، فطلب منهم مغادرة المدينة ، وحين رفضوا طلب المساعدة من روما وقرطاج في آن واحد ، فأسرعت قرطاج الى الوقوف في جانب سرقوسة ، بينما تباطأ مجلس الشيوخ الروماني (المسيناتو) ، وأخيرا قرر الانحياز الى جانب

(٣١) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٨ ، هـ. ج. ويلز : المرجع السابق ص ٥٣٣ .
(٣٢) كلمة «البونية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيونيكوس» (Punicus) أي القرطاجية - أعني الفينيقية - ومن هنا سميت الحرب بين روما وقرطاج بالحرب البونية أو الحرب الفينيقية .

جنود كمبانيا من المرتقة ، على أساس أن روما هي المسئولة عن حماية المقاطعات الإيطالية ، ومن بينها كمبانيا ، وعندما عرض الامر على الجمعية المتوية أقرت اعلان الحرب ، وهكذا بدأ أعنف صراع بين روما وقرطاج في التاريخ القديم ، والذي عرف باسم «الحرب البونية» (٣٣) .

ولا ريب في أن التفوق البحري في هذه الحرب ، انما كان — في بادىء الامر — للقرطاجيين ، فقد كانت لهم سفائن حربية كبيرة لم يسمع حتى ذلك الحين بمثل حجمها ، وهي «الخماسيات» أو «المخماسية» ، أى السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والكبش الضخم (وهو نتوء برأس كبش ناشز من سفينة لاتلاف سفن الاعداء) ، وكانت أعظم السفن في معركة «سلاميس» في عام ٤٨٠ ق م ، (حيث انتصر الاسطول الاثيني على افرس) ، هي «المثلثات» أو «المثلثة» ، وليس لها الا ثلاثة صفوف ، غير أن الرومان سرعان ما نصبوا أنفسهم بهمة خارقة ، على الرغم من قلة درايتهم بالامور البحرية ، للتفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن ، وكانوا يستخدمون بحارة من الاغريق في تسيير الاساطيل الجديدة التي أنشأوها ، ولكي يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق في الملاحة ، فقد اخترعوا طريقة امسك سفن الاعداء بالكبابيش (الكلابات) واعتلائها ، فاذا أقبل العدو من القرطاجيين لصك مجاديف الرومان بالكباش أو قطعها ، تعلق كبابيش ضخمة من الحديد بسفنهم، وتزاحم الجنود الرومان الى ظهورها زرافات ووحدانا (٣٤) .

ومن الغريب ، أنه على عكس ما كان يتوقع الناس ، فان الاسطول القرطاجي لم يثبت أنه الاقوى ، بالرغم من أن الرومان لم يكونوا يملكون أسطولا من أى حجم حتى عام ٢٦١ ق م ، ولقد انتصر الرومان في البحر مرتين ، الاولى : في معركة «ميلاي» (Mylae) عام ٢٦٠ ق م ، على ساحل صقلية ، وخسر الاسطول القرطاجي عشرة آلاف رجل من

(٣٣) مصطفى العبادى : مذكرات في التاريخ الرومانى - بيروت ص ٤٠ .

34) H. G. Wells, A Short History of The World, 1965, P. 115-116.

مجدفى الاسطول ، والثانية : معركة رأس «اىكنوموس» (Economus) عام ٢٥٦ ق م^(٣٥) ، وأغرق الرومان لقرطاج ثلاثين سفينة ، واستولوا على أربع وستين^(٣٦) .

هذا وقد دفع هذا النصر الرومان الى التفكير فى غزو أفريقيا ذاتها ، ومن ثم فقد أرسلت روما فى عام ٢٥٦ ق م ، جيشا بقيادة القنصلين «فالسو» (M. Vulso) و «رجولوس» (A. Regulus) وقد نجحت هذه القوة الرومية فى أن تحتل «اسبس» (Aspis) شرقى عنابة ، وأن تستولى على تونس — على مبعده ١٦ كيلا من قرطاج — وزاد الطين بله بالنسبة للقرطاجيين ، أن البربر انتهزوا هذه الفرصة وقاموا بثورة عارمة ضد قرطاج ، ربما بسبب المعاملة القاسية التى عومل بها البربر من الجنود المرتزقة أحيانا ، وربما بسبب عدم دفع أجورهم المتأخرة ، وربما بسبب نزعة البربر الاستقلالية ، والتى كانت تهدف الى الاستقلال والتخلص من النفوذ القرطاجى ، وربما بسبب هذه العوامل مجتمعة^(٣٧) .

غير أن القرطاجيين سرعان ما نجحوا فى القضاء على الحملة الرومية؛ وأسر قائدها «رجولوس» فى عام ٢٥٥ ق م ، بل ونقل ميدان المعركة مرة أخرى الى صقلية ، ولكنهم هزموا فى عام ٢٥١ ق م ، هزيمة منكرة على مقربة من «بالرمو» ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة ، أخذها الروم وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم اخترق «الفوروم» (Forum) ، لم تر روما له من قبل نظير^(٣٨) ، ثم ضربوا حصارا بلاء بالفشل على مدينة «ليبيايوم» — وكانت المعقل الرئيسى الباقى فى أيدي القرطاجيين فى صقلية — .

وهكذا أختل ميزان القوى السياسية مرة أخرى ، وتصادمت القوتان

(٣٥) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٨ .
(٣٦) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الانسانية ، الجزء الثانى ص ٥٣٧ .
(٣٧) انظر : رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
(٣٨) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

— الرومية والقرطاجية — في المجال البحري ، وتمكن القرطاجيون من أسر عدد من السفن الرومية ، كما بدأوا في تدعيم قواتهم في صقلية ، ومن ثم فقد أرسلوا قوة قرطاجية جديدة بقيادة «كارثالو» (Carthalo) ، غير أن القنصل الرومي «بولوس» (Pullus) سرعان ما تصدى لهذه القوة القرطاجية ، ونجح في حصار «كارثالو» بين قوتين بحريتين روميتين (٣٩) .

وأرسلت قرطاج أكثر قوادها مهارة ومقدرة «هملكار» — والذي يعد هو وولده هانيبال (هانيبل) أخطر من تصدى لقتال روما من قواد في تاريخها القديم بأسره — واستطاع «هملكار» أن يحتل جبلا شمالي «بالرمو» (بانورموس — Panormus) يدعى "Erecte" ، وعلى الرغم من محاصرة الروم له ، فلقد استطاع — بمقدرة نادرة — أن يقاوم الحصار عدة أشهر ، وأن يوجه الجنود الى رعى الابقار وزراعة القمح فوق الجبال ، كما استطاع هؤلاء الجنود القلائل ، بتوجيهات عبقريته الملهمة ، أن يأتوا بالاعجائب ، فمن هذا الموقع الصغير ، استطاع «هملكار» أن يشن عدة هجمات على المواقع الرومية على ساحل صقلية ، وأن يتصل بوحدات خفيفة من الاسطول القرطاجي ، وأن ينظم هجماته بحيث كانت برية وبحرية في ان واحد .

وما أن تمضي سنون ثلاثة على هذا النحو ، حتى ينتقل «هملكار» الى جبل آخر يسمى Eryx ويتصل بعدد أكبر من القوات القرطاجية ، غير أن قواته انما كانت أقل من أن تحقق نصرا حاسما على الروم ، هذا فضلا عن أن الروم بدأوا — في نفس الوقت — يتجهون الى القيام بحرب بحرية بصورة أقوى وأكبر من ذي قبل ، ومن ثم فقد أعادوا بناء أسطولهم ، واستخدمه في قطع سبل المواصلات بين صقلية وقرطاج ، وليس في محاولة غزو أفريقيا ، كما حدث من قبل ، وهكذا ، وفي عام ٢٤٢ ق م ، قام الروم بمهاجمة قافلة حربية قرطاجية تحمل الجنود

39) B. H. Warmington, Carthage, London, 1961, P. 160.

والمؤن للمحاربين ، ودمروا جزءا كبيرا من الاسطول القرطاجي^(٤٠) ، وهكذا انتهت الحرب البونية الاولى عندما هزم الاسطول القرطاجي في جزر «ايجاتيس» *Egates* ، أو الجزائر الايجاتية في عام ٢٤٢ ق.م ، وهذا يعنى ببساطة أنه لم يعد في امكان قرطاج استمرار الامدادات الى صقلية ، وأنه سيتبع ذلك سلام الاستنزاف ، والذي تخلت فيه قرطاج عن صقلية نهائيا ، كما وافقت على دفع تعويضات مالية ضخمة ، بلغت ٣٢٠٠ بالنتون (حوالي ٤ ملايين دولار) ، فضلا عن الافراج عن جميع الاسرى الروم دونما أى فدية •

وليس هناك الى سبيل من ريب ، في أن هذه الشروط الجائرة ، انما كان لها أسوأ الاثر في قرطاج فلم تكف روما بالسيطرة على صقلية — فيما عدا ممتلكات هيريو ملك سرقوسة — وانما استغلت أيضا ثورة الجند المرتزقة (٢٤١ — ٢٣٨ ق.م) ضد قرطاج ، فاستولت على «كورسيكا» و «سردينيا» ، وحين احتجت قرطاج بأن شروط الصلح لم تتضمن شيئا بشأن هاتين الجزيرتين ، زادت روما التعويض بمقدار ١٢٠٠ بالنتون ، وجعلت من نهر «ابرو» حدا أقصى للتوغل القرطاجي في أسبانيا ، وهكذا أدت الحرب البونية الاولى الى أن أصبحت صقلية أول ولاية رومية ، ثم سردينيا وكورسيكا الولاية الثانية^(٤١) •

وزاد الطين بله في قرطاج ، انتشار الفوضى الداخلية ، ذلك أن الجنود العائدين من الحرب لم يستطيعوا الحصول على أعطياتهم ، فتمردوا وأخذوا ينهجون ويسلبون ، وتركت الاراضى بورا ، لا تجد من يزرعها ، هذا فضلا عن أن العناصر البربرية انما انتهت فرصة ضعف الدولة القرطاجية ، للحصول على حقوقهم ، والتمهيد لسيادتهم المستقلة ، وكما أشرنا من قبل ، فلقد استمرت هذه الفوضى أو الثورة فيما بين عامي

(٤٠) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤١ — ٤٢ •

(٤١) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٣ ، هـ ج •

ويلز : المرجع السابق ص ٥٣٩ ، وكذا

H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

٢٤١ ، ٢٣٨ ق.م ، وقد استعملت قرطاج كل أنواع القسوة لاختداد هذه المفوضى والفتن الداخلية ، حتى أننا نقرأ في سجل التاريخ صفحات رهيبة من القساوات المروعة التي حدثت ابان اخماد «هملكار» القائد القرطاجى لهذا الشعب ، فنسمع برجال يعدمون صلبا بالالف دفعة وحدة (٤٢) .

على أن الحال في روما ، لم يكن خيرا منه في قرطاج ، فلقد ثار الغال (Gauls) ، واندحدروا جنوبا في ايطاليا — والتي بلغ المهلع بها ، فضلا عن الانحطاط الخلقي والدينى ، الى حد تقديم القرابين والاضاحى البشرية لآلهتها الوثنية — غير أن الروم سرعان ما استنطاعوا هزيمة الغال في معركة «تيلامون» (Telamon) ، وقتلوا منهم أربعين ألفا ، وعنفذ تقدمت روما قدما الى جبال الالب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بحذاء البحر الادرياتي حتى الليريا (٤٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أسباب فشل القرطاجيين في صراعهم ضد الرومان على أيام الحرب البونية الاولى ، انما يرجع الى أسباب ، ربما كانت تتصل بالقرطاجيين أكثر من اتصالها بالروم ، لعل من أهمها (أولا) أن المجتمع القرطاجى لم يكن مجتمعا مترا بطلا ، ذلك لأن الفينيقيين القادمين من المشرق لم يستطيعوا — حتى بعد الاستقرار في المغرب وتكوين الدولة القرطاجية — الاندماج الكلى مع السكان الاصليين من العناصر البربرية ، فضلا عن انصهار العنصرين — الفينيقي والبربرى — في بوتقة واحدة ، تجعل منهما شعبا قرطاجيا واحدا ، صحيح أن بعض العناصر البربرية قد اندمجت فعلا في المجتمع الجديد ، ولكنه صحيح كذلك ، أن البربر في جملتهم — لم ينصهرا في المجتمع الجديد ، ولم يصبحوا جزءا لا يتجزأ من هذا المجتمع ، ربما لان الفينيقيين ظلوا على طبيعتهم الاولى — الطبيعة البحرية التجارية — مع بعض محاولات ، قليلة أو كثيرة ، للنفوذ داخل القارة الافريقية ، غير أن الطبيعة البحرية للفينيقيين ، اثما كانت هي الاساس .

(٤٢) هـ . ج . ويلز : المرجع السابق ص ٥٣٨ .

43) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

وربما لأن الغينيين انما كانوا يستخدمون البربر ، كجنود مرتزقة ، وليسوا جنودا وطنيين — وخاصة في سلاح الفرسان لمهارتهم في ركوب الخيل والحدو — غير أن المعاملة القاسية ، فضلا عن وضعهم في مقدمة الصفوف ، حين تشتعل أوار الحرب ، الى جانب تأخير أجورهم ، انما قد دفعهم الى الثورات المتكررة ضد القرطاجيين ، بل والتحالف — في بعض مراحل الصراع — مع الروم ضد القرطاجيين ، ثم محاولة الاستقلال عن قرطاج وروما معا .

ومنها (ثانيا) عدم وجود جيش قرطاجى دائم — مدرب ومنظم — فضلا عن الاعتماد على المرتزقة ، والذين كانوا يحسون بقليل من الاخلاص نحو الدولة القرطاجية ، وقد أصبحوا يمثلون معظم قوة الدفاع عنها ، ولم يمض طويل وقت حتى وجدوا أنفسهم دون مرتبات منتظمة ، الامر الذى يجعل اخلاصهم لها يتوقف الى حد كبير على الوفاء بدفع أجورهم — بعكس الوطنيين الذين يبذلون النفس والنفيس رخيصة في سبيل الوطن ، وقد أشار «فلوبيس» الى هذه الحقيقة حين قال : ان تفوق الرومان العسكريين على القرطاجيين ، انما كان تفوق «الجنود — الوطنيين» الذين تحفزهم الروح الوطنية على «المرتزقة» ، أضف الى ذلك كله تدريب هؤلاء المرتزقة — الذين كانوا — يجمعون وقت الحرب — على الاسلحة المختلفة ، خاصة وقد شهدت تلك الفترة تطورا كبيرا في الاسلحة ، كالمجانيق الكبيرة للقذف بالكتل الحجرية على أسوار المدن ، والمكبشات الحديدية القلابة للسفن ، فضلا عن استخدام انعكاسات الاشعة الشمسية على المرايا ، واستغلال ذلك في اشعال الحرائق في السفن وتجمعات الاعداء .

ومنها (ثالثا) عدم استقرار الاوضاع الداخلية — السياسية والاقتصادية — في المجتمع القرطاجى ، فهناك مثلا النزاع التقليدى بين طبقات المجتمع حول الثروة ، ففريق يعتمد فيها على الزراعة ، وآخر يعتمد على التجارة الخارجية ، وهناك التنافس بين رجال الجيش وطبقات المجتمع الاخرى ، فضلا عن التنافس بين القادة أنفسهم حول السيادة

السياسية ، الامر الذى أدى الى عدم وجود رأى سياسى قرطاجى موحد ، ومن البدهى أن ذلك كله أنما يؤثر فى اتخاذ القرار السياسى — وخاصة فى العمليات العسكرية — فى الوقت المناسب ، وكثيرا ما اختلف أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجى حول المقرارات المصيرية ، الامر الذى كان أحد عوامل فشل قرطاج فى حروبها البونية ضد الرومان (٤٤) .

(٤) الحرب البونية الثانية (٢٦٨ - ٢٠١ ق م) :

دام السلام بين روما وقرطاج اثنتين وعشرين سنة ، وكان سلاما لا رخاء فيه ولا رعد ، قاسى فيه كلا المتحاربين آلام العوز وانحلال النظام ، التى تتلو بالضرورة والطبيعة كل الحروب الكبيرة ، وكانت أراضى قرطاج تضطرم بالفوضى العنيفة ، فلقد أدى الضيق المالى الذى سببته الحرب الى صعوبة دفع مستحقات المرتزقة الذين كان نصفهم ليبيين ، وقامت ثورة فى أفريقيا تميزت ، كما أشرنا من قبل ، بالوحشية القاسية من الجانبين ، وتورط فيها حوالى عشرين ألفا من المرتزقة ، وكان أحد قادتها المبرزين ليبيا يدعو «ماثون» أو «ماثو» Matho ، وقد تعرضت فيها قرطاج نفسها للخطر ، وسيطر المتمردون لبعض الوقت على «أوتيكا» وبنزرت (هيو أكر) وتونس ، وكان المتمردون منظمين لدرجة أن أصدروا عملة خاصة بهم عليها شعار «الليبيون» بالاغريقية ، وترجع شدة الصراع الذى انتهى عام ٢٣٨ ق م ، الى عنف المعاملة القرطاجية لليبيين .

وقد انتهزت روما الفرصة فاستولت على سردينيا عنوة ، بينما كانت قرطاج فى موقف لا تستطيع معه المقاومة ، وليس هناك من شك فى أن الاستيلاء القرطاجى العام من هذا النوع ، انما قد أخمّد معارضة «هملكار — برقا» (Hamilcar Barca) ، وكان قد أبلى بلاء حسنا فى

(٤٤) انظر : رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .
دى بورج : تراث العالم - ترجمة زكى سوس - القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

معارك صقلية ، عندما خرج عاقدا العزم على توسيع نطاق سيطرة قرطاج في أسبانيا ، بعد أن انحصر نفوذها هناك في بضعة محطات ساحلية^(٤٥) ، وبعد أن أصبحت سلطات قرطاج في أسبانيا لا تتعدى نهر «البرو» فلقد حرم الرومان عليها تجاوز ذلك الحد ، فاذا عبرت قرطاج نهر البرو ، عد ذلك عملا حربيا معاديا لروما^(٤٦) .

وكان الهدف من مشروعات «هملكار» (حملقرت) مزدوجا ، أولا : استغلال الموارد المعدنية مباشرة ، مما يعوض ضياع موارد صقلية ، وثانيا : تعبئة القوى البشرية في أسبانيا في جيش يمكنه أن يكون نديا للرومان في الميدان ، ذلك لأن هملكار انما قد أدرك أن هزيمة قرطاج في الحرب البونية الاولى انما كانت بسبب اصابة الاسطول القرطاجي في البحر ، وتعذر الاتصال بين قرطاج وميدان القتال ، ومن ثم فقد حرص هملكار هذه المرة على أن يكون الغزو عن طريق البر ، وأن تكون قاعدته الاساسية في الحرب هي أسبانيا ، وليست قرطاج ، ثم الانتقال بالطريق البري الى شبه جزيرة ايطاليا ، وهكذا أخذ هملكار في تكوين قوة حربية من مرتزقة الايبيريين ، واستخدام ثروات ايبيريا من المعادن في اجتذاب المتطوعين في صفوف قواته العسكرية ، مبررا ذلك كله بأنه انما يعمل على استكمال قدرات قرطاج المالية ، للوفاء بالتزاماتها نحو الرومان من تعويضات افترضوها عليها في معاهدة الصلح التي أبرمت بعد الحرب البونية الاولى .

وهكذا أخذ هملكار يعمل منذ اختياره واليا على أسبانيا في عام ٢٣٧ ق.م (وربما في عام ٢٣٦ ق.م) للكيد لروما ، وتمزيقها اربا ، ومن ثم فقد عمل على اعداد أسبانيا للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، وقد أثبت في هذه المرحلة أنه سياسى وادارى عظيم ، بقدر ما هو قائد عبقرى ، وقد نجح في اعداد أسبانيا اقتصاديا لتصبح القاعدة التي تمون حملته ضد روما ، هذا فضلا عن كسبه لولاء القبائل لشخصه ، وبالتالي فقد درب

(٤٥) هـ ج ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .
(٤٦) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

الكثيرين منهم ليصبحوا جنودا في جيشه ، وبعد مضي تسع سنوات على هذا العمل الكبير توفي هملكار في عام ٢٢٨ ق.م ، وانتخب خلفا له زوج ابنته «هاسدور بعل» (Hasdrubal) الذي سار على نهج هملكار في العمل ، وان اختلف عنه في الوسائل ، فهو مثلا انما كان يفضل الوسائل السلمية مع العناصر الايبيرية ، وقد دعم اتجاهه هذا بالزواج من بنت أحد الرؤساء الايبيريين، مما كان له أثره البالغ في تقبل الايبيريين للسيادة القرطاجية ، كما أنه — تدعيما لهذه السيادة القرطاجية — قام بتأسيس مدينة «قرطاجة» أو «قرطاج الجديدة» (Carthago-Carthage Nova) غير أنه سرعان ما قتل في عام ٢٢١ ق.م ، على يد أحد الايبيريين .

ومع ذلك فالذى لا شك فيه أن القائدين (هملكار — وهاسدور بعل) قد نجحا — وفي مدى فترة لا تزيد على ثمانية عشر عاما (٢٣٧ — ٢٢١ ق.م) — في احكام السيطرة على ما يزيد عن نصف شبه الجزيرة الاسبانية ، وتكوين جيش من خمسين ألف رجل (٤٧) .

وفي عام ٢٢١ قبل الميلاد ، تولى «هانيبال العظيم» (حنبعل — Hannibal) بن هملكار (٢٤٧ — ١٨٣ ق.م) — وهو الذى قدر له أن يكون أخطر أعداء روما الذين أربعوا مجلس السناتو الرومانى أبد المدهر ، وواحد من المع القواد العسكريين على مر التاريخ كله — تولى قيادة جيش الامبراطورية الجديدة في اسبانيا ، خلفا لزوج أخته «هاسدور بعل» ، ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره بعد ، غير أنه — على حداثة سنه — انما كان يتميز بالقدرة المنقطعة النظير على العمل المستمر ، هذا فضلا عن قوة شخصيته الفذة التى كتب لها نجحا ب يد المدى في اكتساب ولاء الجند ، وملء نفوسهم بالثقة التامة فى النصر ، تدت قيادته فى أدق المواقف العسكرية حرجا ، وأكثرها خطورة ،

(٤٧) مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٤٣ — ٤٤ ، ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٥٧ .

وبهذه الصفات وغيرها ، أصبح «هانيبال» يعد واحدا من بين كبار القواد على مدى تاريخ البشرية ، من أمثال «تحتومس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) و «الاسكندر المقدوني» (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) و «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) و «خالد بن الوليد» (ت ٦٤١ م / ٦٤٢ م) وصلاح الدين الايوبي (١١٣٧ - ١١٩٣ م) و «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٨١ م) وغيرهم .

وعلى أية حال ، فهناك اشارات قد تؤيد وجهة النظر الرومانية المتأخرة ، بأن المغامرة كلها انما كانت من تخطيط وتدبير «آل برقا» - وهو الاسم الذي عرفت به أسرة هانيبال بن همكار برقا - للانتقام من روما ، وان لم تكن تحظى بتقدير حكومة قرطاج ، وأن «همكار برقا» قد ربط ولده هانيبال بأوثق الايمان ، على أن يعمل ضد روما ، وأن يحقق نصرا مؤزرا عليها ، وأن ينتقم لقرطاج من هزيمة الحرب البونية الاولى ، وهكذا اشتعلت نيران الحرب البونية الثانية ، ومع ذلك ، فالمثبت أن هذه الحرب انما قد أشعلها الرومان - وليس القرطاجيين - وذلك حين نقض الرومان شروطهم التي وضعوها بأنفسهم ، وبتدخلهم في شؤون جنوبي نهر الابر ، ومن ثم فقد صار هانيبال قدما الى جنوب بلاد الغال (أى فرنسا) ، ثم عبر جبال الالب في عام ٢١٨ ق.م ، وهبط ايطاليا .

هذا وقد كان لكل من الجانبين - القرطاجي والروماني - خطته الحربية في الهجوم على الجانب الآخر ، كانت خطة هانيبال - كما وضعها أبوه همكار من قبل - أن يعتمد أساسا على الجيوش البرية ، وأن يغزوا ايطاليا من جهة الشمال الغربى ، وبذلك ينقل ميدان المعركة الى ايطاليا نفسها ، وفي هذا اهمال تام للناحية البحرية ، هذا فضلا عن أن خطوط امداداته بين ايطاليا وأسبانيا ، انما كانت جدا بعيدة ، وأن عبور جبال الالب انما تمثل - من الناحية العسكرية - عقبة كؤود في طريق حملته ، وأخيرا فان الاعتماد على قرطاجنة كليه سيكون آخر الامر من أسباب ضعف الحملة .

وأما خطة الروم ، فكانت تهدف الى تحقيق أحد أمرين ، الواحد : ابعاد ميدان القتال عن ايطاليا ، والثانى : نقل المعركة الى أسبانيا ، أو الساحل الافريقى ، ان أمكن ذلك ، غير أن الامر ، انما يجعل ميدان المعركة (فى أسبانيا) بعيدا عن امدادات الرومان فى مواطنهم الاصلية (فى ايطاليا) ، وأما الامر الثانى فيتطلب أن يكون الروم على ثقة من ولاء القبائل الاسبانية لهم ، وهو أمر تحيط به هواتف المريبة والشك ، على الاقل .

على أن المظاهرة المشتركة بين خطتى الروم والقرطاجيين ، انما هى محاولة كل من الفريقين أن يهاجم الفريق الاخر برا ، والابتعاد عن المعارك البحرية ، وهكذا فالروم يريدونها فى أسبانيا ، والقرطاجيون يريدونها فى ايطاليا ، غير أن «هانيبال» سرعان ما نجح فى افساد الخطة الرومية ، عن طريق عناصر ثلاثة ، أولها : سرعة تنقلاته ، وثانيها : السرية التامة التى أحيطت بخطوط سيره ، وثالثها : مبادرته فى الهجوم .

وأيا ما كان الامر ، فالذى لا ريب فيه أن الدوافع الحقيقية للحرب البونية الثانية ، انما هى نفسها التى كانت وراء الحربين الاولى والثالثة البونية ، وأما الاسباب المباشرة لهذه الحرب الثانية ، فان روما انما قد بعثت الى هانيبال فى عام ٢٢٠ ق.م ببعثة دبلوماسية للتفاوض معه ، كمحاولة للحد من استمرار توسعه فى أسبانيا ، وان كانت فى حقيقتها انما كانت ترمى الى مساندة مدينة «ساجنتوم» (Saguntum) شمال قرطاجنة (قرطاج الجديدة) ، والتى أبدت ميلا واضحا نحو الروم ، غير أن هانيبال سرعان ما هاجم «ساجنتوم» فى عام ٢١٩ ق.م ، وفرض عليها الحصار قرابة أشهر ثمانية ، حتى اضطرت الى الاستسلام ، رغم احتجاج روما ، وهكذا أعلن الروم الحرب على هانيبال فى عام ٢١٨ قبل الميلاد (٤٨) .

(٤٨) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ ، رشيد

وتحتوى أحداث السنوات الخمس العشرة التالية قصة أشد الغزوات في التاريخ القديم شهرة ، وأقلها طائلا ، فلقد استمر هانيبال صامدا في إيطاليا خمسة عشر عاما ، وهو منصور لم يغلب ، ولم يكن القنواد الرومان كفؤا لذلك المحارب القرطاجي القدير ، فكلما التقوا به حلت بهم الهزيمة ، كما في معارك «تراسيمينى» (Trasimene) و «كاناي» (Cannae) ، بل لم يستطع أى جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه ، دون أن تحقيق به الهزيمة (٤٩) .

وعلى أية حال ، فلقد بدأ «هانيبال» حملته على إيطاليا بجيش قوامه أربعون ألف جندي من المشاة ، وتسعة آلاف من الفرسان ، وعدد من الفيلة ، وقد مر بهم في جبال البرانس في شمال أسبانيا ، ثم اتجه بعد ذلك شرقا الى جبال الالب ، ومن ثم فقد شق طريقه في داخل إيطاليا ، حيث قامت استراتيجيته على أساس أن روما لا يمكن هزيمتها هزيمة حاسمة ، الا في داخل إيطاليا نفسها ، كما أنه لم يحاول أن يلتزم الساحل في طريقه ، لأنه انما كان على يقين من أن الروم انما كانوا يتحركون على طول الساحل ، فلقد كانوا قد أرسلوا أحد القنصلين ، وهو «ب» كورنيليوس سكيو» (P. Cornilius Scipio) الذي لم يكد يصل الى «ميسيليا» (مرسيليا) حتى علم أن هانيبال قد عبر نهر الرون ، منذ ثلاثة أيام ، واتجه الى جبال الالب ، ومن ثم فقد قرر «سكيو» العودة الى شمال إيطاليا ، واكتفى بأن أرسل أخاه على رأس قوة رومية الى أسبانيا ، بغية أن تنال قاعدة هانيبال ببعض الاضرار ، وفي نفس الوقت أرسل الى انروم أن يعود القنصل الاخر : (سمبر ونيوس لونجوس)

الناضوري : المرجع السابق ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٦ ، هـ جـ ويلز : معالم تاريخ الانسانية ص ٥٤٣ - ٥٤٤ ، وكذا

H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

D. Kegan, The Roman World, I, Macmillan, 1974, P. 83-86.

49) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116-117.

(Sempronius Longus) من صقلية ، وأن يتجه الى الشمال لمواجهة هانيبال •

وعلى أية حال ، فلقد استغرق هانيبال في عبور الالب خمسة أشهر من خريف عام ٢١٨ ق.م ، وقد وصل الى حوض نهر «البو» في ديسمبر من عام ٢١٨ ق.م ، وقد بالغت المؤلفات الكلاسيكية في المتاعب ، فضلا عن الخسائر التي تحملها هانيبال في عبور الالب ، حتى اعتبر هذا العبور من الاعمال العسكرية المفذة في التاريخ ، وعلى أية حال ، فلقد تجمعت القوات الرومية التي كانت تتبع القنصلين ، والفتى قيل أنها بلغت سبعين ألفا من المشاة ، وعددا كبيرا من الفرسان ، ثم سرعان ما التقى الجيشان — الرومي والقرطاجي — عند فرع نهر «البو» الشمالي في مكان يدعى (Ticinus) ، غير أن الروم سرعان ما انسحبوا الى رافد آخر يدعى «تريبيا» (Trebia) ، وقد أدرك هانيبال ، بفطنته العسكرية ، ما يدور بخلد عدوه من أن التعب — بعد عبور الالب — انما قد أخذ منه مأخذه ، وبالتالي فلن يبادره بالهجوم ، ولهذا فقد انسحبوا الى منطقة «تريبيا» ، حيث التقوا بمزيد من المؤن والامدادات التي أتت من روما في حين أن خطة هانيبال انما كانت تهدف الى متابعتهم الى «تريبيا» ومبادرتهم بهجوم سريع •

وهكذا تذهب بعض الروايات الى أن هانيبال انما قد قرر الهجوم في يوم عاصف من أيام ديسمبر ، ومن ثم فقد أيقظ جنوده في ساعة مبكرة ، عند طلوع الفجر الصادق ، ثم أعطاهم وجبة الافطار ، وأرسل فرقة صغيرة من الفرسان للتحرش بالعدو ، وقد كانت قيادة العدو في هذا اليوم للقنصل «لونجوس» ، والذي كان شديد الرغبة في معركة يجنى منها نصرا سريعا ، ومن ثم فقد قرر أن يخوض المعركة في الحال ، وحتى قبل أن يتناول جنوده افطارهم ، وهكذا ، ونتيجة لجوع الجنود الرومان ، وفيضان نهر تريبيا ، القارس البرد ، تمكن هانيبال من أن يحيط بهم عند خروجهم من الماء مباشرة ، بقوة ، تحت قيادة أخيه «ماجون» الذي كان يشبه الساعة في قتاله ، ومن البدهى أن معركة بدأت في هذه الظروف أن تنتهى بهزيمة ساحقة للروم ، قضى فيها على معظم الجيش الروماني

كما أسرف فيها الكثيرون ، وأسرع من ساعده الحظ فنجأ ، أسرع الى روما ينقلون أخبار هزيمة «ترايبيا» ، وكان عددهم يزيد عن عشرة آلاف^(٥٠).

على أن نتائج انتصار «ترايبيا» لم يكن مقصورا على انكسار الروماني فحسب ، وانما كان له نتائج أكثر أهمية وأشد خطورة ، ذلك أن أعداء الرومان لم يقتصروا وقت ذاك على القرطاجيين ، وانما كانت هناك أيضا العناصر الغالية التي كانت في انتظار الوقت المناسب للزحف على روما ، وانهاء السيادة الرومانية ، هذا الى جانب عناصر ايطالية أخرى ، كالسمنية في الجنوب ، كانت تريد التخلص من الزعامة الرومانية، وهكذا كان انتصار هانيبال في شمال ايطاليا حافزا على تشجيع هذه العناصر في اتجاهاتها ضد روما ، وربما تأييد هانيبال في عملياته العسكرية، وقد أدى ذلك كله الى نتيجتين هامتين ، الواحدة : أن هانيبال انما قد ضمن سلامة طرق المواصلات مع أسبانيا ، والاخرى : أن هؤلاء الخارجين على روما ، انما سوف يصبحون جنودا ، يحاربون معه ضد روما ، عدوهم المشترك *

وليس هناك من ريب في أن ذلك كله ، انما سوف يوضح ايجابية سياسة هانيبال في عملياته الحربية ضد الروم ، والتي كان يرمى من ورائها تحقيق الفرقة والانقسام داخل الوحدة الايطالية تحت زعامة روما ، وبالتالي يمكنه قهر روما بعد تفتيت وحدتها الداخلية ، وقد أكد هانيبال سياسته هذه بعقد اتفاقات تحالف مع العناصر الغالية ضد الروم ، وفي نفس الوقت عمد الى اطلاق سراح الاسرى ذوى الاصل الايطالي بعد انتصاراته ضد روما ، تشجيعا لهذه العناصر على الثورة والانفصال عن ساداتهم الرومان ، وان كانت هذه الخطة لم تأت بثمارها المرجوة على المدى البعيد ، وبالتالي فلم يحدث هذا الانفصال الذي كان هانيبال يعمل من أجله بين شعوب وولايات الوحدة الايطالية ضد روما^(٥١) .

(٥٠) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨ ، هـ ج .

ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٤ .
(٥١) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

وفي عام ٢١٧ قبل الميلاد ، أوقع هانيبال هزيمة أخرى بالرومان عند «تراسيمنوس» (ترازيمينوس) (Trasimenus) ، وذلك عندما حاول الرومان إيقاف الجيش القرطاجي ، فعينوا القنصلين الجديدين على الطريقين الرئيسيين المؤديين الى روما في الشمال ، أحدهما على الساحل الشرقي لاييطاليا ويسمى «فلامنيوس» (Flaminius) وقف عند (Ariminium) ، والآخر ويسمى «سرفيليوس» (Servilius) وقف عند (Arretium) على الساحل ، في وسط شبه الجزيرة على مقربة من «فلورنسا» ، غير أن هانيبال قد أفسد عليهم خططهم ، فلقد فاجأهم بأن اتخذ طريقا آخر غير مطروق فوق جبال «الابينيين» ، متجها نحو الغرب خلال المستنقعات ، شمالي نهر الارنو ، حيث خاض مع جنوده في وحل وماء لمدة أربعة أيام ، وكان هانيبال في هذه الرحلة قد فقد إحدى عينيه في بعض الحريق ، ومع ذلك فقد كتب له نجحا بعيد المدى في ملء قلوب جنوده ثقة بالنصر ، ودخول روما فاتحين منتصرين في يوم آت عن قريب .

وما أن يمضى حين من الدهر حتى يعلم هانيبال بأن «سرفيليوس» قد اتجه الى مساعدة «فلامينيوس» ، فاتجه الى ممر ضيق بمحاذاة الساحل الشمالي لبحيرة «ترازيمينوس» في اقليم اتروريا ، وانتهى الى سهل صغير تحيط به الجبال ، فالتخذ موقعه عند نهايته مع جنوده من الاسبان والافريقيين ، بينما رابطت قوات أخرى من الغاليين والفرسان والجنود الخفاف على شكل شبه دائرة في الجبال ، ورافقهم حسن الحظ بن دعم المنطقة ضباب كثيف ، أخفى هذه التنقلات عن أعين الرومان الذين قرروا الهجوم في يوم معين ، بجيش قوامه عشرون ألفا ، وبنفس طريقتهم التقليدية وهي الهجوم كقوة واحدة في شكل طابور ضخم ، من الممر الضيق ، المشار اليه آنفا ، الى السهل الذي وقف فيه هانيبال بقواه ، وحين بدأ الهجوم الفعلى تركهم هانيبال يتوغلون ويهاجمون الوسط ، فيما أخفى عنهم جنود الجبال ، حتى اذا ما أصبح الجيش الروماني في وسط السهل ، أصدر أمره بالهجوم من كل جانب ، وهكذا أحاط جيشه بالجيش الروماني من كل جانب ، وعجز الروم عن الحركة واستخدام أساليبهم بحرية ، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للروم ،

وقتل «فلامنيوس» وتدمير جيش «سرفيليوس» ، وأصبح الطريق الى روما مفتوحا أمام هانيبال عام ٢١٧ ق م •

وهكذا كان في استطاعة هانيبال الاتجاه مباشرة الى روما — كما نصحه بعض قواده — غير أن عدم وجود أدوات حصار المدن معه ، فضلا عن معرفته بمدى تحصين روما وأسوارها المنيعة ، جعلته انما يفكر في خطة أخرى لاسقاط روما ، وذلك بالاستيلاء على جميع أجزاء شبه الجزيرة الايطالية ، وفصل روما عن جميع حلفائها في الجنوب ، الامر الذي يضطرها أخيرا الى التسليم •

وأما في روما ، فلقد تركت هزيمة «ترازيمينوس» أثرا سيئا عند القوم ، ومن ثم فقد قرروا تعيين دكتاتور هو «فابيوس مكسيموس» (Quintus Fabius Maximus) ، ولم يحاول هذا الدكتاتور مقابلة هانيبال في معركة كبيرة خشية أن يمنى بهزيمة جديدة ، وانما عول على مهاجمة جيوش هانيبال ومواقعه بقوات صغيرة ، والحاق أكبر الاذى بها كلما أمكن ذلك ، وبذا اكتسب هذا الدكتاتور الذي عين في عام ٢١٦ ق م ، لقب «المعطل» (Cunctator) ، غير أن الرومان سرعان ما ضاقوا بخطة «فابيوس» هذه ، ومن ثم لما أن مضت ستة شهور حتى عادوا مرة أخرى الى النظام القنصلي ، واختاروا القنصلين «فارو» (C. T. Varro) و «پاولوس» (A. Paullus) ووضعوا تحت أيديهما أكبر قوة عسكرية جهزتها روما ، (حوالي ٨٠ ألف) ، حيث التقت بجيش هانيبال (حوالي ٥٠ ألف) في موقع «كناي» (Cannae) على نهر «أفيدوس» في عام ٢١٦ قبل الميلاد •

وتولى «فارو» قيادة القوات الرومية ، واتبع الخطة القديمة في تنظيم جيشه في شكل طابور ضخم على أمل أن يحقق النصر بهجوم قوى ، غير أن هانيبال بما عرف عنه من مهارة حربية ، قد أقام أمام هذه القوات الرومية الضخمة مجموعة من الغالين والاسبان ، أخذت تتقهر تدريجيا أمام هجمات فارو ، حتى حوصرت أمام القوات المليرية من الجانبين ، وهنا أصدر هانيبال أوامره بالهجوم ، فأرسل الى عدوه عاصفة

من الفرسان ، أعقبها هجوم المشاة من كل جانب ، وهكذا نجح هانيبال في شل حركة الروم تماما حتى وقعوا — كما تذكر الروايات — في هذه المعركة كقطيع من الغنم ، وأن خمسين ألفا قتلوا في هذه المعركة ، وأن عشرة آلاف رجل أخذوا أسرى ، بينما فر الباقون مع «هارو» ، بما فيهم القنصل الثاني «باولوس» ، ومعهم ثمانون عضوا من أعضاء مجلس السيناتو ، ومع ذلك فإن «هانيبال» لم يستطع أن يواصل الزحف الى روما ، ويستولى عليها ، لأنه لم يكن يملك أدوات المحصار .

على أن هزيمة «كناي» (كاناي) في عام ٢١٦ ق.م ، انما كانت ، فيما يرى البعض ، أكبر وأعنف معركة عرفها التاريخ القديم ، فلقد غيرت هزيمة الروم فيها وجه الحرب ، حتى أن قسما كبيرا من جنوب ايطاليا قد انحاز الى هانيبال ، بما في ذلك «كابو» (Capua) — أكبر مدن ايطاليا بعد روما — وفي نفس الوقت عقد «فيلب الخامس» (٢٢١ — ١٧٩ ق.م) ملك مقدونيا محالفة مع هانيبال ، ذلك لان روما انما كانت بدأت تتدخل في شبه الجزيرة اليونانية ، الامر الذي اعتبره فيلب الخامس عدوانا على سيادته هناك ، غير أن روما — خشية اشتراك فيلب في الحرب ضدها مع هانيبال — سرعان ما أثارت عليه القلاقل ، وورطته فيما عرف «بالحرب المقدونية الاولى» (٢١٥ — ٢٠٦ ق.م) ، ضد ثلاثة من القوى اليونانية في شمال غرب اسيا الصغرى ، انتهت بهزيمته وعقد صلح، وأما سرقوسة فلقد مات ملكها «هيرون» — حليف روما المخلص — ومن ثم فقد انضم خلفه المدعو «هيروثيموس» الى القرطاجيين (٥٢) .

وهكذا مرت روما بفترة من أحلك سنوات تاريخها ، حتى سقطها أمام غزوات المتبربرين ، ومع ذلك ، فلقد واصل الرومان الحرب بعزم أكيد ، وربما ساعدهم على ذلك ما أصاب قوات هانيبال من ضعف ونقصان

(٥٢) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤٩ — ٥٣ ، رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٦٢ — ٢٦٣ ، ه. ج. ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٤ — ٥٤٥ ، عبد اللطيف أحمد علي : المرجع السابق ص ١٢٥ — ١٢٦ ، ب. ه. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ .

نتيجة المعارك المتتالية ، كما أن امداداته الاسبانية كانت أقل من أن تنفي باحتياجاته ، هذا الى أن اعراضه عن حصار روما ، وعمله على ثورة حلفائها ، انما فرض عليه موقفا جديدا لم يألفه من قبل ، وهو تقسيم جيشه بين هذه المدن المختلفة ضد أى اعتداء روماني ، وهكذا لم تتح لهانيبال فرصة التحكم في جيش قوى أو الانتصار في معركة كبيرة .

وهكذا بدأت رياح الحرب تتغير بعض الشيء ، واتجه جيش روماني الى سرقوسة ، ومن المعروف أن حصار سرقوسة مشهور بصفة خاصة بالمخترعات الرائعة التي استحدثها الفيلسوف «أرشميدس» (٢٨٢ - ٢١٢ ق م) ، والتي أوقفت الروم موقف الحرج ، وصدتهم طويلا ، غير أن «مرسليوس» (Marcellus) تمكن آخر الامر من اخضاعها في عام ٢١٢ ق م وانطلق المنتصرون في المدينة يسلبون وينهبون ، حتى لم يبقوا فيها على شيء ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة ، ويقول ليفي ان «مرسليوس» نقل الى روما ما كانت تزدان به سرقوسة من تماثيل كانت غاصة بها ، وقد بلغت الغنائم حدا ، أكثر مما كان يحصل عليه ، لو أن قرطاج نفسها هي التي فتحت» .

واتجه الرومان بعد ذلك الى «كابو» ، على مقربة من نابولي ، فاحتلوها عام ٢١١ ق م ، ثم تلاها سقوط «تارنيم» في عام ٢٠٩ ق م — وهي مرفأ هانيبال الرئيسي ، وسبيل تموينه من قرطاج — ثم سرعان ما بدأت أسبانيا تنتزع من أيدي القرطاجيين جزءا فجزءا ، حيث نجح «سكيبيو الافريقى» (Scipie Africanus) في الاستيلاء على «قرطاجنة» (قرطاج الجديدة) وهي قاعدة القرطاجيين الرئيسية في أسبانيا .

وهكذا ازداد موقف هانيبال حرجا ، فلا هو بقادر على الاستيلاء على روما — رغم أنه كان على مبعدة ثلاثة أميال منها — ولا هو قد وصلته الامدادات التي طلبها من قرطاج ، من ذخيرة ومؤون ، وهنا بدأ أخوه «هاسدروبال» (وهو غير صهره هاسدروبال الذي أغتيل في عام ٢٢١ ق م) يشعر بمدى صعوبة موقفه الحرج ، خاصة وأن الرومان قد أفسدوا

عليه القاعدة الاسبانية ، وأن مجلس الشيوخ في قرطاج يقف منه موقفًا سلبيًا ، ومن ثم فقد قرر أن يجمع أكبر قوة ممكنة ، ويذهب بنفسه الى ايطاليا ليوقف الى جانب أخيه في هذه المحنة القاسية فربما اجتماع قوتيهما قد يمكن هانيبال من تغيير الموقف ، وما أن بلغت روما هذه الأنباء ، — عن طريق رسول هاسدروبال الى هانيبال الذي وقّع أسيرا في أيدي الروم — حتى حشدت قوة كبيرة التفتت بجيش هاسدروبال عند نهر «ميتاورس» (Metaurus) في عام ٢٠٧ ق م ، وتمكنت من الانتصار عليه ، وكانت أول أخبار وصلت الى هانيبال عن الكارثة الجديدة ، هي رأس أخيه المفصول عن جسده ، يلقي في معسكره .

ومع ذلك ، شلقد صمد البطل القرطاجي بعد ذلك عامين آخرين ، اضطر بعدهما — وقد يئس تماما من وصول الامدادات من قرطاج، وبعد أن أمضى خمسة عشر عاما دون هزيمة واحدة ، وبعد أن استولى على ايطاليا ، ودمر أكثر من ٤٠٠ مدينة — اضطر أن يستجيب لدعوة قرطاج بالعودة اليها ، لكي يتولى قيادة أبناء وطنه في اخر معارك هذه الحرب الضروس ، خاصة وكان قد حصر من قبل في «كالابريا» (Calabria) في وقت لم تكن لديه أية قوات للقيام بعمليات حربية ذات جرم كبير (٥٣) .

وفي نفس الوقت كان «كورنيليوس سكيبيو» (P. Cornelius Scipio) (سكيبيو الافريقي) قد نجح في كسب أسبانيا لروما في عام ٢٠٦ ق م ، وعندئذ استعدت روما للهجوم على افريقيا، وقد ساعد على ذلك الأوضاع السيئة في نوميديا ، حيث تعرضت قبائلها الاصلية لتيار الحضارة القرطاجية عدة قرون ، وقامت فيها وحدات سياسية أكثر من ذي قبل ، وزاد التحاق رجالها بالخدمة في حروب قرطاج المتلاحقة من قوتهم

(٥٣) ول ديورانت : قصة الحضارة — حياة اليونان ص ١٩٥ ، ج ٠ ويلز : المرجع السابق ص ٥٢٥ - ٥٢٦ ، وكذا

B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 180-182.

وتجربتهم ، وكان «سيفاكس» Syphax ، زعيم أكبر قبيلة. نوميديّة
— قبيلة الماسيسوليين (Masaesyli) — التي يمتد اقليمها من
«أمبساغا» (Ampsaga) (الوادي الكبير) في الشرق الى «مولوكا»
(Mulucha) (نهر ملوية) في الغرب ، قد تخطى عن قرطاج في عام
٢١٣ ق.م ، ولكنه عاد اليها مرة أخرى في عام ٢٠٨ ق.م ، عندما تزوج
من «صوفونسيه» (Sophonisbe) أو «صفان بعل» بنت «هاسدروبال»
بن «جزجو» ، أحد زعماء قرطاج .

على أن «جايّا» (Gaia) زعيم الماسوليين (Massyli) — وتقع بين
الماسيسوليين والاراضي القرطاجية ، انما ظل مخلصا لقرطاج خلال فترة
انشقاق «سيفاكس» ، وقدم ولده «ماسينييسا» (Massinissa) خدمات
جليلة في أسبانيا (٥٤) .

وكان «ماسينييسا» هذا من أهم الشخصيات البربرية التي نجحت في
تحقيق الكيان البربري المستقل في المغرب ، كما تمكن من توسيع أرجاء
ملكته ، حتى شملت المنطقة الداخلية الممتدة من ليبيا حتى المحيط
الاطلسي في أوج سيادتها ، متضمنة نوميديّة الشرقية والغربية (ماسيلة
ومازييسيلة) ، وقد دعم سياسته هذه بحضارة بربرية ، ذات تأثيرات
قرطاجية ، كاللغة البونية والخط البونى الجديد ، فضلا عن بعض
التأثيرات الدينية ، ذات الاصل القرطاجي اليوناني ، مما ساعد على أن
تخطو هذه المنطقة من الحياة القبلية الى الحياة الحضرية (٥٥) .

على أن «ماسينييسا» سرعان ما انضم الى الرومان ، فسالم «سكيبيو
الافريقي» وساعده في تنفيذ خطته العسكرية في الجبهة الافريقية في ربيع

(٥٤) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ ، رشيد
الناضوري : المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٥٥) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، وكذا
B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 187-188.

وانظر : أحمد صقر : مدينة المغرب العربي في التاريخ - القاهرة
١٩٥٩ ص ٢٣٠ .

عام ٢٠٤ ق م ، عندما أنزل قواته في منطقة «أوتيكا» كما قام بدور هام في الانتصارات الاولى في عام ٢٠٣ ق م ، قبل استدعاء «هانيبال» نائيا من ايطاليا ، بل ان «ماسينيسا» سرعان ما تقدم ، على رأس قواته البربرية ، نحو القرطاجيين وحلفائهم من بربر سفاكس ، حتى تمكن من الايقاع بسفاكس والانتقام منه ، ومن زوجته القرطاجية «صوفونيسيه» أو «صافان بعل» ، غير أن المرأة القرطاجية سرعان ما ثارت لكرامتها وكرامة قومها ، فأنتهت حياتها بنفسها ، على أن تعيش مع بربر ماسينيسا أو الرومان من أعداء قومها .

غير أن الامور في الشمال الافريقي سرعان ما جرت بأحدث ما تصور الناس ، فما أن وصل هانيبال الى قرطاج ، حتى بدت بوادر السلام ، وانهاء هذه الحرب عن طريق التفاوض بين المتحاربين ، غير أن شروط الروم لانهاء الحرب انما كانت تهدف لانهاء السيادة القرطاجية في حوض البحر المتوسط ، فضلا عن المجال المغربي ، وبصورة مهينة للقرطاجيين ، الامر الذي عجل بمعركة «زاما» (Zama) أو جامة (السبع بيار - على مقربة من قرطاج نفسها ، في عام ٢٠٢ قبل الميلاد (وهي ساقية سيدى يوسف على مقربة من ناراجرا (Naraggara) فيما يرى وارمنجتون وهي قرب الضريح القائم بقصر طوال الزمامل ، وفي أعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماحبوح شمالا ، والجبال الملاصقة لصرد مكث من جهته الشمالية جنوبا ، والذي يصل فيما بين سهل سليانة وسهل السرس ، فيما يرى أحمد صقر) وقد ساهم في معركة «زاما» هذه «ماسينيسا» بأربعة آلاف فارس ، فأكسب ذلك الروم ولأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال في الفرسان ، ففترحزح جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما ، على حين استطاع مشاة «سكيبيو الافريقي» بما لهم من نظام أصلب وأسلم ، أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية ، دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة .

وحاول هانيبال أن يمد خط مشاته لكي يحيطوا بكتلة المشاة الرومية ، بيد أنه كان لجنوده في معركة «كاني» (في عام ٢١٦ ق م) كل مميزات

التفوق في التدريب ، وكانت القدرة على الداورة هناك تبعاً لذلك في جانبه ، فاستطاع آنذاك أن يحيط بحشد من المشاة ، وأن يعمل فيهم السيف ذبها وتقتيلاً ، فانه وجد الان أمامه خط مشاة للعدو ، يفوق خط مشاته صلابة وقوة ، فانقطع خطه أثناء امتداده ، وهجمت الكتائب الرومانية في الصميم ، وخسر هانيبال يومه ، وعاد الفرسان الرومانيون من ملاحقة جواد هانيبال ، لكي يحيلوا الهزيمة التي منى بها القرطاجيون بالفعل الى كارثة تشتتت مروعة .

وهكذا خضعت قرطاج وسلمت دون مزيد من كفاح ، وكانت الشروط قاسية ، بيد أنها تركت لها المجال في أن تأمل في مستقبل كريم، فأجبرت عن التخلي عن أسبانيا لروما ، وأن تتنازل عن أسطولها الحربي، الا عشر سفائن ، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم ، وأن تتخلي عن سلاح الفيلة ، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطبة ، وبه توافق قرطاج على أن لا تخوض غمار حرب ، دون اذن من روما ، ثم أضيف آخر الامر شرط يقضى بتسليم هانيبال - عدو روما اللدود - بيد أن البطل القرطاجي كفى مواطنيه هذا الاذلال ، بأن فر الى آسيا ، وعندما أبرمت روما الصلح مع «أنطيوخس الثالث» (٢٤١ - ١٨٧ ق م) بعد هزيمته في «مجنيزيا» (مجنيسيا Magnesia) في غام ١٩٠ ق م ، كان تسليم هانيبال أحد شروط هذا الصلح ، وسرعان ما قبض عليه في «بيثينيا» في مخبأ له ، فاعتقله ملكها لكي يرسله الى الروم ، بيد أن هانيبال انما كان يحمل منذ أمد طويل في خاتمه السم اللازم له ، وبه قضى على نفسه في عام ١٨٣ قبل الميلاد ، وأما «سكيو» فقد عاد الى روما ، وأقيمت له مواكب النصر ، ومنح لقب «الافريقي» ، وأصبح يعرف باسم «سكيبو الافريقي» (Scipie Africanus) ، تخليداً لانتصاره على هانيبال (٥٦) .

(٥٦) هـ ج . ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٩ - ٥٥٠ ، أحمد صقر : المرجع السابق ص ٢٣١ ، رشيد الناضوري : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ - ٢٧٥ ، عبد اللطيف أحمد علي : المرجع السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٩ ، مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ . وكذا
H. G. Wells, Op. Cit., P. 117.
B. H. Warmington, Op. Cit., P. 190-191.

(٥) الحرب البوننية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) :

كانت شروط الصلح - بعد هزيمة زاما في عام ٢٠٢ ق.م - شديدة الوطأة على قرطاج ، وقد استغلتها روما في فرض سيادتها الكاملة على أسبانيا ، ثم راحت - في نفس الوقت - تبسط سلطانها على بلاد الاغريق المضطربة ، والمنقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى ، وتهزم أنطيوخس الثالث ، الملك السلوقي في «مجنيسيا» في عام ١٩٠ ق.م ، في ليديا ، كما أشرنا من قبل ، ثم جاء دور «برجامة» ومعظم الولايات الصغيرة في آسيا الصغرى ، فحولتها روما الى حلفاء لها ، أو «دولة محمية» Protected States (٥٧) .

وفي نفس الوقت ، فلقد استغل «ماسينيسا» ، حليف روما ، ذلك الشرط الجائر الذي يقضى بتقييد حرية قرطاج العسكرية ، وألا تشن حربا - داخل أو خارج أفريقيا - الا باذن من روما ، في توسيع رقعة بلاده ، على حساب جارتها المهزومة قرطاج ، وكثيرا ما هاجم الاراضي القرطاجية بهذه الدعوى ، وفي كل مرة كانت قرطاج لا تستطيع رد العدوان ، وكل ما كان في امكانها أن تتقدم بشكوى الى مجلس السيناتو في روما ، الذي كان يجد عادة ما يبرر به اعتداءات ماسينيسا .

على أن هذا لا يمنع من القول بأن «ماسينيسا» (Masinissa) - فيما يرى البعض - انما كان شخصية قوية البنيان ، جمة النشاط ، متعددة المواهب ، وقد تلقى تعليمه في قرطاج ، وقدر - تقديرا سليما - أهمية الافادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية في اقليمه الخاص (مملكة نوميديا) ، وفي الواقع ، فلقد كانت شخصيته في مستقبل الايام ، أكبر من كونه رجلا خرج على قومه ، ليعمل في صفوف أعدائهم الرومان ، وهكذا بدأ منذ عام ٢٠٦ ق.م ، يعقد أواصر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان ، وقد كوفيء بعد معركة «زاما» في عام ٢٠٢ ق.م

(٥٧) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ص ١٢٩ ، وكذلك H. G. Wells, Op. Cit., P. 117.

بالاجزاء الشرقية ، والتي تمثل أخصب أراضى «سيفاكس» وهكذا امتد حكمه من «قسنطينة» (قرطه Cirta) فى منطقة تمتد الى الغرب من هذه المدينة ، وحتى الحدود القرطاجية الجديدة — فى نفس الوقت الذى تركت فيه المنطقة الاقل تقدما بين مملكة ماسينيسا وحتى وادى ملوية ، لابن سيفاكس — •

هذا ويذهب بعض الكتاب القدامى الى أن «ماسينيسا» انما قد زاد الانتاج الزراعى فى نوميديا زيادة كبيرة ، حتى أن «سترابو» انما يحاول أن يوهمنا أنه قد حصل الرعاة الى مزارعين ، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة ، فالذى لا شك فيه أن هناك زيادة فعلية فى المنطقة المزروعة بالحبوب ، حتى أصبح هناك فائض للتصدير ، وان ظلت المائتية سائدة دونما ريب ، كما أن هذا ييشتر ، دونما ريب أيضا ، بمزيد من التطوير الزراعى فى العصر الرومانى ، ورغم أن التجارة كانت محدودة ، فلقد سككت العملة من البرونز والنحاس •

هذا وقد أصبحت «قرطه» (قسنطينة) عاصمة «ماسينيسا» مدينة حقيقية ، وان كان تقدير عدد السكان بمائتى ألف نسمة فى عهد ابن ماسينيسا ، مبالغ فيه كثيرا ، ورغم أننا لا نعرف عن آثارها الكثير، فان شكلها العمرانى انما كان قرطاجيا صميما ، وقد عثر فيها على لوحات حجرية بونية ، أكثر مما عثر عليه فى أى موقع أفريقى آخر — عدا قرطاج نفسها — كما أن لغة قرطاج انما قد استخدمت بشكل متزايد فى نوميديا وموريتانيا •

وعلى أية حال ، فلقد ظل «ماسينيسا» ، وعلى مدى نصف قرن من الزمان ، يمارس ضغطا متزايدا لانتزاع أراضى قرطاج ، وربما ساوره أمل فى أن تكون قرطاج نفسها فى النهاية من نصيبه بموافقة الرومان ، وعلى أية حال ، فلقد ظلت مكاسب «ماسينيسا» حتى عام ١٧٠ ق.م ، صغيرة فى الأرض ، غير أن روما انما بدأت منذ عام ١٦٧ ق.م ، تنتهج سياسة تتسم بالخشونة والقسوة ، سواء أكان ذلك فى افريقيا ، أو فى

خارجها ، مع استمرار تعاطفها مع ماسينييسا الذى يغذى شكوكها نحو قرطاج^(٥٨) ، وفى كل هذا لم تكن قرطاج تملك غير الشكوى لمجلس السيناتو فى روما ، وكانت روما — كالعادة — ترد بارسال وفد من مجلس السيناتو Senato للتحقيق فى الامر .

على أن روما انما قد أرسلت فى احدى المرات «ماركوس بوركيوس كاتو» (Delenda est Carthago) (٢٣٤ — ١٣٩ ق م) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاج ، وكان «ماركوس بوركيوس كاتو» هذا ، محاربا قديما ، وسياسيا ضيق النظر ، وقد شاهد برأس عينيه أن قرطاج انما قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها ورخائها ، فهاله ذلك ، بل أرعبه ما فى قرطاج من بعض دلالات الرخاء ، بل وامارات السعادة ، ومنذ تلك الزيارة أصبح «كاتو» هذا ، يختتم كل خطاب يلقيه فى مجلس السيناتو، بأن ينطق قائلا : «يجب أن تدمر قرطاج» (Delenda est Carthago) ^(٥٩) .

ورغم أن قرطاج قد نهضت بالفعل من كبوتها بعد الحرب البونيقية الثانية على نحو مثير للدهشة ، فان الزعم بأنها باتت تشكل تهديدا لروما مرة ثانية ، انما هو زعم سخيف وباطل . وعلى أية حال ، فلقد أصبح «كاتو» بمرور الزمن يمثل مجموعة من أعضاء السيناتو يعمدون فى السياسة ، ثم تمكن من اقناع أعضاء السيناتو بتكوين حملة فى عام ١٥١ ق م ، لمحاربة قرطاج ، عقابا لها على خلافها مع نوميديا ، بل وقد أعلنت الحرب عليها ، وبالتالي فهي قد خرقت المعاهدة التى تحرم عليها دخول حرب ، دون اذن من روما .

وحاولت قرطاج ، ما استطاعت الى ذلك من سبيل ، أن تتجنب دخول روما فى النزاع القائم بينها وبين البربر ، غير أن روما انما كانت قد عقدت العزم على التدخل ، مهما كانت الظروف ، وهكذا هوجئت قرطاج

(٥٨) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

(٥٩) هـ . ج . ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٢ ، وكذا

B. H. Warmington, Op. Cit., P. 202.

بحملة رومانية ، دون أن تستعد لها ، ومن ثم فقد قرر الزعماء القرطاجيون تجنب الحرب ، فأرسلوا الرهائن التي طلبها الرومان — ثلاثمائة طفل من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي — كما سلموا أسلحتهم ، بل واستعدوا كذلك لتسليم بعض أراضي بلادهم ، على أن هذا الخضوع القرطاجي لم يكن ليزيد روما ، الا تجبرا وعتوا ، ولم يكن ليزيد طبقة الفوارس الرومية الغنية ، الا شراة وجشعا ، وهم الذين لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا ، والذين كانوا متسلطين على أداة المحكم في روما ، ومن ثم فقد طلعت روما أن يخرج أهالي قرطاج من ديارهم ، وأن يرحل السكان الى بقعة تبعد عن البحر مسافة لا تقل عن عشرة أميال ، حتى يتمكن الروم من تدمير المدينة ، ومن الغريب أن يكون هذا المطلب من قوم يكادون يعتمدون اعتمادا كليا في معاشهم على التجارة ، فيما وراء البحار •

وهكذا كان على القرطاجيين أن يختاروا بين هجر مدينتهم والنزوح الى الداخل ، وبين مواجهة الحرب بكل آثارها ، وعندما اضطروا الى اختيار الامر الثاني ، أرسل الروم في عام ١٤٩ قبل الميلاد ، جيشا الى افريقيا ، وهكذا بدأت الحرب البونية الثالثة (١٤٩ — ١٤٦ ق م) ، والتي كافح القرطاجيون فيها عن وطنهم وكرامتهم ، فضلا عن حياتهم ومصيرهم ، كفاحا بطوليا منقطع النظير ، وهكذا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد سلموا أسلحتهم للروم ، فانهم سرعان ما بذلوا جهدهم أضعافا مضاعفة ، لاعادة بناء طاقتهم الحربية مرة أخرى ، وبطريقة فريدة ، وصل البذل فيها الى درجة أن النساء قدمن شعورهن لكي تستخدم كحبال في بعض مستلزمات الاسلحة ، وحتى أن القوم قد حولوا كل معبد ، وكل حانوت الى مصنع الاسلحة وأدوات الحرب (٦٠) •

ولعل من الالهية بمكان الاشارة هنا الى أمرين ، الواحد انقسام

(٦٠) ب. ه. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧١ ، هيربرت ويلز : المرجع السابق ص ٥٥٥ — ٥٥٦ ، وكذلك
B. H. Warmington, Carthage, London, 1961, P. 202-205.

المستوطنات الفينيقية والقرطاجية القديمة في الحرب البونية الثالثة الى فريقين ، أحدهما ، يؤيد قرطاج ، وتترجمه «بنزرت» ، وثانيهما ، وهو الأكثر ، يؤيد الروم ، وأهمها «(أوثيكا)» و «(سوسة)» (هادوميتوم) و «(رأس ديماس)» (تابسوس) وغيرها ، وقد نجت بذلك من التدمير المحتم .

وأما ثاني الامرين : فهو موت «(ماسينيسا)» في عام ١٤٨ ق.م. أثناء الحرب البونية الثالثة ، الامر الذي أدى الى عودة البربر الى الفقرة السياسية مرة أخرى ، بعد أن نجح «(ماسينيسا)» الى حد كبير في جمع شملهم ، فضلا عن الخلافات الاسرية بين أبناء «(ماسينيسا)» الثلاثة (ميسبسسا ومستعنجل وغولوسة) ، فيمين يخلف الأب على عرش نوميديا ، ولعل في تدخل القائد الروماني «(سكيبو)» في هذه الشئون الداخلية ، بل في شئون الاسرة البربرية ، ما يدل على وثاققة العلاقات بين الروم والقرطاجيين ، وعلى أية حال ، فلقد انفرد «(ميسبسسا)» (Micipsa) الاخ الاكبر ، بعرش نوميديا في الفترة (١٤٨ - ١١٨ ق.م) كما صاحب الاخ الثالث (غولوسة) القائد الروماني في حملته على قرطاج .

وهكذا انتهت مشكلة «(نوميديا)» بانضمامها نهائيا مع الروم ضد قرطاج ، غير أن قبائل البربر الموريتانية انما قد انضمت الى قرطاج ضد روما وبربر نوميديا ، الامر الذي يؤكد أنه — على الرغم من نجاح الرومان في توطيد صلاتهم بالبربر ، وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين ، على الاقل في المجال الحربي — فان هناك فريقا من البربر مايزال في جانب القرطاجيين ، هذا فضلا عن تقبل البربر للتراث القرطاجي — الادبي والديني — والذي يتمثل في استمرار اللغة البونية الجديدة ، بعد اندحار القرطاجيين في أعقاب الحرب البونية الثالثة — الى جانب التأثير الكبير بالعقيدة القرطاجية (٦١) .

وعلى أية حال ، فلقد قاومت القوات القرطاجية، بقيادة «(هزدروبال)»،

(٦١) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

الحصار الرومانى بقيادة «سكيبيو» ، حتى كادت الهجمات على المدينة في عام ١٤٩ ق.م ، أن تبوء بكارثة على الروم ، وقد ساعد قرطاج على المقاومة عوامل كثيرة ، منها (أولا) صلابة القرطاجيين واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم قرطاج ، ومنها (ثانيا) شدة التحصينات المحيطة بالعاصمة القرطاجية ، كالخنادق والحيطان القوية التي كانت تستخدم كحواجز دفاعية ، ومنها (ثالثا) وجود منفذ بحرى تستطيع قرطاج بواسطته الحصول على المؤن ، فضلا عن الامدادات الحربية ، وبالتالي مواصلة المقاومة ضد الغزاة .

على أن ذلك كله ، لم يحل دون افتتاح الرومان لأحد أبواب قرطاج ، والنفوذ منه الى داخل المدينة ، وبالتالي فقد تمكنوا من احداث أولى الثغرات في نطاق التحصينات القرطاجية ، مما أدى آخر الامر ، الى تحكمهم في المدينة ، فضلا عن التحكم في المنفذ البحرى عن طريق بناء جسر عبر ميناء قرطاج ، قطع عنها كل مدد برى وبحرى ، غير أن القرطاجيين سرعان ما شقوا منفذا الى البحر لكى يستخدم عوضا عن المرسى الذى تحكم فيه الرومان ، كما استغل القرطاجيون كل امكاناتهم المادية والبشرية — رجالا ونساء — لاستعادة قواتهم البحرية، مستخدمين نجاحهم في شق هذا المنفذ أو المخرج الجديد، لاعادة مواصلاتهم البحرية مرة أخرى ، ولكن سرعان ما تنبه الروم الى خطة القرطاجيين الجديدة، فقاموا بمهاجمتها ، وسد جميع منافذ المدينة المؤدية الى الخارج .

وهكذا قطع الرومان عن قرطاج كل مدد ، برى وبحرى ، فقاسى القرطاجيون من الجوع آلاما ذريعة بهيد أنهم صمدوا حتى فتحت المدينة عنوة ، وكانوا أثناء هذا الحصار الأليم يدافعون عن مدينتهم من منازلهم ومن قلعة «برصة» (Byrsa) ، واستمر القتال في الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا شرسا تميز بالقسوة المتناهية من كلا الطرفين ، فكان كل منهما يدافع عن مصيره ، فلقد استخدم الروم الخنادق والحيطان وأبراجها واشعال النيران في العمليات الحربية ضد قرطاج ، ومع ذلك، فلقد ضرب القرطاجيون أروع الامثال في الشجاعة والمحفاظ على الكرامة ، وعدم

الخنوع للروم مهما كان الثمن غاليا ، ومثال ذلك ، موقف زوج القائد القرطاجي «هزروبال» التي لم تقبل تصرف زوجها في اضطراره للاستسلام للقائد الروماني «سكيو» ، وفضلت الانتحار مع أولادها في وسط النيران المشتعلة ، على الحياة الذليلة في كنف الغزاة الرومان *

وأخيرا فتحت قرطاج في عام ١٤٦ قبل الميلاد عنوة ، وعندما استسلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالي قرطاج ، البالغ عددهم ربع مليون ، سوى خمسين ألفا تقريبا ، فبيعوا ببيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميرا تاما ، وسير المحراث في أنقاضها المسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور لتكون شاهدا على محوها رسميا (٦٢) *

ولعل من الأهمية بمكان أن المؤرخين انما يسجلون أن «سكييو» — بعد تدمير قرطاج — ألقي نظرة على المدينة التي ازدهرت أكثر من سبعمائة عام منذ انشائها (١٤٠ ق.م) والتي حكمت مناطق كثيرة — جزرا وبحارا — وكانت ثرية السلاح والاساطيل والفيلة والمال ، مثل الامبراطوريات العظمى ، بل لقد فاقتهم في الاقدام والشجاعة الفائقة ، فرغم أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها ، فقد صمدت لحصار شديد ، ومجاعة قاسية لمدة ثلاث سنوات (١٤٩ — ١٤٦ ق.م) ووصلت الان الى نهايتها بالتدمير الكلى ، ويقال ان سكييو بعد ذلك قد بكى ، ورثا مصير عدوه ، وأنه تذكر الحقيقة الخالدة التي تقضى بأن الافراد والمدن والأمم والامبراطوريات لها نهاياتها المحتومة ، كان ذلك نهاية طروادة ، كما كان نهايات الامبراطوريات : المصرية والاشورية والميدية والفارسية والمقدونية وأنه قد أشار — عمدا أو بدون قصد — الى كلمات «هكتور من هومر» : أنه سيأتى اليوم الذى ستسقط فيه طروادة المقدسة ، وكذلك الملك بريام ، وجميع رجاله المسلحين معه ، وعندما سأله المؤرخ الاغريقى «بوليبىوس» (Polybius) (٢٠٣ — ١٢٠ ق.م) ، والذي كان

(٦٢) هيربرت ويلز : المرجع السابق ص ٥٥٦ — ٥٥٧ ، رشيد الناصورى : المرجع السابق ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، وكذا
H. G. Wells, Op. Cit., P. 117-118.

معه ، ماذا يقصد ؟ التفت اليه قائلاً : هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس ، ولكن الخوف يملككنى من أن نفس المصير سيأتى لوطنى فى يوم من الايام» (٦٣) .

وهكذا انتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة «قرطاج» ، ومن ثم فقد توقفت هذه القوة السياسية الهامة فى المغرب ، وحوض البحر المتوسط ، وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة ، فضلا عن مناطق حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية جميعها (٦٤) .

(٦) التراث الفينيقي فى المغرب :

كان العنصر الفينيقي ، دونما ريب ، هو العنصر السائد ثقافيا فى المغرب ، رغم أنه كان — بطبيعة الحال — انما يمثل فقط اقلية من السكان عامة ، وقد حدث التطور الزراعى فى نوميديا — كما أشرنا من قبل — فى مساحات أكثر بعدا ، حيث كانت الظروف الجغرافية فيها ملائمة ، ولم يمتد التطور المدنى بعيدا خارج العاصمة «قسنطينة» (قرطة — Cirta) ، وفيما بعد «قيصرية» (ايدل) ، ولكنه كان فى بعض المناطق كافيا لتمهيد الطريق لامتداد أكبر فى العصر الرومانى ، وليس أدل على قوة تأثير الثقافة المزدوجة من أن استخدام «البونية الجديدة» فى النقوش قد استمر حتى القرن الثانى الميلادى ، وأنه طوال نفس الفترة انما ظل لقب «شفيط» (Sufet) — وهو الاصطلاح السياسى القرطاجى الذى نقله لنا الكتاب الرومان — مستخدما على الاقل فى ثلاثين مدينة مختلفة من أقصى المنطقة الى أقصاها — من «لوليلى» فى غربى مراكش . الى «لبدة» فى ليبيا — هذا فضلا عن أن العقيدة الفينيقية الليبية فى العصر الرومانى ، انما كانت قوية ، وأن آثارها انما كانت بعيدة المدى .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك قدرا من الوحدة الثقافية

63) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 202-203.

(٦٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

الظاهرية في كل أنحاء المغرب ، يؤكد هذا الخط الليبي المبهم ، وقد ظهر هذا الخط في القرن الثاني قبل الميلاد ، عندما استخدم في نقشين في «دجة» (Deugga) ، ثم استخدم بعد ذلك في العصر الروماني على لوحات — ربما تقليدا للعادة البونية — وقد عثر على عدد من هذه اللوحات في مراكش ، وعلى الحدود الجزائرية التونسية وفي ليبيا ، وقد استسلمت كل من الليبية والبنوة الجديدة — كلغتي كتابة — للغة اللاتينية في العصر الروماني، واستخدمت صيغة من البونية في الحديث ظلت واسعة الانتشار في العصر الروماني المتأخر ، لكن من الصعب أن نحدد وضع الليبية ومدى انتشارها ، كلغة تخاطب ، وقد فشلت محاولة تفسير تشابه الخط الليبي، مع ذلك الخط الذي يستخدمه الطوارق في الأزمنة الحديثة •

هذا وكان تأسيس المستوطنات الفينيقية في المغرب ، انما يشكل — من وجهة النظر التاريخية — التوسع الوحيد في منطقة غربى البحر المتوسط لحضارات الشرق الأدنى القديم ، والتي عمرت قرطاج بعدها جميعا ، وكان هذا — مع انتشار الاغريق في الغرب — جزءا من حركة أدخلت كل غربى البحر المتوسط ، وإلى حد ما شمال غربى أوروبا — الذى كانت تسكنه حتى ذلك الوقت شعوب قبلية متباينة — داخل التأثير الحضارى لبحر ايجيه والشرق •

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب في أن الفترة الفينيقية أدخلت المغرب في إطار التاريخ العام لعالم البحر المتوسط ، مؤكدة ارتباطه بالسواحل الشمالية ، كما هو مرتبط بالسواحل الشرقية ، كما أنها أكدت الظروف الجغرافية التي ربطت المغرب بعالم البحر المتوسط (٦٥) •

(٧) الدويلات التي خلفت قرطاج :

في أعقاب تدمير الروم لقرطاج في عام ٤٦ قبل ايلاد ، وتحصيل اقليمها الى مجرد ولاية رومانية ، أصبح مصير شمال أفريقيا يتحكم فيه

(٦٥) ب. ٥٥. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧٣ - ٤٧٤ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٨٣ •

الغزاة الرومان ، فضلا عن الممالك الوطنية ، ومن ثم فقد قسم الرومان المغرب الى قسمين رئيسيين : الواحد : الولاية الافريقية ، وكانت تشمل منطقة العاصمة قرطاج بصفة خاصة ، وكانت الامور فيه بيد الروم بصورة كاملة ، والثانى : الممالك البربرية ، وتنقسم بدورها الى مملكتين : وهما : نوميديا ، وعاصمتها «قرطة» (قسنطينة) ، موريتانيا ، وعاصمتها «ايول» التى اعيد تسميتها «قيصرية» ، وهى «شرشال» •

وفي عام ٤٤ قبل الميلاد ، قسمت «موريتانيا» الى ولايتين ، الاولى : موريتانيا القيصرية ، وعاصمتها «قيصرية» (شرشال) ، والثانية : موريتانيا الطنجية ، وعصمتها «تنجيس» (Tingis) وهى «طنجة» •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا — وقبل الحديث الموجز عن ولايتي نوميديا وموريتانيا ، اللتين خلفتا قرطاج فى الشمال الهريقى — الى عدة نقاط ، لعل من أهمها (أولا) أن هاتين الدولتين — أو المملكتين — انما قد اعترفنا بالسيادة الرومية ، وان تركت مقاليد الحكم فيها — بصفة عامة — لأبناء هاتين المملكتين تحت السيادة الرومية ، ومنها (ثانيا) أن التأثير الثقافى القرطاجى ، انما قد استمر فى هاتين الدولتين ، بل انه ربما قد ازداد عما كان عليه الحال من قبل ، حيث قد انتعشت المستوطنات الساحلية القديمة ، والتى كان قد هرب اليها العديد من اللاجئين فى سنوات الصراع الرومانى القرطاجى الاخير ، كما انتشرت اللغة الفينيقية فى صورتها الاخيرة ، والتى عرفت باسم «البونية الجديدة» (Neo-Punic) على نطاق أوسع من ذى قبل ، وهناك ما يشير الى أن الروم انما قد سلموا للملوك النوميديين المكتبات التى نجت من التخريب الشامل الذى حل بقرطاج فى ساعات سقوطها الاخيرة ، وربما كانت لبعض هذه الكتب قيمة علمية ، مثل بحوث «ماقون» فى الزراعة مثلا •

ومنها (ثالثا) أن المملكتين — النوميديية والموريتانية — انما كانت ، والى حد كبير ، مجرد اصطلاحين جغرافيين ، حيث أن عددا كبيرا من القبائل فى هاتين المملكتين ، انما ظل محتفظا بشخصيته المميزة فى العصر

الرومانى ، وربما بعد ذلك ، وأن الوحدة السياسية فيها انما ظلت هشة الى حد كبير ، وقد زاد من حدة التفكك السياسى تعدد الزيجات داخل الاسرة الملكية ، فضلا عن التدخل الرومانى فيما بعد^(٦٦) ، ولنتحدث الان بكثير من الايجاز عن هاتين المملكتين :

١ - نوميديا :

من المعروف أنه عندما مات «ماسينيسا» فى عام ٤٨ قـل الميلاد ، خلفه فى حكم «نوميديا» ولده «ميسبسا» (Micipsa) (١٤٨ — ١١٨ قـم) والذى تميز عهده بازدياد حجم التبادل التجارى بين روما وايطاليا وبين النوميديين ، ومن ثم فقد أصبحنا نسمع كثيرا عن العديد من التجار فى العاصمة «قرطه» ، وعندما توفى انتقل حكم نوميديا الى اثنين من أخوته ، فضلا عن ابن أخ لهما يدعى «يوجورثا» (يوغرطه — Jugurtha) ، حفيد «ماسينيسا» ، والذى كان يحظى بتأييد رجل الدولة الرومانى «سكيبو ايميليانوس» (Scipio Ameillanus) — كما كان جده «ماسينسا» يحظى بتأييد سكيبو الافريقى .

ومن المعروف أن «يوجورثا» انما كان من ذلك النوع من الرجال ، أصحاب الشخصيات القوية والطموحات الكبيرة ، ومن ثم فقد كان يسعى جاهدا ليكون الحاكم الاوحد فى نوميديا ، الامر الذى أثار عليه عمه «مكبسا» (ميسبسا) ، ومن ثم فقد أرسله فى حملة عسكرية لتأييد الرومان فى حروبهم فى أسبانيا ، غير أن «يوجورثا» سرعان ما أظهر هناك قدرات عسكرية فائقة ، كفلت له النجاح فى مهمته ، فضلا عن تقدير الرومان العظيم له ، الامر الذى اضطر «ميسبسا» الى تبنيه ومحاولة التوفيق بينه وبين أولاده ، ثم الوصاية له بالعرش — بعد بنيه — مما أعطاه حقا شرعيا فى العرش ، ثم العمل على الانفراد به ، من دون ولدى عمه «أدهربال» (Adherbal) و «همبسال» (Hiempsal) ، وهكذا ما أن مات «ميسبسا» حتى كان الخلاف على أشده بين الورثة الثلاثة

(٦٦) بـ ٠ هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

«يوجورتا وادهربال وهيمبسال» وفر «أدهربال» الى روما طالبا حمايتها ، الامر الذى يتفق وسياسة الرومان فى التفرقة بين البربر ، غير أن «يوجورتا» سرعان ما فعل الشئ نفسه ، ونجح فى اكتساب كثير من أعضاء مجلس السيناتو •

وانتهت الامور فى عام ١٦ قبل الميلاد ، بأن قسمت روما مملكة نوميديا الى مملكتين ، الواحدة : شرقية يحكمها «أدهربال» ، وتمتد من حدود الدولة القرطاجية القديمة — والتى أصبحت الولاية الإفريقية الرومانية — وحتى حدود «قرته» ، والاخرى : غربية ، وتمتد حتى الحدود الشرقية للمغرب الاقصى أى وادى ملوية ، ويحكمها «يوجورتا» •

غير أن «يوجورتا» سرعان ما ثار على هذا الوضع ، واستولى على «قرطة» ، وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى لنوميديا — المملكة البربرية — تحت رياسته ، وهو أمر ، لاشك فى أنه يتعارض تماما مع السياسة الرومية ، وقد يؤدى — فى نفس الوقت — الى تكوين قوة بربرية جديدة لها شأنها فى المغرب ، يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية القديمة،ومن ثم فقد انتهز الروم قتل «يوجورتا» لافراد الجالية الايطالية هناك ، فأعلنوا عليه الحرب ، وهكذا بدا صراع عنيف بين يوجورتا والروم فى الفترة (١١١ — ١٠٥ ق.م) ، حقق فيها الرجل عدة انتصارات على الروم ، بعد أن الحق بجيوشهم هزائم منكرة ، غير أن روما سرعان ما لجأت الى الخداع والمؤامرات حتى أمكنها الايقاع به ، وأخيرا غرر به حموه «بوخوس» (Bocchus) — ملك موريتانيا ، وسلمه للرومان ، بناء على اتفاق بين بوخوس والقائد الرومانى «سلا» (Sulla) ، وهكذا تحقق للرومان ما يريدون من تقوية نفوذهم فى المغرب ، وقتل «يوجورتا» فى عام ١٠٤ ق.م ، ونال «بوخوس» ثمن غدره بصهره اقليما كبيرا شرقى ملوية •

وسرعان ما نصبت روما عضوا اخر من أسرة «ماسينيسا» ملكا يدعى «غودة» أو «جودة» (Gauda) ، ثم خلفه ولده «هيمبسال»

(Heimpsal) الذى خلعه أحد منافسيه قرابة أعوام خمسة (٨٨ - ٨٣ ق.م) ، غير أنه أعيد مرة أخرى الى الحكم لمدة تقرب من ثلاثة وعشرين عاما (٨٣ - ٦٠ ق.م) ، ومن المعروف عنه أنه ألف كتابا عن أفريقيا باللغة البونية ، وفي أكبر الظن أنه استمر في الخط الحضارى الذى بدأته أسرته .

هذا وقد تورطت نوميديا - في أخريات أيامها كدولة مستقلة - في الحرب الاهلية التى دمرت الجمهورية الرومانية ، وذلك بسبب اهانة تلقاها «يوبيا» (Juba) بن «هييمبسال» (٦٠ - ٤٦ ق.م) على يد «يوليوس قيصر» باعتباره فتى صغيرا ، الامر الذى دفع «يوبيا» الى الانضمام الى معسكر «بومبي» في عام ٤٩ قبل الميلاد ، وقدم له قدرا كبيرا من المساعدة في أفريقيا ، حتى قيل ان «يوبيا» قد وعد بأن يتولى امارة الاقليم الرومانى في أفريقيا ، اذ ما قدر للأنصار «بومبي» (١٠٦ - ٤٨ ق.م) أن يكسبو الحرب ، غير أن النصر انما كان من نصيب «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) في معركة «تابسوس» (رأس الديماس على الساحل التونسى) ، في عام ٤٦ ق.م ، الامر الذى أدى الى انتحار «يوبيا» ، وفرض الحكم الرومانى المباشر على نوميديا ، فضلا عن تكزين ولاية جديدة - الى جانب ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية - وقد دعت المولاية الجديدة ، ولاية «أفريقيا الجديدة» ، وهكذا بدأ الرومان يثبتون أقدامهم في المغرب ، مما مهد في السنوات التالية الى احتلال كامل للمنطقة ، واعتبارها جزءا من الامبراطورية الرومانية (٦٧) .

٢ - موريتانيا :

يذهب المؤرخون الى أن تقدم المملكة الموريتانية - بصفة عامة - أكثر بطلا من نوميديا ، وربما كان هذا التصور بسبب نقص المعلومات ، غير أنه من الواضح أن الجزء الرئيسى لجبال أطلس انما ظل حصنا

(٦٧) ب. ه. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢ .

للحضارة الفينيقية — مثلما كان فيما بعد للحضارة الرومانية — ومع ذلك، فلا ريب في أن هناك بعض التقدم في حياة الاستقرار في المناطق الخصبة مثل «وادي ملوية» ، وعلى طول سباحل الاطلنطى ، وفي المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الرومانى ، وحتى بعد ذلك .

هذا وقد أشرنا من قبل ، أن «بوخوس الاول» انما كان قد ساعد «يوجورتا» ضد الروم ، ولكنه قد غدر به فيما بعد ، ونال ثمن خيانتته اقليما كبيرا شرقى ملوية ، وفي الجيل التالى يبدو أن المنطقة قسمت ، فحكم «بوخوس الثانى» الجزء الشرقى من موريتانيا ، وقد اشترك مع المغامر الايطالى «سيتيوس» (Sittius) فى القتال ضد «يوبيا» لصالح «يوليوس قيصر» ، وقد أيدته كذلك «بوجود» (Bogud) ، حاكم الجزء الغربى (غرب ملوية) ، وقد كوفىء كلاهما ، فوسع «بوخوس» اقليمه على حساب نوميديا ، وبعد سنوات قليلة أيد «بوجود» (بوغود) «ماركوس أنطونيوس» (٨٣ — ٣٠ ق.م) ضد «أوكتافىوس» (٦٣ ق.م — ١٤ م) فى الحرب الاهلية الرومانية ، فطرده «بوخوس» من أرضه لصالح أوكتافىوس .

هذا وقد صارت كل هذه المنطقة — بعد موت بوخوس فى عام ٣٣ ق.م ، ومقتل بوجود فى عام ٣١ ق.م — خلوا من أى حاكم وطنى ، وكان فى امكان روما ضمها اليها مباشرة ، غير أن القيصر «جايوس أوكتافىوس» — ابن أخ يوليوس قيصر ، والذي صار امبراطورا يحمل لقب «أغسطس» (٢٧ ق.م — ١٤ م) — انما رأى أن الوقت لم يبعد بعد مناسبا ، لكى تتولى روما الحكم المباشر ، ربما خوفا من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية .

وأيا ما كان الامر ، ففى عام ٢٥ قبل الميلاد ، نصب «يوبيا» الثانى — ابن الملك النوميى الاخير — ملكا ، وهو الذى قضى طفولته منذ الرابعة من عمره فى ايطاليا ، والذي أعاد تنظيم المملكة النوميديه مؤقتا فى الفترة (٣٠ — ٢٥ ق.م) ، وقد استمر هذا الملك «يوبيا الثانى» فى الحكم أكثر

من أربعين سنة (٢٥ ق م - ١٥ م) ، كان خلالها دونما ريب عميلا مخلصا للروم ، وقد قام في موريتانيا - والى حد ما - بنفس الدور الذى قام به «ماسينيسا» فى ندميديا ، وان كان الامر الذى لا شك فيه أن عاصمته «ايول» Iol يمكن آخر الامر من اخضاعها فى عام ٢١٢ ق م قد صارت متحضرة فى عصره ، كما صارت كذلك العاصمة البديلة «وليلي» (فولوبيليس - Volubilis) متحضرة أيضا (٦٨) .

وعلى أية حال ، فهناك من يذهب الى أن «يوبى الثانى» هذا ، انما كان يعد مواطنا رومانيا ، وأنه قد ارتبط بالزواج بالاميرة «كليوبترا» ابنة الملكة الشهيرة «كليوبترا» آخر ملوك البطالمة وأن عصره انما يعد - من الناحية الحضارية - أقرب الى الصفة الدولية ، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية ، وقد دعم هذا الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلف هذه الثقافات فى ذلك العصر ، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والادب ، حتى نسب اليه تأليف عدد من الكتب بالاغريقية ، وان لم يوجد منها شئ الان .

على أن تأثره بالثقافة الرومانية كان أكثر وضوحا من غيره ، ربما بسبب نشأته الرومانية ، من ثم فقد اتجه الى النظام السياسى الرومانى ، فضلا عن العقيدة نفسها ، ومن هنا فانه - على الرغم من أن البربر انما كانوا يتمسكون بالمعبودات البربية الاصل ، والتى أمن بها الفينيقيون والقرطاجيون سواء بسواء - غير أن «يوبى الثانى» انما اعتنق عبادة الامبراطور الرومانى «أوغسطس» ، بل وشيد فى عاصمته «شرشال» معبدا للامبراطور أوغسطس (٢٧ ق م - ١٤ م) (٦٩) .

وعلى أية حال ، فلقد تميز عهد «يوبى الثانى» أيضا بثورة «تلكاريناس» (Tacfarinas) ، والتى استمرت ثمانى سنوات (١٧ - ٢٤ م) ، على أيام الامبراطور الرومانى «تيبيريوس» (١٤ - ٣٧ م) ،

(٦٨) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧٣ .
(٦٩) رشيد الناصورى : المرجع السابق ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

وامتدت الى كل المناطق الجنوبية لشمال أفريقيا — من طرابلس حتى موريتانيا — .

ومن عجب أن يزعم المؤرخون الاوربيون — أو بعضهم على الاقل — أن هذه الحرب انما كانت تمثل صراعا بين الحضارة والعالم البربرى (غير المتحضر) ، ومحاولة من البدو ، وأشباه البدو ، من السكان الاصليين ، لوقف التقدم الرومانى وعملية الاستيطان ، رافضين بذلك نمطا حضاريا أرقى ، ونظاما اجتماعيا أفضل (٧٠) .

غير أن المطالب التى نسبت الى «تكفاريناس» انما تقدم لنا فكرة واضحة عن الاسباب الاساسية للثورة ، ولقاومة السكان الاصليين للاستيطان الرومانى ، فلقد حمل الثائر النوميدي (تكفاريناس) السلاح لارغام أقوى امبراطور وقت ذاك ، على الاعتراف بحق شعبه فى أرضه ، ذلك لأن الغزو الرومانى انما قد أدى الى مصادرة كل الارضين الخصبة فى الحال ، وخربت حقول النوميديين المستقرين ، كما تقلصت ، وأحيانا حددت المناطق التى تعارف النوميديون على التجوال فيها ، ووطأ المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان بأقدامهم فى كل مكان ، بادئين بأغنى أجزاء البلاد ، واقتطعت شركات التزام جباية الضرائب ، وأعضاء الارستقراطية الرومانية ، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم ، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة ، فإن الرعاة الاصليين ، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتابة ، أو اجراءات المصادرة للملكية الشخصية ، فهم اما تحولوا الى فقر مدقع ، أو طردوا الى السهوب غير المشجرة ، والى الصحراء ، وصار أملهم الوحيد فى المقاومة المسلحة ، أو كان هدفهم الرئيسى من الحرب ، هو استعادة أراضيهم (٧١) .

(٧٠) انظر :

P. Romanelli, Storia delle Province romane dell'Africa, Rome, 1959, P. 227-228.

(٧١) عمار محجوبى : العصر الرومانى وما بعده فى شمال افريقيا — كتاب تاريخ افريقيا العام — تورينو ١٩٨٥ ص ٤٧٦ .

وعلى أية حال ، فلقد تبادل «تكفاريناس» مع الروم ، النصر والهزيمة ، طوال سنوات الثورة الثماني ، حتى تمكن الروم آخر الامر من استخدام طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات «تكفاريناس» ، وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته ، حتى تمكنوا آخر الامر من التحكم في الموقف ، وقتل «تكفاريناس» عام ٢٤ م .

وجاء بعد «يوبيا الثاني» ولده «بطليموس» ، والذي ظل يحكم موريتانيا في الفترة (٢٣ - ٤٠ م) ثم استدعاه الامبراطور «جايوس كاليجولا» (٣٧ - ٤١ م) وأعدمه لسبب غير معروف ، على وجه اليقين ، على رأى ، ولأنه اجتذب انتباه الحاضرين بزيه الارجواني اللون في حفل رسمي في عام ٤٠ بعد الميلاد ، على رأى ثان ، غير أن السبب الحقيقي انما يرجع ، دونما ريب - الى أن الرومان انما كانوا يرغبون في الاستيلاء على المناطق شبه المستقلة في المغرب ، ثم ضمها الى حظيرة الامبراطورية الرومانية ، وقد تحقق لهم هذا الامر ، ومن ثم فقد انشئت ولايتى موريتانيا القيصرية والطنجية ، داخل نطاق المغرب الرومانى .

وهكذا أصبح المغرب يتكون من أربع ولايات رئيسية هى : أفريقيا ونوميديا وموريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية ، وقد امتدت الولاية الافريقية في جانبها الشرقى حتى مدينة طرابلس ، وفي جانبها الغربى حتى مدينة عنابة ، بينما تركزت ولاية نوميديا في شرقى الجزائر ، وأما ولايتا موريتانيا - القيصرية والطنجية - فتحتل مناطق غربى الجزائر والمغرب الاقصى ، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا - Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية ، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية (٧٢) .

(٧٢) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .

المراجع المختارة

أولا - المراجع العربية :

- الدكتور ابراهيم أحمد زرقانة : الحضارات المصرية في فجر التاريخ -
القاهرة ١٩٤٨ .
- الدكتور أحمد بدوى : في موكب الشمس (جزءان) - القاهرة ١٩٥٠ /
١٩٥٥ .
- الدكتور أحمد فخرى : مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١ .
- أم الخير العقون : العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال افريقيا
منذ أقدم العصور حتى نهاية الالف الثانى قبل الميلاد -
الاسكندرية ١٩٨٨ .
- الدكتور حسن أحمد محمود وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم -
القاهرة .
- الدكتور حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغرب القديم أثناء
العصر الحجري الحديث - الاسكندرية ١٩٧٥ .
- الدكتور رشيد الناصورى :
- ١ - المغرب الكبير - الجزء الاول - العصور القديمة - الاسكندرية
١٩٦٦ .
- ٢ - جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا (جزءان) - بيروت ٦٨ /
١٩٦٩ .
- الدكتور سليم حسن : مصر القديمة (١٣ جزءا) - القاهرة ١٩٤٠ / ١٩٦٠ .
- الدكتور طه باقر : عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها بأصول
الحضارات القديمة - بحث منشور / «ليبيا في التاريخ» -
بنى غازى ١٩٦٨ .
- الدكتور عبد الحميد زايد :
- ١ - مصر الخالدة - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢ - الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ .
- الدكتور عبد السلام محمد شلوف :
- ١ - المقاومة الوطنية الليبية للاستعمار الاغريقى - بنغازى ١٩٨٥ .
- ٢ - نقوش من قورينايقا تتحدث عن المقاومة الوطنية الليبية
للاستعمار الرومانى - مجلة البحوث التاريخية - العدد
الثانى - بنغازى ١٩٨٦ .
- الدكتور عبد العزيز صالح :
- ١ - حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٢ .

- ٢ - الشرق الادنى القديم - الجزء الاول - مصر والعراق -
القاهرة ١٩٦٧ .
- عبد الكريم فضيل الميار : قورينا في العصر الرومانى - طرابلس ١٩٧٨ .
- الدكتور عبد اللطيف احمد على : روما - الجزء الاول - تاريخ الجمهورية
والامبراطورية الرومانية - القاهرة ١٩٥٨ .
- الدكتور عبد المنعم أبو بكر : كفاحنا ضد الغزاة - العصر الفرعونى -
القاهرة ١٩٥٧ .
- الدكتور فوزى فاهيم جاد الله : المقاومة الوطنية للاغريق والرومان - طرابلس
١٩٨١ .
- الدكتور محمد بيومى مهران :
- ١ - الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية - الاسكندرية
١٩٦٦ .
 - ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رمسيس الثالث - الاسكندرية
١٩٦٩ .
 - ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ .
 - ٤ - مصر - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ .
 - ٥ - مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ .
 - ٦ - مصر - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ .
 - ٧ - اسرائيل - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٧٨ .
 - ٨ - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ .
 - ٩ - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٩ .
 - ١٠ - المدن الفينيقية - الاسكندرية ١٩٨٩ .
 - ١١ - بلاد الشام - الاسكندرية ١٩٩٠ .
- الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور :
- ١ - معالم تاريخ الشرق الادنى القديم - الاسكندرية - ١٩٦٨ .
 - ٢ - المدن الفينيقية - بيروت ١٩٨١ .
- محمد مصطفى بازان : تاريخ ليبيا - الجزء الاول - عصور ما قبل
التاريخ - بنغازى ١٩٧٣ م .
- الدكتور مصطفى العبادى : مذكرات فى التاريخ الرومانى - بيروت .

مصطفى عامر : تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعوني - حضارات
عصر ما قبل التاريخ - القاهرة ١٩٦٢ .

الدكتور مصطفى كمال عبد العليم : دراسات في تاريخ ليبيا القديم -
بنغازي ١٩٦٦ .

الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء الثالث -
الاسكندرية ١٩٦٦ .

ثانيا - المراجع المترجمة :

الن جاردنر : مصر الفراعنة - ترجمة نجيب ميخائيل - ومراجعة
عبد المنعم أبو بكر - القاهرة ١٩٧٣ .

ايتين دريوتون وجاك فاندييه : مصر - ترجمة عباس بيومي - القاهرة
١٩٥٠ م .

ب . ه . وارمنجتون : العصر القرطاجي - تاريخ افريقيا العام - تورينو
ايطاليا ١٩٨٥ م .

ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية - ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة -
القاهرة ١٩٦٥ .

جان بويوت : مصر الفرعونية - ترجمة سعد زهران ، ومراجعة
عبد المنعم أبو بكر - القاهرة ١٩٦٦ .

جيهان ديزانج : البربر الاصليون - من كتاب تاريخ افريقيا العام
(ص ٤٣١ - ٤٥١) - تورينو - ايطاليا - ١٩٨٥ .

جون ويلسون : الحضارة المصرية - ترجمة أحمد فخري - القاهرة ١٩٥٦ .

رودلف كوبر : من الصيد الى الرعى - ما هو العصر الحجري الحديث
في الصحراء الكبرى - من كتاب الصحراء الكبرى - ترجمة
مكايل محرز - ليبيا ١٩٧٩ .

سبتيو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة - ترجمه وزاد عليه
الدكتور السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ .

عمار محجوبي : العصر الروماني وما بعده في شمال افريقيا - تاريخ
افريقيا العام - تورينو - ١٩٨٥ .

فبريو موري : حول تاريخ الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى - ترجمة
مكايل محرز - كتاب الصحراء الكبرى - ليبيا ١٩٧٩ .

فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الاول - ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ .

كارل شترينتر : الرسوم الصخرية كمصدر تاريخي - ترجمة عماد الدين غانم - كتاب الصحراء الكبرى - ليبيا - ١٩٧٩ .

مانفرد فيير : المصريون القدماء والصحراء الكبرى - ترجمة عماد الدين غانم - كتاب الصحراء الكبرى - ليبيا ١٩٧٩ .

هربرت جورج ويلز :

١ - معالم تاريخ الانسانية - المجلد الثاني - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة ١٩٦٩ .

٢ - موجز تاريخ العالم - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة ١٩٦٧ .

ول ديورانت :

١ - قصة الحضارة - الجزء الثاني - ترجمة محمد بدران - القاهرة ١٩٦١ .

٢ - قصة الحضارة - الجزء الثالث من المجلد الثاني - حياة اليونان - ترجمة محمد بدران - القاهرة ١٩٥٤ .

ثالثا : المراجع الاجنبية :

Alimen, (H.),

1. Atlas de Prehistoire. Boubee, Paris, 1950.
2. Prehistoire de L'Afrique, I, Boubee, 1955.

Arkell, (J. A.),

1. Early Khartoum, Oxford, 1949.
2. Shaheinab, Oxford, 1953.
3. A History of The Sudan from The Earliest Time To 1821, London, 1961.

Balout, (L.), Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955.

Baramki, (D.), Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961.

Bates, (O.), The Eastern Libyans, London, 1814, 1970.

Baumgartel, (E. J.), The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols, Oxford, 1955, 1960.

Bovier - Lapierre, (R. P.), L'Egypte Prehistorique, Precies de L'Histoire de L'Egypte Le Caire, 1932.

Braidwood (R. J.), Near Eastern Prehistory in Science, 127, 1957.

Braidwood, (R. J.) and Reed, (C.), The Achievement and Early Consequences Food-Production, SQB, XXII, 1957.

Breasted, (J. H.),

1. A History of Egypt, from The Earliest Times to The Persian Conquest, London, 1927, N. Y., 1946.
2. Ancient Records of Egypt, 4 Vols, Chicago, 1906-1907.

Camps, (G.), Delibrias, (G), et Thommeret, (J.), Chronologie absolue et Succession des Civilisations Prehistoriques dans le Nord de L'Afrique, Libyca, XVI, 1968.

Camps - Fabrer, (H.), Matiere et Art Mobilier dans la Prehistoire Nord-Africaine et Saharienne, Memoires du C.R.A.P.E., 5, Paris, 1966.

Caton - Thompson, (G.) and E. W. Gardiner,

1. The Prehistoric of Khargah Oasis, The Geographical Journal, LXXX, 1832.
2. The Desert Fayum, I, London, 1943.

Cerny, (J.) I - Egypt, From The Death of Ramesses, III, to The End of The Twenty - First Dynasty, CAH, II, Part, 2, B, Cambridge, 1980.

Chamla, (M. C.),

1. Recherches Anthropologiques sur L'Origine des Malgaches, 1958.
2. Les Populations Anciennes du Sahara et des régions Limitrophes Etude des restes Osseux humains Neolithiques et Protohistoriques, Mem, CRAPE, IX, 1968.
3. Les hommes epipaleolithiques de Columnata, (Algerie Occidentale) Mem, CRAPE, XV, 1970.

Clark, (G.), Prehistory of The World, Cambridge, 1962.

Cotteville, (Giraudet), L'Egypte Avant L'Histoire, BIFAO, 33, 1933.

Daumas, (F.), La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965.

De Margan, (J.), La Prehistoire Orientale, II, L'Egypte et L'Afrique du Nord, Paris, 1926.

Drioton, (E.), Contenau (G.) and Duchesse, (J.), The Religion of The Ancient East, London, 1959.

Drioton, (E.) et Vandier, (J.), L'Egypte, Paris, 1965.

Duassaud, (R.),

1. Les Decouverts de Ras-Shamra, Paris, 1949.
2. Les religions des Hittites et des Hourrites des Pheniciens et Syriens, Paris, 1949.

Edgerton, (W. F.) and Wilson, (J.), Historical Records of Ramesses, III, The Texts in Medinet Habu, I, II, Chicago, 1936.

Edwards, (I.E.S.), The Early Dynastic Period in Egypt, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971.

Page, (J. D.), *An Introduction to The African History*, Cambridge, 1955.

Fakhry, (A.),

1. Wadi el-Natron, *ASAE*, 40, 1940.
2. Bahria Oasis, I, Cairo, 1942.

Faulkner, (R. O.),

1. The Wars of Sethos, I, in *JEA*, 33, 1947.
2. Egypt, From The Inception of The Nineteenth Dynasty to The Death of Ramesses, III, *CAH*, II, Part, 2, A. Cambridge, 1975.

Fisher, (H. G.), A God and a General of The Oasis on a Stela of The Late Middle Kingdom, in *JNES*, 16, 1957.

Foureau - Lamy, *Documents Scientifiques De La Mission Saharienne*, II, *Bublications De la Societe Geographique De Paris*, 1905.

Furon, (R.), *Manuel de Prehistoire Generale*, Paris, 1958.

Gardiner, (A. H.),

1. *Ancien Egyptian Onomastica* 3 Vols, Oxford, 1947.
2. *Egypt of The Pharaohs*, Oxford, 1961.
3. The Founding of A New Delta Town in The Twentieth Dynasty, in *JEA*, 34, 1948.

Gilbert and Colette Charles - Picard, *Daily Life in Carthage*, Translated in English, by A. E. Foster, London, 1961.

Goodchild, (R. G.), *Cyrene and Apollonia, an Historical Guide*, London 1963.

Gsell, (S.), *Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord*, 8 Vols, Paris, 1913-1928.

Harden, (D.), *The Phoenicians*, London, 1963.

Hayes, (W. C.),

1. *The Scepter of Egypt*, I, II, New York, 1943, 1959.
2. *Most Ancient Egypt*, Chicago, 1965.

Hill, (G. F.),

2. *Guide and Greek Coins*, London, 1932.

- Hours - Miedan, (M.), Carthage, (Presses Universitaires), 1949.
- Huzayyin, (S. A.), The Place of Egypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, Le Caire, 1941.
- Jodin, (A.), Les Grottes d'El Khril a Achakar (Province de Tanger), Bull. d'Archeol. Norac, III, 1950-1959.
- Julien, (C. A.), Histoire De L'Afrique Du Nord, Paris, 1975.
- Kees, (H.), Ancient Egypt, A Cultural Topography, Translated from The German, by I.F.D. Moorow, London, 1961.
- Kitchen, (K. A.), The Third Intermediate Period in Egypt Oxford, 1972.
- Kochler, (H.),
1. La Grotte d'Achakar au cap Spertel, Bull. de L'Inst. d'Et. des Relig. de L'Eveche de Rabat, 1931.
 2. Le Vase Neolithique de la Grotte d'Achakar, Bull. de la Soc. de Prehist. du Marco., III, 1929.
- Quiblle, (J. E.), Hierakonopolis, I, London, 1900.
- Quiblle, (J. E.), and Green, (F. W.), Hierakonopolis, II, London, 1902.
- Lapeyre, (G. G.) et Pellegrin, (A.), Carthage Punique, Payot, 1942.
- Massoulard, (E.), Prehistoire et Protohistoire de L'Egypte, Paris, 1949.
- Mc Burney, (C. B. M.),
1. The Stone Age of Northern Africa, London, 1960.
 2. The Haua Fteah (Crenaica) and The Stone Age of The South - East Mediterranean, Cambridge, 1961.
- Mellart, (J.), Earliest Civilizations of The Near East, London, 1965.
- Mokhtar, (M. G.), Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957.
- Mori, (F.), Prehistoric Saharan Art and Cultures in The Light of Discoveries in The Acaus Massif, (Libyan Sahara), 1968.
- Moscatti, (S.),
1. The World of The Phoenicians, London, 1968.
 2. Ancient Semitic Civilizations, London, 1957.

- Newberry, (P. E.), The Set Rebellion of The II nd Dynasty, Ancient Egypt, 1922.
- Peake, (H. J. E.), The Orignes of Agriculture, London, 1940.
- Petrie, (W. M. F.),
1. Prehistoric Egypt, BSAE, 13, London, 1920.
 2. The Wisdom of Egyptians, London, 1940.
- Rhulman, (A.), La Grotte Prehistorique De Dar-Essoltan, Paris, 1951.
- Robinson, (F.S.G.), Punic in Spain, London, 1965.
- Rostovtzeff, (M.), The Social and Economic History of The Roman Empire I, Oxford, 1979.
- Scharff, (A.), Some Prehistoris Vases in The British Musum, in JEA, 14, 1928.
- Seligman, (C.), The Older Paleolithic Ago in Egypt, JRAI, 1921.
- Strabo,
1. The Geography of Strabo, Translated by Hamilton, London, 1912.
 2. The Geography of Strabo, Translated by H. L. Jones, London 1960.
- Unger, (M. F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.
- Vallois, (H. V.), L'homme de Rabat, in Bulleton d'Archeologie Marocaine, III, 1958-1959.
- Vaufrey, (R.),
1. La Prehistoire de L'Afrique, I, le Maghreb, Paris, 1955.
 2. L'Art Rupestre nord Africain, Archives de L'Institut de Paleontologie Humaine, 20, Paris, 1939.
- Vignard, (E.),
1. Une Station Aurignacienne A Nag-Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921.
 2. Une Nouvelle Industrie Lithique : Le Sebilien, in Bull. Soc. Preh. fr., 25, 1928.

Wainwright, (G. A.),

1. The Red Crown in Early Prehistoric Times, in JEA, 9, 1923.
2. Some Sea-People, in JEA, 47, 1961.
3. The Meshwesh, in JEA, 48, 1962.

Warmington, (B. H.),

1. Carthage, London, 1960.
2. The North African Provinces from Diocletian to The Vandal Conquest, Cambridge, 1954.

Weigall, (A.), Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968.

Weill, (R.), Les IIe et IIIe Dynastie égyptiennes, Paris, 1908.

Wells, (H. G.),

1. The Outline of History, New York, 1865.
2. A Short History of The World, (Penguin Books), 1965.

Wendorf, (F.), The Prehistory of Nubia, I, II, Dallas-Texas, U. S. A., 1968.

Wilcox, (A. R.), Rock Art of Africa, New York, 1948.

Wilson, (J.),

1. The Libyans and The End of The Egyptian Empire, in AJSL, LI, 1935.
2. The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
3. Hymn of Victory of Mer-ne-Ptah, ANET, 1966.

Yoyotte, (J.),

1. Anthroponymes d'Origine Libyenne dans les documents égyptiens, CRGLCS, 8, 1985.
2. Les Principautés du delta au Temps de L'anarchie Libyenne. Melanges Maspero, Paris, 1961.
3. Egypte Ancienne, Histoire Universelle, Paris, 1965.

محتویات الكتاب

البَابُ الأول

عصور ما قبل التاريخ

- الفصل الاول : العصر الحجري القديم ... ٩ ... ٩
- ١ - العصر الحجري القديم الاسفل ... ٩ ... ٩
- ٢ - العصر الحجري القديم الاوسط ... ١١ ... ١١
- ٣ - العصر الحجري القديم الاعلى ... ١٥ ... ١٥
- ١ - الحضارة الوهرانية ... ١٧ ... ١٧
- ب - الحضارة القفصية ... ٢٤ ... ٢٤
- الفصل الثانى : العصر الحجري الحديث ... ٣٣ ... ٣٣
- ١ - تقديم ... ٣٣ ... ٣٣
- ٢ - الموطن الاول للزراعة ... ٣٨ ... ٣٨
- ٣ - العصر الحجري الحديث فى المغرب ... ٤١ ... ٤١
- ١ - فى المغرب ... ٤٢ ... ٤٢
- ب - فى الصحراء ... ٤٨ ... ٤٨
- ٤ - من مظاهر الحضارة فى العصر الحجري الحديث ... ٥٠ ... ٥٠

البَابُ الثانى

سكان المغرب القديم

- الفصل الاول : سكان المغرب القديم فيما قبل هجرات شعوب البحر ... ٥٩ ... ٥٩
- ١ - فى العصر الحجري القديم ... ٥٩ ... ٥٩
- ٢ - فى العصر الحجري الحديث ... ٦٤ ... ٦٤
- الفصل الثانى : التحنو والتمحو والمشوش والليو ... ٦٧ ... ٦٧
- ١ - التحنو ... ٦٩ ... ٦٩

٧٦	٢ - التملحو
٨٢	٣ - المشوش
٨٧	٤ - الللبو
٨٩	٥ - القلق

الباب الثالث

علاقات مصر بالشمال الافريقى

الفصل الاول : علاقات مصر بالشمال الافريقى فيما قبل عصر

٩٣	الدولة الحديثة
٩٣	١ - تقديم
٩٥	٢ - فى عصور ما قبل التاريخ
٩٥	٣ - فى عصر ما قبل الاسرات
١٠٧	٤ - فى عصر التأسيس
١٠٦	٥ - فى عصر الدولة القديمة
١٠٧	٦ - فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى
١٠٩	٧ - فى عصر الدولة الوسطى

الفصل الثانى : علاقات مصر بالشمال الافريقى فى عهد الدولة

١١٣	الحديثة
١١٣	١ - فى عهد الاسرة الثامنة عشرة
١١٤	٢ - فى عهد الاسرة التاسعة عشرة
١٢٣	٣ - فى عهد الاسرة العشرين
١٢٢	١ - الحرب الليبية الاولى
١٣٢	ب - الحرب الليبية الثانية

الفصل الثالث : الليبيون والاسرة الثمانية والعشرون

١٤١	نفوذ الاجانب بعد موت رعمسيس الثالث
١٤١	٢ - أسرة شيشنق الليبية
١٤٨	٣ - نشأة الاسرة الثمانية والعشرين
١٥١	٤ - علاقات فى العصر الصاوى

الباب الرابع

العصر الفينيقي

- الفصل الاول : الفينيقيون في بلاد الشام ... ١٥٥
- ١ - الفينيقيون والاصل السامي ... ١٥٥
- ٢ - دويلات المدن الفينيقية ... ١٦١
- ٣ - مدينة صور ... ١٦٥
- الفصل الثاني : الفينيقيون ودورهم في البحر المتوسط ... ١٧١
- ١ - الفينيقيون ودورهم في التجارة البحرية ... ١٧١
- ٢ - الفينيقيون ومستعمراتهم في البحر المتوسط ... ١٧٥
- ٣ - المستعمرات الفينيقية في الشمال الافريقي ... ١٧٩

الباب الخامس

العصر القرطاجي

- الفصل الاول : الحياة السياسية والعسكرية ... ١٨٩
- ١ - من مظاهر العصر القرطاجي ... ١٨٩
- ٢ - سكان المغرب في العصر القرطاجي ... ١٩١
- ٣ - الزعامة القرطاجية للفينيقيين الغربيين ... ١٩٢
- ٤ - التنظيم السياسي في قرطاج ... ١٩٥
- ٥ - الجيش القرطاجي ... ١٩٩
- الفصل الثاني : الحياة الدينية والاقتصادية ... ٢٠٣
- ١ - الحياة الدينية ... ٢٠٣
- ١ - فيما قبل العصر القرطاجي ... ٢٠٣
- ٢ - في العصر القرطاجي ... ٢٠٩
- ب - الحياة الاقتصادية ... ٢٢٥
- الفصل الثاني : قرطاج والصراع العسكري ضد اليونان والرومان ... ٢٣٩
- ١ - الصراع العسكري ضد الاغريق ... ٢٣٩

- ١ - العلاقات بين قرطاج والاعريق قبل القرن
السادس ق.م ٢٣٩
- ٢ - الصراع القرطاجى ضد جيلون ٢٤٠
- ٣ - الصراع القرطاجى ضد ديونيسيوس ٢٤٥
- ب - الصراع العسكرى ضد الرومان ٢٥١
- ١ - ظهور روما ٢٥١
- ٢ - علاقة قرطاج بروما قبل الحرب البونية ٢٥٥
- ٣ - الحرب البونية الاولى ٢٥٧
- ٤ - الحرب البونية الثانية ٢٦٤
- ٥ - الحرب البونية الثالثة ٢٨٠
- ٦ - التترات الفينيقي فى المغرب ٢٨٧
- ٧ - الدويلات التى خلفت قرطاج ٢٨٨
- ١ - نوميديا ٢٩٠
- ٢ - موريتانيا ٢٩٢

مؤلفات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

أولا - التاريخ المصرى القديم :

- ١ - الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية الاسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩
- ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٤ - اخناتون : عصره ودعوته القاهرة ١٩٧٩

ثانيا - فى تاريخ اليهود القديم :

- ٥ - التوراة (١) - مجلة الاسطول - العدد ٦٣ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٦ - التوراة (٢) - مجلة الاسطول - العدد ٦٤ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٧ - التوراة (٣) - مجلة الاسطول - العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٨ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة - مجلة الاسطول - العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١
- ٩ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة - مجلة الاسطول - العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٠ - النقباوة الجنسية عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١
- ١١ - أخلاقيات الحرب عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٩ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٢ - التلمود - مجلة الاسطول - العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢
- ١٣ - اسرائيل الجزء الاول - التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٤ - اسرائيل - الجزء الثانى - التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨

- ١٥ - اسرائيل - الجزء الثالث - الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩
 ١٦ - اسرائيل - الجزء الرابع - الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩
 ١٧ - النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل الاسكندرية ١٩٧٩

ثالثا - فى تاريخ العرب القديم :

- ١٨ - الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى الرياض ١٩٧٤
 ١٩ - العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة الرياض ١٩٧٦
 ٢٠ - مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة الرياض ١٩٧٧
 ٢١ - الديانة العربية القديمة الاسكندرية ١٩٧٨
 ٢٢ - العرب والفرس فى العصور القديمة الاسكندرية ١٩٧٩
 ٢٣ - الفكر الجاهلى القاهرة ١٩٨٢

رابعا - فى تاريخ العراق القديم :

- ٢٤ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٦
 ٢٥ - قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة الاسكندرية ١٩٧٩

خامسا - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

- ٢٦ - الجزء الاول - فى بلاد العرب بيروت ١٩٨٨
 ٢٧ - الجزء الثانى - فى مصر بيروت ١٩٨٨
 ٢٨ - الجزء الثالث - فى بلاد الشام بيروت ١٩٨٨
 ٢٩ - الجزء الرابع - فى العراق بيروت ١٩٨٨

سادسا - سلسلة : مصر والشرق الأدنى القديم :

- ٣٠ - مصر - الجزء الاول الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣١ - مصر - الجزء الثانى الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٢ - مصر - الجزء الثالث الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٣ - الحضارة المصرية - الجزء الاول الاسكندرية ١٩٨٩
 ٣٤ - الحضارة المصرية - الجزء الثانى الاسكندرية ١٩٨٩
 ٣٥ - تاريخ العرب القديم الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٦ - الحضارة العربية القديمة الاسكندرية ١٩٨٨

- ٣٧ - بلاد الشام الاسكندرية ١٩٩٠
٣٨ - المغرب القديم الاسكندرية ١٩٩٠
٣٩ - العراق القديم الاسكندرية تحت الطبع

سابعاً - سلسلة في رحاب النبي ﷺ وآل بيته الطاهرين :

- ٤٠ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول - بيروت ١٩٩٠
٤١ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني - بيروت ١٩٩٠
٤٢ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث - بيروت ١٩٩٠
٤٣ - السيرة فاطمة الزهراء - بيروت ١٩٩٠
٤٤ - الامام على بن أبي طالب - بيروت ١٩٩٠
٤٥ - الامام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠
٤٦ - الامام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠
٤٧ - الامام على زين العابدين - تحت الطبع

ثامناً : معجم البلدان الكبرى في مصر والشرق الادنى القديم :
(بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار) تحت الطبع

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع حمودة - رأس النبه - الإسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠

